الجمهورية الجزائرية الديمقراطية و الشعبية

جـــامعة الجـزائر
معهد علم الاجتماع

البداوة و المجتمعات المستحدثة دراسة سوسيو-أنثربولوجية حول قبيلة المَجاذْبَة بالجنوب الوهراني

للطالب عبدالعزيز راسمال

اطروحة لنيل دبلوم الدكتوراة الحلقة الثالثة
في علم الاجتماع

تحت إشراف
دامحمد السويدى

السنة الجامعية 1986

.../...

القســـم الاول :

القســـم الثاني :

.../...

الباب الثانـــي :ـ

الفصـــل الأول :ـ

.../...

.../...

.../...

* * *

* ملاحق مختلفة :

المقدمـــــة

يطـــرق موضـــوع البـــداوة والمجتمعـــات المستحدثـــة جانبـــا هامـــا من الحيـــاة الاجتماعـــية في المجتمـــع البـــدوى ، من خـــلال منطقـــة معينـــة تقطنـــها قبيلـــة بدويـــة : وهـــذا ما أدى الـــى وضـــع البحـــث فـــي نطـــاق الانثربولوجيـــا ، عـــلى الرغـــم مـــن كوننـــا نتطـــرق الـــى الجانـــب السوسيولوجـــي أحيانـــا .

فـــي الواقـــع ، هنـــاك تداخـــل بـــين علـــم الاجتماع والانثربولوجيا سـواء من ناحيـــة المنهـــج أم من ناحيـــة الموضـــوع . تقوم الأنثربولوجيـــا بدراســـة الســـلوك الاجتماعـــي في المجتمـــع ، وقـــد حاولنـــا استقصـــاء سلـــوك البـــدو فـــي المجتمـــع المحلـــي ، أو حـــتى في المجتمـــع الخارجـــي من خـــلال الانمـــاط الثقافيـــة المحليـــة أو حـــتى مـــن خلال ظاهرة " التبـــدى " (من بـــداوة) الـــتي غـــزت المناطـــق الحضريـــة أو شبـــه الحضريـــة ، مثلهـــا مثـــل ظاهـــرة " الترييـــف " الـــتي غـــزت المدينـــة من خـــلال الاكـــواخ القصديريـــة .

ثم ان مجـــال الانثربولوجيـــا يضـــم أيضـــا ، بعض المجالات الاخـــرى وهـــي الأثنولوجيـــا والاثنوغرافيـــا وغيرهـــا ، وهـــي نواحـــي تطرقنـــا اليهـــا بشكـــل او بآخـــر في موضوعنـــا هـــذا .

اذا كانـــت بدايـــة البحـــث قد ألمـــت بنظـــرة علمـــاء الاجتمـــاع الـــى البـــداوة من خـــلال بعض الدراســـات ، فذلك لأن الدراســـات الأنثربولوجيـــة بمعـــنى الكلمـــة لم تصـــل لايدينـــا : وقـــد تناولنـــا مباشـــرة بعد ذلك " علـــم اجتمـــاع السهـــب " ، ولنفـــس الســـبب المذكـــور أيضـــا .

.../...

أما بقية الدراسة فتميل كثيرا الى الجانب الانثربولوجي ، بدءا من تحديد أصل شرائح " أولاد سيدى الشيخ " ، وتوزعها وانشطارها الى قبائل حتى استقرارها في الجنوب الوهراني ، ونفس الامر بالنسبة لدراسة الحالة التي تتعرض الى القبيلة موضوع البحث " المجاذبة " .

يتأكد الطابع الانثربولوجي في الدراسة الخاصة بجدلية الترحال ، والاستقرار ؛ بمعنى آخر جدلية البداوة كمرحلة لعدم الاستقرار الاجتماعي الى مرحلة بروز المجتمعات المستحدثة ، وهي مرحلة التوطين الكلي ويتضح هذا الطابع أيضا حينما نتعرض لسكان " القصر " التي هي طائفة " آتنية " لها وزنها في المنطقة لما تؤديه من دور على صعيد المبادلة أو الحرفة أو الزراعة أو المشاركة في النشاطات المهنية ، أما تحليل السلطة السياسية ، فيتم من زاوية مانسميه بالانثروبولوجيا السياسية ، وهذا يبرز علاقة السلطة بالشرائح القبلية (العصبية ـ) ، والسلطة كنتيجة للائتلاف ، وأنواع هذه السلطة وتحيويتها .. الخ ، ثم تأرجح هذه السلطة بين الموروث والجديد ، أى بين الأعراف القبلية والموروثات والقيم البدوية وبين التحديث الذى أصبح بمثابة تدخل مباشر للدولة والسلطة السياسية العليا ، وذلك بواسطة القوانين والمراسيم السياسية من بلدية ، وحزبية ورئاسية ... الخ .

تتطلب الانثربولوجيا الالتزام بالجانب التاريخي ، كما ستعرف في تحليل الجانب المنهجي : وذلك لاعادة التركيب التاريخي لمجتمعنا البدوى ، حتى نعرف أصل تطوره ، وعلاقة بنائه الحالي بالظروف التاريخية التي مر بها بدءا من هجراته السابقة الى استقراره بالمنطقة ، ومدى تأثير الجانب التاريخي على الثقافة البدوية الحالية من خلال الذاكرة الشفوية المتناقلة بين الأجيال .

——————*

أما بخصوص أهمية البحث على النطاق المجتمعي، فيتضح أنها متنسقة مع ما نبحث عنه من حلول للتخلص من الاشكالات التي تعاني منها التنمية الاقتصادية على العموم، وسياسة التنمية السهبية بالخصوص تعاني مجتمعات "العالم الثالث" من اشكالات التنمية، وهذا البحث يريد تتبع ظاهرة اجتماعية ما، ويبرز خصوصيتها، ودورها في اطار سياسة التنمية.

يلاحظ من خلال تتبع بعض النماذج المقترحة للسياسات التنموية المتبعة في الجزائر، بأن بعضها يخضع للتصور الغربي، أو شارك فيها بعض الباحثين و"دعاة التقنية" من الأقطار الغربية، ففي الميدان الصناعي نلاحظ سابقا، السيادة المطلقة لنظرية "دوبرنيس"، "الصناعة المصنعة"، وقد اتضح فشل هذه الخطة لأنها لم تجد معادلتها الاجتماعية مهيأة *(1) وفي دراستنا، فإن بعرض التجارب المقترحة مثل "التجربة الاسترالية" ان وفقت من الناحية التقنية الا انها فشلت اقتصاديا واجتماعيا لعدم تلائمها مع الواقع المحلي.

كثيرا، ما اتجهت الدراسات الاجتماعية في الجزائر الى تخطي مشكلة "البداوة" وأصبحت أسيرة التخصص.. وهذا ما أفقرها من مدلولاتها فأصبحت مجزأة ومفرقة لا تسمح بوضع شبكة منسجمة من المعلومات العلمية حول قطاع معين من المجتمع، لذلك توخت هذه الدراسة عن طريق منطقة معينة نوعا من الدراسة الشمولية، حتى تكون ذات أبعاد موضوعية.

* (1) نفس المعادلة التي يقترحها المفكر "بن نبي" "الانسان + التراب + الوقت".

حاولنا عرض الآراء دون أحكام مسبقة أو قيمية ، وذلك بنقل الواقع دون مفاضلة أو تفضيل أو حب أو اكراه ، ولا ميل مع ، ولا ميل ضد .. فالطابع غير سجالي ، بل واقعي ، وأستقراء الوقائع الاجتماعية الماضية منها مابقي ، ومنها ما أندثر ، ومنها ماهو في دور الأضمحلال .

الدراسة الأنثربولوجية للقبيلة أو للقرية لها فائدة نفعية من الناحية العملية ، ويتأتى ذلك من خلال معرفة القوانين التي تسير هذه القرية كغيرها من القرى الجزائرية ، ومعرفة مستويات الحياة لتوجيه عملية الأنماء أو " التنمية " ثم مقارنة هذه المستويات مع غيرها .

تقوم هذه الدراسة الى المحافظة على " الجيد " وادخال الجديد من البنى الذى يتلائم مع هذا المجتمع ، وليس الدخيل عليه ، لتجنب الصراع بين " المحلي "و "الدخيل " ، أو بين "التقليدى" و " الحديث " ، وهذا الاشكال تتعرض له القرية ، بل مشكلة " الاقطار العربية " ، ومشكلة " البلدان المتخلفة " أيضا .

ان المعرفة ضرورة ، وقوة ، كما يؤكد أحد الباحثين : ولكي تكون كذلك لابد من الاحاطة بالدراسة النفسية ـ الاجتماعية للذات البدوية ، واخضاع الظواهر الاجتماعية لقانون السببية ، واعتبارها " كأشياء " ينبغي ملاحظتها * (1) .

أما بالنسبة لموضوع " البداوة الجزائرية " على العموم ، فهو موضوع حيوى أيضا ، ويستحق الدراسة أكثر من أى مجال أخر : فهو ليس التعبير فقط عن نمط معين لثقافتنا الأصلية ، بل بالاضافة الى ذلك هو استلهام موضوعي لتاريخنا ، وحل بعض الاشكالات والعقد التي مازالت تسم قسما من الفئات الاجتماعية سيطرت عليها بعض الرواسب الاستعمارية .

---

(1) voir E. DURKHEIM:- les régles de la méthode Sociologique ED/ P.U.F PARIS 1967.

والأنتوغرافيا التغريبية التي تهدف الى الغاء المعالم الحضارية لهذا المجتمع بدءا من العهد القديم الى التأثير القوى والايجابي للحضارة العربية الاسلامية .

من زاوية التنمية فان فائدة هذا الموضوع الاجرائية تتمثل في مساهمته مساهمة فعالة في استجلاء خطة التنمية المتعلقة بالسهوب الجزائرية ، وبعض الافاق المقترحة في السنوات المقبلة (مشروع الهضاب العليا) ، وهذا يبين رؤية الباحث حول أسس التنمية المقترحة التي تقوم على المعرفة الدقيقة للواقع الحسي ، وتحذير المخطط الاجتماعي ، أو المخطط السياسي من الوقوع في بعض أخطاء الاسقاط التي مازالت تسم مخططات أقطار " العالم الثالث " .

لذلك فهي محاولة لدراسة " الانسان " عمق التنمية وأساسها ، عوض وضعه ملحقا للاصلاحات التقنية بالسهب ، أى توجيه هذه الدراسة اتجاها آخر يختلف عما هو مألوف في بعض أساليب الطرح : لأن النضج الحضارى لا يتأتى الا من خلال تحويل هذا " الانسان " من كائن متسكع الى كائن واعي يساهم في العملية الحضارية لمجتمعه ، ثم تحرير محيطه الخارجي واصلاحه .

* ——————— * ——————— *

اشكالية البحث تتمثل في طرحنا لمسألة " البداوة " من زاوية أنثربولوجية ، فهل ينبغي تحليل مشكلة البداوة من جانب معين دون البحث عن أسباب أزمتها ومستقبل هذه البداوة حين تظهر المجتمعات المستحدثة ؟ هل نعبر على "أزمة " البداوة بقولنا أنها عبارة عن رواسب المجتمع القديم " التقليدى" التي ينبغي القضاء عليها في عصر العلم والتكنولوجيا ؟

.../...

واذا كان الأمر كذلك ، هل ترتبط الحضارة فقط بالحضر، وليست لها أى صلة بالبداوة اذا أخذنا بمنطق ـ ابن خلدون ـ أم أن البداوة الجزائرية التي نقوم بتحليلها في هذه الدراسة من خلال منطقة معينة ممثلة لبدو " الجيل " ، يحمل بعضها السمات الحضارية التي يختلط فيها ماكان ناشئا عند الشعوب السامية على العموم ، وما حمله الاسلام الذى انطلق من شبه الجزيرة العربية وأستقر في افريقيا مثلا ؟

أما اذا تناولنا الثقافة البدوية ـ خاصة الثقافة الدينية ـ ، والتي تعتبر جزءا لايتجزأ من الحضارة ، فنلاحظ أن بعض الأعراف والتقاليد ، والتمسك بالدين الاسلامي ، ونشأة المذاهب الطرقية من " قادرية " (عبدالقادر " الجيلالي ") ، وطيبية (مولاى الطيب)، وشيخية (سيدى الشيخ) ، وثيقة الصلة بالجانب التاريخي لهذه المنطقة المتواجدة في جبال القصور الجزائرية ، أما بعض التصرفات السياسية ، فتوحى أيضا بعرافة الدبلوماسية لدى هؤلاء البدو الرحل الذين مازالوا يحتفظون بالكلمة وبالفعل بأنماط التصرف السياسي التي كانت قائمة لدى أسلافهم .

لذلك فان استقصاء الماضي ، يجعلنا نطرح الموضوع من منظور صحيح وهو آن نربط الأحداث الحالية ، والظواهر المعاصرة التي تعاني منها البداوة بالوقائع الماضية ، فقد نتساءل : ـ لماذا يحتقر " البدوى" مهنة الزراعة ؟ لماذا ينظر البدوى الى "المتمدن" نظرة فيها نوع من الاشمئزاز والانتقاد المستتر؟ لماذا يرفض " البدوى " أشكال التحديث المقترحة عليه ؟ لماذا يواجه بصعوبة كل تدخل للدولة أو السلطة السياسية العليا في شؤونه وفي نشاطاته اليومية .

.../...

الى أى مدى أستطاع البدوى أن يتكيف مع الأنماط الحضرية التي ماهي الا شكل آخر من " التخريب " الذى تعاني منه مجتمعات " العالم الثالث " ؟ هذه الأسئلة ، وغيرها من الأسئلة الكثيرة والتي لا يمكن حصرها ، تبين لنا أن البداوة ليست مظهرا عتيقا للحياة الاجتماعية ينبغي الغاؤها أو اقصاؤها ، وانما هي " واقع " ، ونمط معيشة ، ينبغي تكييفه والقضاء على سلبياته والمحافظة على ايجابياته ، وذلك من خلال تتبع أطواره من ازدهاره الى انحساره .

عمق الاحتلال من أزمة البداوة ، وهو الذى حول جغرافيا البداوة الرطبة من الشمال الى البداوة الجافة في الجنوب والصحراء عن طريق الممارسات العقارية الجائرة ، والاستيلاء على أحسن الأراضي وتهجير السكان ، والقضاء على تلك الصلة الوثيقة التي كانت قائمة بين الزراعة والرعي ، وحتى النشاط الحرفي ، بل ان هذه القطيعة شملت الهضاب العليا والسهوب والتل والصحراء على حد سواء .

هنا يبدو لنا كحجة تاريخية بأن " التحديث " "والتكنولوجيا " وادخال نمط العلاقات الرأسمالية على جسم غريب عنها لن يؤدى الى تطوير " البنية " واثرائها : بل بالعكس يؤدى الى تفتيتها والاخلال بتوازنها .

ان " البدوى" و " المربي " نتيجة لتفاقم هذه الأزمة كان يشعر " بالضياع " وهذا الاحساس في متاهات السهوب الواسعة ضاعفه تشريد الاحتلال له ، خاصة ابان عهد الثورة التحريرية .

أما الآن ، فهل استطاعت مشروعات التوطين ، والمجتمعات المستحدثة أن تلغي من مخيلته تلك الصورة التي وضعها عن الاحتلال ؟

.../...

مازال لحد الآن يعتبر تدخل السلطة ومشاريعها، هي بصورة أو بأخرى تدخل في نشاطه وفي ممارساته الاجتماعية رغم مايمتاز به من حس وطني .. لذلك ينبغي أن يساهم مساهمة المعني بالأمر في مشروعات التوطين لا أن يكون ملحقا لها.

كيف يقوم المخطط بوضع هذه الاقتراحات - وغالبا مايكون غريبا عن الاشكالات التي تواجه المجتمع البدوي - وهو لم يأخذ بآراء المعنيين، من مربين وبدو وأنصاف - بدو ... الخ ؟ أو بطريقة أخرى لماذا تلجأ بعض السلطات التنفيذية أو التشريعية لهؤلاء الا في حالة حدوث بعض الاصلاحات البسيطة، أو في المناسبات، أو في حالات التمويل فقط ؟ في حين ان اندماج المخطط، والسلطة التنفيذية والتشريعية ينبغي أن يكون محضرا من قبل لا أن يتم بشكل مفاجئ وبطفرة واحدة، وهذا ماجعل الفشل يعتري هذه المشاريع وفي بداياتها .

هذا يدفعنا الى طرح أسئلة تتعلق بالتنمية المقترحة للسهوب، فهل انطلقت من الميزة الجغرافية - الايكولوجية التي يتميز بها السهب ؟ أم من الجانب الاقتصادى - الاجتماعي أم من خلال الزاوية السياسية - التكنولوجية ؟ هل تتجه هذه التنمية الى الاكتفاء الذاتي، وبالتالي تسعى بطريقة حثيثة للوصول الى مرحلة من الاتزان والاتساق ؟

لذلك نحاول من خلال فرضيات البحث تحديد هذه الأسئلة - المشكلة، والتي سوف تتضح بشكل ملفت للنظر حينما نفصل الموضوع.

* ——— * ——— * ——— *

.../...

يطـــرح البحـث ،الفرضيـــات التاليـــة : ـ

أ ـ كلما كانـت العلاقـــة ايجابيـة بـين التحكـم في المصاعــــب المادية والمعنويـــة الـتي يعانــي منهـا المربـي والبدوى علـى العمـــوم، و وضـع المشاريـع التنمويـــة المخططـــة (المرحلـة الثالثـة من الثـورة الزراعية، وقانـــون الرعـــي . .) كلما ساهـم ذلك فـي الترقيـــة الفعليـــة لهــــذا القطـــاع من السكـــان .

ب ـ اذا كانـت أزمـــة البـداوة تتمثـل في انفصـــال البـــدو عـن ممارسـات اجتماعيـــة واقتصاديـــة الفوهـــا منـــذ عهـــد بعيـــد ،وذلــك بفعـــل القطيعـــة الاستعماريـــة ، والجفـــاف ،فاٴن التوطـين النهائـــي لا يشكـــل حـــلا جذريـــا لهاتـــه الا ٴزمـــة .

حـ ـ لم ينســـق نظـــام التعليـــم مـع النشـــاط الرعـــوى لحـــد الا ٓن ، وذلك لغرابـــة كل منهمـــا عـــن الا ٓخـــر ،فالتعليـــم مازال حضريـا، والنشـــاط الرعـــوى مازال يعتمـــد علـى التجربـــة والممارســـة المنقطعـــة عـــن كـــل تكويـــن .

د ـ الـى أى مدى استطـــاع سكـــان " القصـــر " المحافظـة على علاقاتهـــم التقليديـــة مـع البـــدو، وأنصـــاف ـ البـدو في مجـــــــال التبـادل ،والمعامـــلات السياسيـــة والا ٕداريـــة وغيرهـــا ؟ وبمـاذا نفسـر الاكتفـــاء الذاتـــي فـي المجـــال الزراعـــي والحرفـــي ؟ .

هـ ـ هل تخضـع السلطـــة المحليـــة للشريحـــة الا ٴقـوى فـي القبيلـــة، وبذلك فاٴن الشرائـح الا ٴضعـف يتكيـــف موقفهـــا مـــع " الا ٓل " الغالـــب؟ و هـــل ، كلمـا كانـت العلاقـــات القرابيـــة أقـوى داخـل الشريحـة أدى ذلك الى تماسكها السياسي وأفـرزت نخبتهـا الممثلـــة ؟

*ـــــــ*ـــــــ*ـــــــ*ـــــــ*

.../...

أما الطرائق المنهجية المستخدمة في البحث ، فتعتمد أولا على الاستقصاء التاريخي بما أننا نعالج موضوعا انثربولوجيا، ثم اعتمدنا على أدوات البحث المستعملة في ميدان علم الاجتماع، ومنها الملاحظة بالمشاركة التي تعتمد على "معايشة أحداث" ، و استخلاص النتائج من الواقع " الحي " ، واستخدمت طريقة "المقابلة الحرة" ، التي تعتمد على مساهمة المخبرين بدون حصر الاسئلة في اطار معين ، وكذلك استخدم التاريخ الشخصي للمخبرين، اذا كان لذلك علاقة مباشرة بالموضوع المطروح .

اما تحليل محتوى الوثائق فهو ضروري ، رغم كون الموضوع ذى نوعية ميدانية ، لانّ هذه الوثائق تعتبر مكملة لما ينقصنا من معلومات عن منطقة البحث ، أو على الاقل عن المناطق المشابهة.

* ——— * ——— * ——— * ——— *

احتوت الدراسات السابقة تحليلا لمشكلة البداوة أو السهب على العموم ؟ لبعضها طابع اقتصادى ــ اجتماعي ، ومنها دراسة " محمد بوخبزة " حول : ــ " البنية الزراعية ــ الرعوية التقليدية في الجزائر " * (1) ، وقد أخذت المنطقة السهبية "لولاية سعيدة" كمجال للدراسة . وهناك دراسات أخرى "لنذير معروف" حول : "المجال الواحي" ، والدراسة الخاصة "بالاحواز والقرى الجزائرية "* (2) (القرية الزراعية / الرعوية " ماقورة" بتلمسان) . .

اعتمدت بعض الدراسات كمصادر للبحث ، لكن برؤيا نقدية . ومن بينها دراسة "لاكروا" حول "الوثائق الخاصة لدراسة الشمال الغربي" "الجنوب الجزائرى"

.../...

---

(1) M' BOUKHOBZA:- " l'Agropastoralisme traditionnel en Algerie "

(2) N.MAAROUF:- " Térroirs et villages Algeriens" et "Lecture de l'éspace OASIEN ".

1896م * (1) ، الذى يعتبر تحليلا انتوغرافيا للبداوة الجزائرية من وجهة نظر المدرسة الاستعمارية ، وبحث " غوردى "- " حول المجتمع النسوى في جبال عمور وكسال" * (2) ، الذى يسهب في تحليل الجانب الانثوغرافي ، والمونوغرافي للمنطقة المبحوثة .. ودراسة " كورناتون" حول :- " التجمعات العسكرية للاحتلال " * (3) وتتعلق بالمنطقة المبحوثة" ("النعامة" حاليا) ، وهي خاصة بالتجمعات العسكرية التي أقامها الاحتلال لتطويق الثورة التحريرية ، وآثارها على الجانب النفسي -الاجتماعي على البدو ، وسكان المدن المجاورة (عين الصفراء ، المشرية) .

هذه الدراسات أخذت بعض الجوانب من الحياة الاجتماعية للقرى ، والسهوب الجزائرية ، لكنها لم تكن بمثابة المسح المونوغرافي للجهات المبحوثة ومجالها ، وهذا ماطرقته هذه الأطروحة .

* ——— * ——— * ——— *

أما أهم المصادر العلمية ، فتأخذ من التراث الانثربولوجي العربي القديم ، "ابن خلدون" في (المقدمة) ، والادريسي من خلال مؤلفه :- (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) : وليون الافريقي (الحسن بن الوزان) في وصف افريقيا ... الخ .

المادة الميدانية مستقاة من المخبرين (حوالي ثلاثين "30" مخبرا) من المنطقة المبحوثة الى جانب الوثائق الادارية خاصة المخطط البلدى "للتنمية" والتقارير الخاصة بالاحصاء السكاني ، ووضعية التعليم الرسمي ... الخ .   ... / ...

---

(1) LAMARTINIERE ; LACROIX:- "Documents pour sérvir à l'étude du NORD-OUEST AFRICAIN "
(2) M. GAUDRY :- La Société féminine au Djbel AMOUR et au KSEL "
(3) M; CORNATON :- " Les regroupements de la décolonisation en ALGERIE"

أمـا الملتقيـات المستعملـة فـي البحـث ، فهـي ملتقيـات د ولية ووطنيـة ، ومن بـين الملتقيـات الدوليـة ، الملتقـى الخـاص بالنتائـج الاجتماعيـة للتصنيع والتغـير التكنولوجـي الذى عـقد بالقاهـرة (نوفمـبر 1959) : ثم الملتقـى الأساسـي الذى وجـه البحـث ، وهـو الخـاص " برعايـة البدو ، وتحضيرهم ، وتوطينهـم الـذى عـقد بالقاهـرة (ماى 1965). ثم الملتقـى الدولـي الخـاص بالبـداوة الرعويـة الـذى عـقد بباريـس (ديسمـبر 1976) ، والـذى كـان موضوعـه ، "الانتـاج الرعـوى والمجتمـع " .

ثـم "الملتقـى الدولـي حـول الرعـي" الـذى عـقد بالجزائـر (أفريـل 1974) : والملتقـى الدولـي الخـاص بوضعيـة العلـوم الاجتماعيـة بوهـران (ماى 1984) : ثـم ملتقـى "الباحثـين المغاربـة" حـول موضـوع :ـ" مناهـج الاقـتراب مـن العالـم الريفـي" باريـس ـ نوفمـبر 1976م .

أمـا الملتقيـات الوطنيـة ، فتنحصر فـي "الملتقـى الوطـني الخاص بتنميـة السهـب " الـذى عـقد بمدينـة سعيـدة (الجزائـر) (سبتمـبر 1983) .

فيمـا يتعلـق بالوثائـق المستعملـة ، فهـي بعـض الدراسات الخاصـة "بالبداوة وبالترحال " مثـل " البحث الخاص بالبداوة" الذى نشرتـه وزارة الفلاحة والثورة الزراعية (1968) * (1) ؟ ثم النشريـات التي كانت تصدرها الجمعيـة الجزائرية للبحث حول التنمية الاقتصادية والاجتماعية " " حول المنطقـة المبحوثـة ، والنشريـات الاستعمارية التي كانت تصدرها الحوليات العلميـة كمـادة تخضـع للنقـد .

لا مجال لذكر المجلات المهتمة بهذا الموضوع ، والذى تتناوله من زوايـا مختلفة ، والتي استعملت في هذا البحث في الأمكنة الملائمـة لها . . ثم" تقريـر " بينيوزلي " حـول " قبيلـة أولاد سيدى أحمـد المجـدوب" حـرر في عين الصفراء (2) (سبتمـبر 1917) ـ .

...../... *——*——*——*

(1) M.AR.A:- "Enquête - Nomadisme " ALGER 1968.

(2) Bunioselly :- "Rapport sur la Tribu des ouled sidi Ahmed EL MEDJDOUB "
manuscrit ; Septembre 1917.

أما الصعوبات التي اعترضت هذه الدراسة ، فهو أن الموضوع ذو طابع انساني وشائك ومتعدد الجوانب ، اذ يجرى البحث على بعض المعطيات الحية والاخرى في طريق الزوال والانقراض .. فهو بحث في هذا المجتمع الذى يشهد التغيير ولم نعرف لحد الآن الاثار الناجمة عنه ، وهذا ما يصعب مهمة الباحث .

ان الظواهر المدروسة ليست منعزلة ومفصولة عن الباحث ، بل هي جزء طبيعي من حياته ، وأطره ، وأسرته ، والأرض التي ولد فيها ، وشريحته ، وقبيلته واخيرا وطنه ، وحضارته : وبالتالي واقعه المادى والحضارى .

الصعوبة الاخرى ، تتمثل في تخوف بعض الاشخاص من اعطاء بعض المعلومات من الاقرب الى الابعد ، وذلك للحرج والتخوف او لتدخل السلطة الخارجية ، خاصة آن البحث تم في ظروف دقيقة كانت تمر بها البلدية ، وهذه المعلومات عوضت بملتقيات ونشريات .. وغير ذلك .

صعوبة توظيف المفاهيم الانثربولوجية في الدراسة الحالية ، والحصول على الوثائق الخاصة بالقبيلة وبالقرية هي آهم مااعترض البحث على الصعيد العلمي .

* —— * —— * —— *

اهم ما يورده هذا البحث هو تقديم عنوان للقارى : " البداوة ، والمجتمعات المستحدثة " ، وتحت هذا العنوان يتم تحليل ظاهرة البداوة في المجتمع الجزائرى من وجهة النظر الانثربولوجية .

المحاولة تكمن في الانتقال من مجال علم الاجتماع المتخصص ، الى المجال الانثربولوجي العام ، لكيما نتحكم في آليات ظاهرة البداوة وتطورها التاريخي .. فالاخذ بالجانب التاريخي لايعني اهمال الجوانب الاخرى التي تعتبر عناصر آساسية لبناء هذا الموضوع .

.../...

كانت "الجغرافيا" ، والا ٌيكولوجيا" ، سببا في نشوء البداوة الرعوية خاصة في شبه الجزيرة العربية ، ثم وصلت الى شمال افريقيا ، وهنا آنصهرت مع أطر جديدة (اجتماعية ، بيئية ، سياسية، اقتصادية . . . الخ) .

كما أن آنصهار القبائل أى آنفجارها الى وحدات عرشية ، وآنصهارها في شرائح ، ثم تحولها الى قبائل من جديد ، ليدل على أن المغرب العربي شهد تأليفا بين القبائل العربية المهاجرة " بني سليم " ، و" بني هلال " وغيرها ، والقبائل البربرية المحلية ، وهذا أدى الى وجود اختلاط بعض العناصر الحضارية في تركيب واحد .

مازالت تحتفظ بعض القبائل بجد اسمي ، تتفرع شرائحها منه مثل حال القبيلة المبحوثة . ومازالت بعض القبائل ترجع نسبها الى الرسول الكريم ويدعون " بالشرفة " من فاطمة الزهراء ، وبعضها الآخر ينتسب الى أحد الخلفاء الراشدين علي ، أو عمر أو أبي بكر الصديق مثل ("أولاد سيدى الشيخ" ، و" المجادبة مثلا —) ، ويدعون " بالمرابطين " ، ثم القبائل التابعة .

بتغلغل الاحتلال الفرنسي ، انقسمت هاته القبائل على نفسها ، وتفتت بشكل لم يسبق له مثيل . وآخذت البداوة في التقهقر والاندحار بعدما كانت في مرحلتها الزاهرة ، ولم تكن مظاهر الانحطاط الحضارى الذى شهدته الحضارة العربية الاسلامية مقتصرة الا على المدن والحواضر .

.../...

ذلك أن نمط الحياة البدوى بقساوته البيئية وبشكله الاقتصادى (الرعوى)، وبنظامه السياسي والاجتماعي وأعرافه ومألوفه لم يتغير كثيرا من قرون وأجيال، وانما طريقة آحتوائه السياسي هي التي تختلف بين سلطة وأخرى أو بين دولة وأخرى ..

في العصر الحالي، مازالت البداوة تشكل أزمة المجتمع الجزائرى، ليس على الصعيد الاقتصادى فقط ـ الرعوى خاصة، وانما على صعيد التخطيط الاجتماعي، وسياسة التنمية الخاصة بالسهب، وعلى الصعيد الثقافي أى الحضارى بوجه عام.

سنحاول أن نقترب من هذه الأزمة والوصول الى معرفة أسبابها، وكيف تطورت، ثم ماهي النتائج التي آلت اليها، وذلك من خلال التعرف على مشاريع التوطين المقترحة، وهل تساهم فعلا في حل هذه الأزمة أم هناك شروط ينبغي توفرها للخروج بنتائج أفضل لتنمية سهبية، ورعوية متزنة، تأخذ بعين الاعتبار التكامل والاندماج بين التل والسهب والصحراء، وانشاء مشاريع تنموية مناسبة لهذه المنطقة الشاسعة تأخذ متطلبات وامكانيات كل جهة بعين الاعتبار، وهذا يتعلق بتصحيح الأخطاء والغاء المشاريع غير المناسبة أو التي لا تأخذ الاهتمامات الحقيقية لسكان هذه المنطقة كمسألة حيوية.

خطة البحث تتمثل فيمايلي:

* <u>الباب الاوّل:</u>

نتعرض في الفصل الاوّل، الى نظرة علماء الاجتماع العرب، ثم أسس بناء علم الاجتماع الخاص بالبداوة والسهب الى دور التاريخ والجغرافيا في نشوء البداوة الرعوية.

ثم نتطرق في الفصل الثاني الى أصل أولاد سيدى الشيخ وتحركهم حتى آستقرارهم بالجنوب الوهراني من وجهة نظر انثربولوجية وتاريخية.

.../...

ندرس في الفصل الثالث قبيلة " أولاد سيدى المجدوب" ، علاقاتها بالشرائح الأخرى ودورها في الانتفاضة التاريخية (انتفاضة بوعمامة ـ 1882 م) وازمة 1945 ، وأخيرا التنظيم المجالي في الثورة التحريرية .

* <u>الباب الثاني :</u>

وهذا الباب يحتوى على خمسة فصول ، هي عبارة عن دراسة مونوغرافية للمجتمع المحلي .

نتعرض في الفصل الأول الى الاطار المنهجي للبحث الميداني، ولضرورة الدراسة المونوغرافية (الوصفية) .. أما في الفصل الثاني، فنقوم بتحليل المجال الاجتماعي والطبيعي ، من خلال بعض الاحصائيات وأحاديث المخبرين .

في الفصل الثالث ، نبين جدلية الترحال والاستقرار ، وأزمة البداوة وعلاقاتها بالتوطين ، ودور المجتمعات المستحدثة ... الخ .

نطرق في الفصل الرابع ، علاقة سكان "القصر" بالبدو الرحل، ونشاطاتهم الزراعية والحرفية .

في الفصل الخامس ، نوضح طبيعة السلطة المحلية ، وكيف تصل الى الحكم ، وأنواعها ، وأشكال تحالفها ، وائتلافها ، أو تخبوبيتها، وعلاقتها بالسلطة السياسية العليا .

علمـــاء الاجتمـــاع "العـــرب" والبـــــداوة:

علماء الاجتماع "العرب" والبداوة :ـ

تحت هذا العنوان سوف نتطرق الى البداوة من وجهة نظر علماء الاجتماع العرب: وهذا طبقا للمثل العربي القائل :ـ " أهل مكة أدرى بشعابها " .

تعريف البداوة: أ)ـ " البداوة هي نمط الحياة القائم على التنقل الدائم للانسان في طلب الرزق حول مراكز موءقتة يتوقف مدى الاستقرار عليها ، وعلى كمية الموارد المعيشية المتاحة فيها من ناحية، وعلى كفاية الوسائل الفنية المستعملة في استغلالها من ناحية ثانية ، وعلى مدى الأمن الاجتماعي والطبيعي الذى يمكن أن يتوافر فيها من ناحية ثالثة " * (1).

ب)ـ " البداوة اصطلاح يطلق على طبيعة فئة من السكان يتميزون بخصائص معينة وسلوك معين ترسمه البيئة المحيطة بهم ، ولا تسمح باقامة حياة سكانية مستقرة " * (2) .

حـ)ـ " اخترنا استعمال كلمة بدو للدلالة على القبائل المتنقلة في نواحي ممتدة ، الأطراف باحثة عن المراعي حسب الفصول والأمطار المتساقطة عرضا .

والتنقل يشمل في هاته الحالة مجموع العائلة التي تحمل معها كافة ماتملك ، وتسكن الخيام ، ويمكن أن نضيف الى هاته القبائل المجموعات القبلية التي تعود دوريا الى القرى .

---

* (1) محي الدين صابر: عوامل التغير الحضارى في نمط الحياة البدوية في ملتقى " رعاية البدو وتحضيرهم وتوطينهم " مصر ـ ماى 1965 .
* (2) دولت أحمد صادق: " الاقتصاد البدوى التقليدى" نفس الملتقى المذكور.

المحصنة التي يطلق عليها اسم "القصور" للقيام بالمبادلات المألوفة ، ويخزن أمتعتهم وغذائهم" * (1) .

اذن ، فالباحث العربي محي الدين صابر * (2) يفرق بين الهجرة والبداوة ونصف البداوة ، فيلاحظ أن الهجرة تفرض نقطة انطلاق وبداية ثابتة سواء كانت هجرة دائمة أو موءقتة ، أما نقطة الانطلاق في البداوة فهي " دائرية " ، فالبدوى مهاجر ومستقر ، والبداوة أيضا نمط حياة متكامل ودائم ، يدور في أفق حضارى متماثل .

تنظم حياة الانتقال والترحال علاقة البدوى ، بمحيطه ، وتتحكم في روءيته للعالم وتصوراته وعلاقاته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، أما المهاجر فسرعان مايتكيف مع محيطه الجديد ، والا تعرض لعملية انفصام .

ولابد من النظر الى البدو كمستقرين اجتماعيا ، لأنهم ينظمون وسائل الحياة وفق غاياتهم ، ولأنهم ينزلون في كل مكان جديد كمكان للاقامة :ـ اذن ، فالبدو يتحركون من مكان لآخر ومن منطقة رعي لاخرى وفق المنطق الاقتصادى .

أما انصاف ـ البدو ، فهم رعاة ومزارعين في آن واحد ، شبه قاطنين ، حيث تفرض عليهم الزراعة نوعا من الاستقرار ، ولهم هجرات نوعية يمارسون الرعي في مواسمه والزراعة في وقتها ، فالبدوى يمارس هذا النشاط في نطاق اجتماعي واحد ، بل انه يفصل ليقوى به ذلك النطاق الذى يمثل الحضارة الرعوية ، أما واجهته الاجتماعية ، والخلقية فتتأرجح بين القيم الرعوية والريفية .. وجد البدوى نفسه يتعامل مع السلطة الحكومية بعدما كان يتعامل مع شيخ " القبيلة " وأصبح يقدم لها الضرائب ، بعدما كان يستقطعها من

---

* (1) محمد الناصرى :ـ مشكلات البداوة ومشروعات التوطين في المملكة المغربية ـ نفس الملتقى .

* (2) محي الدين صابر ولويس كامل مليكة : البدو والبداوة ، مفاهيم ومناهج سرس الليان ، "القاهرة" 1966 .

القاطنين وسكان القرى والاتباع ، ثم وجد نفسه أمام قيود ادارية ، وصحية ، وسياسية ، وعسكرية بعدما كان حرا من كل هاته القيود ، بل يوجهها .

اذا كان التوطين معناه التغيير ، فان رد فعل البدوى يكون عنيفا ، وتكون مقاومته حادة لانه يعتبر ذلك تهديدا لقيمه ومصالحه الحيوية أما اذا كان غرض التوطين تحسين ظروفه وفق تصوراته القيمية ومثله الاجتماعية فانه يعتبر ذلك جديدا يمكن القبول به . وكذلك فان التوطين يختلف عن الاستقرار : فالبدوى يعرف مجاله الشاسع ، ويحدد الأمكنة التي يمر بها ، ويعرفها بدقة والانهار ، والاودية والشعاب التي لها أسماء خاصة ، فهو يعرف البادية أحسن من معرفة القروى للقرية ، أو الحضرى للمدينة .

2) ـ تعريف المجتمعات المستحدثة :ـ

يعرفها " الدكتور محي الدين صابر " * (1) بقوله : " هي ضرب من التنظيم الاجتماعي ، واعادة صيانة القوى البشرية والموارد الطبيعية من خلال مشروع تنمية اقتصادية واجتماعية محددة لمجموعة من المواطنين تربطهم رابطة طبيعية واجتماعية " .

في المجتمعات المستحدثة ، لابد من وجود تكامل بين حياة الرعي والزراعة في نمط التوطين ، وذلك لكي لا نفصل ولا نجتث البدوى من ماضيه ومن قيمه الثقافية ، ولكي يفسح المجال أمامه لاكسابه خبرات في ميدان الزراعة .

---

* (1) محي الدين صابر :ـ " البدو والبداوة " مفاهيم ومناهج " نفس المرجع ص 79 .

3) ـ تحليل البداوة والتوطين من خلال بعض الدراسات :ـ

سوف نجمع عددا من الدراسات التي تناولت الشخصية البدوية ، وعوامل بروز البداوة وانتشارها ، وصعوبات التوطين .. الخ .

يقيم محي الدين صابر * (1) الشخصية البدوية بأعتبارها ليست وقفا على منطقة جغرافية (الصحراء) ، وعلى عرق وجنس معين (العرب مثلا) ، وانما مجال انتشارها ، وممارستها أوسع ويعتبر " الرعي " ، وخاصة رعي الاغنام والماعز ، أكثر دفعا لحياة الترحال والانتقال ، اذا قارناه بأنواع النشاط الاقتصادى الاخرى . . فالبداوة وحياة الترحال لا تفترض تجميعا كميا للثروة بالمفهوم الاقتصادى ، وانما تتمثل هذه الثروة ، في الماشية واتساع عددها عند مربي المواشي مثلا . . ويتميز البدوى باحتفاظه بوحدته الحضارية التي تتمثل في ولائه لاقاربه ، وعائلته ، وقبيلته ، واهتمامه بالنسب أكثر من غيره ، وتمسكه بالعادات والتقاليد ، وللقيم الاجتماعية والاخلاقية مكانة مقدسة عند البدوى مثل احتقار العمل اليدوى ، والزراعة ، والنخوة ، والشرف ، والشهامة ، والكرم الذى يعتبر وظيفة أساسية ملزم على القيام بها ، وكذلك فان دور المرأة ، ونشاطها الاجتماعي له حدود مضبوطة ومقيدة لدى البدوى ، والا أهين في كرامته اذا خالفها .

---

* (1) محي الدين صابر :ـ "البدو والبداوة " نفس المرجع المذكور .

في دراسة أخرى، مذكورة * (1) يبين أن الحدود السياسية أدت الى انشطار القبائل البدوية، ولم تعد وحدتها القبلية، ومساحتها الجغرافية هي الاطار الاجتماعي والسياسي المميز. والى جانب هذا التمزق السياسي فقد أصبحت البداوة في الاطار القومي للدولة، جيبا متخلفا سواء على مستوى الانسان البدوى كمواطن له حقوق وعليه واجبات أم على مستوى الموارد الطبيعية التي يعيش عليها البدوى، كامكانية أولية معطلة في الاقتصاد القومي.. ويتبع هذا كله، كذلك أن النمط الحضارى للبدوى يبدو منذ الآن، في هذا العالم الصناعي كمتحف تاريخي متحرك * (2).

وأشار في مجال آخر الى انماط التغير الحضارى، ومايصاحبها من ايجابيات، فهي اضافة كيفية وتهجين وتوليد بين أنماط وسمات حضارية .. ويبين كيف أن النمو الحضارى والتغير الحضارى مختلفان، فالأول يمثل حركة تنشأ داخل الحضارة نفسها، تنشأ نشوءا تلقائيا، على هدى من قيم المجتمع وامكانياته القائمة وهو تغير درجي أما التغيير فهو عملية تحويل شامل يتناول طبيعة الحضارة نفسها فهو تبديل نوعي وكيفي أساسا.. فالنمو الحضارى عملية آدخار متواضع مستمر (عملية تكامل). وأن التغير الحضارى ثروة مفاجئة، ثروة تحملها ثروة (عملية تفكك وتحلل)، فالنمو يعتمد على رأس المال المحلي، أما التغير فانه يعتمد على رأس المال الاجنبي أو المختلط.. فالنمو يعتمد على الزمن الطويل والحركة الوئيدة، بينما يقوم التغير على الحركة السريعة والمفاجئة أحيانا...

---

* (1) محي الدين صابر:ـ "عوامل التغير الحضارى" دراسة مذكورة ص 318.

* (2) نفس الدراسة ص: 322.

" وليس أدل على هذا من أن التحول الذى أصاب بناء الحضارة البشرية ، بعاوة من خلال الستين والمائة عام الاخيرة يفوق من حيث الكم والكيف معا ذلك التحول الذى يشهده الانسان حضاريا من خلال عشرين قرنا خلت من الزمان المديد أو تزيد * (1) .

ويوضح الكاتب تأثير وسائل الاتصال ، والتكنولوجيا في القيم البدوية ، وفي التقبل الحضارى .. فالمجتمع الفقير يحجز عن تحمل أية مغامرة مهما صغرت ؛ ويرفض التغيير الحضارى الذى يهدد أمنه ، ولا يفهمه .

وفي دراسة للدكتور أحمد أبوزيد * (2) ، يتعرض الى الجانب العلمي والتنفيذى للتراث الانثربولوجي : فيدعو الى ابداع علاقة جديدة بين المخطط ، وعلم الاجتماع ، والانثربولوجي ، والمنفذ من جهة أخرى ، ويؤكد على أن البداوة جزء من التراث الانثربولوجي لتبديد الوهم القائل بأنها لاتهتم الا بالمجتمعات البدائية ؛ أو أن الدراسات التطبيقية تستغل من طرف الأجهزة الحاكمة والسلطة السياسية .

يؤكد " أحمد أبو زيد " على الجانب الاجتماعي في دراسة " البداوة" ، ومراعاة الواقع الاجتماعي " أكثر من التأكيد على الجانب التقني أو التكنولوجي — فالأخطاء التكنولوجية يمكن معالجتها بينما أخطاء التخطيط الاجتماعي لايمكن معالجتها بسهولة ، وانما تتطلب سنوات عديدة ، أو عشرات السنين لاصلاح النظام وآثارها ليست خافية على أحد ..

---

* (1) محي الدين صابر نفس الدراسة ص: 297 .

* (2) " أحمد أبوزيد "— " الانثربولوجيا ومشكلات التحضير" بحث في ملتقى % النتائج الاجتماعية للتصنيع والتغير التكنولوجي " القاهرة 18 — 26/نوفمبر/1959 .

فيلاحظ مثلا أن معهد الصحراء بمصر طرح مشروعا لتوطين جماعات البدو في صحراء مصر الغربية ، ولتشجيع آستقرارهم في الأرض ، استنبتت أعشاب وحشائش جديدة دائمة الخضرة على طول السنة . وأنشئت المساكن ، واستعمل أمام كل مسكن حديقة صغيرة لانتاج أنواع من الخضر للاستهلاك الخاص ، بالاضافة الى حظائر للماشية والغنم ، واذا كان المشروع قد نجح من الناحية الفنية ، وقوبل بالحماس لدى البدو في البداية ، فإن القلق ساورهم بسبب الاقامة الدائمة التي حدت من تحركاتهم في مساكن مبنية بدلا من الخيام التي عهدوها في حياتهم ، وأخذ التماسك القبلي والعشائري في التفكك . فالقيم الرعوية مازالت مسيطرة . والمشروع لم يأخذ في الاعتبار العامل البشري ، وهو الذي أثار مثل هذه المصاعب ـ ولا يدعي "الكاتب" بأن علماء الانثربولوجيا هم الذين يقومون بحل هاته المشاكل إلا انهم أكثر اندماجا في هاته المجتمعات المحلية من "الفنيين" الذين يعاملهم الأهالي معاملة الحذر والاحتراز .

* أما د/ابراهيم زرقانة * (1) ، فيحدد عمرها بحوالي "مليون سنة" وهي بذلك أقدم بقايا الانسانية ، وحياة الاستقرار لم تبدأ الا بعض آلاف من السنين ، اذا ، فالبداوة كانت هي الغالبة ، ولكن قسما من هؤلاء البدو هاجروا الى أماكن الاستقرار حيث توجد الزراعة والري ، والبعض الآخر بقي محتفظا بنمطه البدوي . . ويضيف :

.../...

* (1) ابراهيم زرقانة :ـ "أسباب ظاهرة البداوة وحجمها" في ملتقى "رعاية البدو ، وتحضيرهم وتوطينهم ، سرس الليان 1965 (القاهرة :ـ مصر) .

ومع أن الصحراء شبه الجزيرة العربية ليست أكبر صحارى العالم ، الا أنها "سيدة" هذه الصحارى على الاطلاق بفضل ما أخرجته للعالم من قيم روحية ، ونظم اجتماعية ، وبذلك تعتبر هذه الصحراء مثلا طيبا لمن لمراد إن يعرف حقيقة البداوة ، لاسيما وأنها مهد البداوة بالنسبة للبلاد العربية الاخرى *(1).

وبعد آن يحدد عوامل إنتشار البداوة واندحارها في آن معا ، يبين سمات البدوى مثل فخره ببقاء أرومته ، وحرصه على إلا يدخل في دماء أسرته ، دم فلاح ، أو دم زنجي ، أو تركي ، فهو يعتقد إنه "أصيل" (أى نقي الدم) . وهو يؤمن ايمانا قويا في صلة الدم وقرابة الدم ، وهذا ما الغاه الاسلام ، اذ جعل صلة العقيدة أقوى من صلة الدم .

لايكره البدو الجديد ، اذا وجدوا اغراء ، فشيوخ القبائل الكبرى أحبوا لقب "الامير" الى عهد قريب.. وبعد ذلك يصبح هذا الحق لسائر أفراد أسرة الشيخ — وهذا يعني في العصر الحديث آن يغير من نظمه الاقتصادية ، والسياسية ، والادارية ، اذا ماوجد "اغراء" بالالقاب ، أو الاشراك في الحكم والادارة الى غير ذلك ..

أما د/دولت أحمد صادق * (2) فتستثنى من "البداوة" الجماعات المتجولة ، التي لاتعرف لها أوطانا — الغجر ، الجماعات التي تمارس الالتقاط والصيد — وتعتقد الباحثة إن الظروف الطبيعية — الجغرافية مسؤولة عن انشاء روح العصبية ، والنعرة بين الجماعات البدوية ولا تقوى الجماعة الا بالعصبية والاشتراك في النسب الواحد الذى يكفل لكل عضو ، الحماية ، عكس الاعضاء الذين ليست لهم عصبية ينتمون اليها ، فيلجؤون للدفاع الفردى .

---

* (1) نفس الدراسة ص: 305.
* (2) دولت أحمد صادق:— "الاقتصاد البدوى التقليدى كعامل من عوامل البداوة " في ملتقى "رعاية البدو وتحضيرهم وتوطينهم" مصر مايو 1965.

تعتبر "الباحثة" أن "الرعي التقليدى" انما يمثل مرحلة متطورة من مراحل الاعتماد على الانتاج الطبيعي للبيئة، ومن ثم كان التعدد الرائع في أقتصاد البادية ، وهذه الحرفة -أى الرعي - تتأثر الى حد بعيد بالكوارث الطبيعية أو البشرية ..

أما الآبار ، فهي المعبرة عن قوة الجماعة ، وتعتبر اماكن تواجدها مناطق أستراتيجية هامة ، وترتبط بنظم اجتماعية أخرى :- كحق الملكية وحق الاستغلال ، والتنازل ، والميراث وغيرها . وبأمتلاكها تضمن للجماعة دخلا مستقرا من خلال حماية جماعات البدو المسافرة بقوافلها وتموينها ، والظروف الطبيعية تؤثر على فكرة "الحقوق" تأثيرا مباشرا ، فحينما يحل الجفاف تفقد هذه الآبار قيمتها ، ويضطر البدوى للتجول في مناطق أخرى بحثا عن الكلأ والماء .

البدوى لا يهتم بنتيجة النزاع ، ولكن المهم في نظره هو أن النزاع تأكيد لملكية البدء .

تتعرض الباحثة أيضا ، الى العوامل المؤثرة في الاقتصاد البدوى من خلال عاملين أساسيين :- العامل الطبيعي - العامل البشرى .

٣٥١٦٢٠

فالجفاف ، وندرة الموارد المائية ، وتغيير الظروف الإيكولوجية عامة تدفع بالبدوى للخروج عن نظام حياته العادية تحت ضغط الشقاء والبؤس .

كذلك ، فإن بريق المدينة ، وقوة جذبها ، تدفع بالبدوى للهجرة ، وترك حرفته الأصلية ، والقيام بنشاطات طفيلية في المدينة .

.../...

عمل البدوى ليس عملا سلبيا ، وانما هو جزء من التراث الاقتصادى الوطني ، فالصناعة البدوية لها رواج في الاسواق العالمية ، وتحتاج لدعم من طرف الدولة ، فتوفر دخلا محترما لها وتضمن استقرار البدو ، بدلا من تعرضهم لبطالة المدينة .

4) التوطين : مشاريع وصعوبات :ـ

نجد في دراسة محمد الناصرى * (1) مايلي :ـ

يبدأ التوطين مع نصف ـ البداوة ، حيث تدخل القبيلة مرحلة أولية متدرجة نحو التوطين . لكن مرحلة الاستقرار تجتاز مراحل أكثر تعددا ، وبما أن أشكال البداوة متنوعة ، وتتداخل أسباب العيش تبعا للظروف الطبيعية والتطور التاريخي : فإن التوطين يؤدى الى حدوث مشاكل خاصة بكل ناحية تستدعي حلولا اقليمية تتكيف بظروف ومرحلة الاستقرار التي بلغتها كل قبيلة .

أدت مشاكل التوطين الناتجة عن سلسلة من الاحداث الى اختلال التوازن الموجود أصلا في المجتمع البدوى بين عدد الماشية والمراعي التي تسرح فيها ، والى انقراض بعض النشاطات التكميلية ، وانخراط البدو في العمل الاجيرء والى تفكيك المجتمع القبلي بعدما كان ملتحما .

كذلك أدى تقلص المراعي وانفصام العلاقات التجارية ، وظروف الحرب "الخاصة" (يذكر "الباحث" :ـ الحرب الجزائرية) ، أدت الى مراقبة بعض القبائل وتوطينها بالقوة .. أو عن طريق الهجرة .

* (1) محمد الناصرى :ـ مشكلات البداوة ومشروعات التوطين في المملكة المغربية" في ملتقى " رعاية البدو وتحضيرهم وتوطينهم" مصر ـ مايو 1965.

ويحدد الباحث أشكال التوطين منها :- التوطين الزراعي الذى يحدث في حالة ازمة او عند توفر ظروف صالحة للاستقرار .

والتوطين التعديني يكون نتيجة لبعض الاكتشافات معادن ومواد أولية ، ونفط مثلا .. ثم التوطين الحضرى ، فيعود الى اضطرار البدو للهجرة وللاستقرار في المراكز القروية أو المدينية لطلب العمل .. وهنا يستقل الفرد عن قبيلته ، وتبدا بوادر الازمة التي تأخذ منحى خطيرا ، وفي دراسة لمكي الجميل * (1) فانه يلخص الصعوبات التي تكتنف عملية التوطين بمايلي :-

(1) معارضة شيوخ العشائر لعملية التوطين (المستترة والصريحة) ، لانها تهز مكانتهم الاجتماعية وتقلص من اعتبارهم الاجتماعي .

(2) شكوك البدو تجاه عملية التوطين : منها الخوف على العادات العريقة من الاندثار ، او ان تحولهم هذه العملية الى بؤساء ، لذلك لابد من الحكمة والتروى .

(3) الخوف من سلطة الحكومة ، وبعدها عن الحكومة جعلها تحس بالاستقلال الذى تعتز به ، لذلك فالبدو يسيئون الظن بكل خطوة حكومية ، كعمليات إحصاء السكان .. وشعور "الجفوة" بين الحكومة وقبائل الرحل له اسبابه التاريخية .

---

* (1) مكي الجميل : "التوطين والوحدة القومية" في ملتقى رعاية البدو وتحضيرهم وتوطينهم " مايو 1965.

علم اجتماع السهب

تحت هذا العنوان سوف نتساءل : هل يمكن اقامة علم أجتماع خاص بالسهوب ؟ مثلما هناك علم اجتماع صناعي .. ريفي .. حضري — ثقافي ؟ لكن لانريد في هذا الاطار شرح التخصص المدرسي ، بقدرمانطرح أوليات للطرح والمناقشة .

يقترح "نذير" معروف ثلاث أطروحات تمثلها المدارس الانثربولوجية على اختلافها وهي :—

1) الاطروحة الانتشارية "DIFFUSIONISTE"
2) اطروحة التضامن " SOLIDARITE"
3) الاطروحة التناحرية "ANTAGONISTE "

هذه الاطروحات هي التي غلبت على التحليل في مجال الانثربولوجيا (علم الاناسة) * (1) ؟ الذى هو الميدان الاوسع لعلم الاجتماع .

فالاطروحة الاولى ، تحدد " البداوة" مثلا في اطارها الجغرافي ولاتأخذ بعين الاعتبار "الترحال" من مكان لآخر ، أما أطروحة "التضامن" التي هي أطروحة وظيفية أساسا ؛ فانها تكاد لاتضيف جديدا بل انها أطروحة ماقبل — استعمارية ، فهي تصدق على هاته المرحلة دون غيرها .

أما أطروحة العلاقات التناحرية فهي التي تعتبر أكثر حداثة، وتفسر نوعا ما — جزءا من التاريخ — الاجتماعي للجزائر ، وهي لها وجهان كما يحدثنا — نذير ، معروف —: ايكولوجي — سياسي .

---

* (1) هذا المصطلح يستعمله بعض علماء الانثربولوجيا في المشرق العربي .

ايكولوجي (بيئي) :- متمثل في علاقة التبعية الموجودة بين البداوة السهبية والزراعة . ومن ورائها العلاقة بين الرعي والزراعة ، فالبدو متواجدون في عالم نستطيع تسميته بعالم الحراك .

سياسي :- طبقا لعلاقة التبعية السابقة ، فإن عملية التراكم السهبي تجعل البدو مجموعة مسيطرة وقوية تسيطر على المزارعين القاطنين .

وبالاستناد الى التاريخ الاجتماعي للجزائر ، يمكن ملاحظة التناحرات بين السلطات المركزية ، والمجموعات الرعوية ، والقبائل الفلاحية ؛ والتي تتخذ أشكالا سياسية وثقافية وايديولوجية (عمل الاستعمار على تفتيت "الوحدة العضوية" للمجموعات ، الى فرادى ، وهذا بواسطة أنتقاء أرستقراطية يعتمد عليها) * (1).

اذن ، فلابد من معرفة : ما السبب في اختيار "نذير معروف" للاطروحة الاخيرة ؟ هل هو اختيار منهجي ؟ ام هو " انحياز" لمدرسة معينة لها ايديولوجية "خاصة" تريد الوصول اليها من خلال الاهداف والنتائج ؟ هذه الاطروحة تضم الجانبين معا ، لكن هعل الجانب المنهجي هو اهم سبب ، للاختيار ؟ نعم لاننا اذا تناولنا التحديد المنهجي ، فمعناه أننا نخضع للتحليل علاقات التبعية الموجودة بين "البداوة السهبية" والزراعة" ، وهذا مايلاحظ أثناء تقصي " الواقع السهبي" ، والسيادة التي تمارس على المزارعين القاطنين من طرف "البدو" و "نصف البدو"، لا يمكن نفيها سواء كانت على شكل /مقايضة/ أو على شكل /عقائدي/، أو على شكل /سياسي/ (أو حتى على شكل "اعتبار اجتماعي")،

.../...

---

(1) N;MAAROUF:- " Térroirs et villages ALGERIENS" PP44-45 et55-58 ED/O.P.U 1981.

وخاصة اذا كان المزارعون القاطنون هم ساكنو القصور (مفرد "قصر" KSAR ") الذين ينتمون الى أصول بربرية "الشلح"، أو أصول عربية /بربرية (مثل: قصور "عين الصفراء" ومنها قصر "عسلة" مثلا).

كان الاستعمار يختار "الطليعة" من القبائل القوية التي تسيطر على القبائل "التابعة"؛ وذلك بهدف الهيمنة على هذه القبائل ، والمجموعات "الرعوية" .

وفي هذا الاطار ، لاننسى أن "الجغرافيا" كانت العامل المساعد على تثبيت هذه الهيمنة : فبواسطة "الخرائط" وبواسطة "الترحال" الذى يخضع "لجغرافية الحراك" ثبت الاستعمار الفرنسي مراكز؛ وأحدث مراكز جديدة للمراقبة و "التجمع" .

* أطروحات قاصرة في علم الاجتماع البدوى :—

كثيرا مايحصل الخلط بين مفاهيم غير متناسبة، مختلفة ، مثلا مفهوم الصراع الطبقي والعلاقات التناحرية ، وهذا الخطأ هو الذى جعل بعض المحللين يقعون في الغموض، والالتباس حينما يكتشفون "غرابة" الواقع السهبي عن أطروحة "الصراع الطبقي" — لاينبغي أن يفهم بأن هذا موقفا "ايديولوجي" — والتي هي نتاج الحضارة الغربية ..

يقول "بورديو" :— "اذا كان المجتمع الحضرى متمايزا (...) فائنا لانجد في عالم البادية صراعا طبقيا — للروح التي تنشط مجموع المجتمع ، ونتيجة لتجزء مختلف المؤسسات والضعف التي

.../...

يحتريهمـــا،فان العلاقة بين رب العمل والعامل . بين الغني والفقير هي علاقة قرابة ومساواة واخوة" (1) وكانت هناك محاولات اخرى في الالتجاء الى النمط الاسيوي للانتاج ، لكن ظهرت حدود هذا الطرح ايضا ، باعتباره عملا غير منجز ، وكما يشيـــــر بعض الباحثين — حتى الماركسين "(2) فان ماركس وانجلز لم يستعملا هذا المصطلح الا تلميحا ، لذلك ظهر نوع من الاسقاط خلف من ورائه اختلالا بين اطروحة هي مقدمـة ونتاج لحضارة معينة ، وواقع يرفض ان يتلاءم معها ، ولقد اشار الى هاته الاشكالات ، احد الباحثين — احمد بن نعوم — الذي له اهتمامات بالثقافة لدى " البدو " في الجنـوب الوهراني — اولاد سيدي الشيخ ، حيث طرح سؤالا وجيها وهو " هل الصراع الطبقـي" او اطروحة " الطبقات الاجتماعية " وبالتالي الطرح الماركسي بأسره صالح لتحليل "المجتمع الرعوي " ؟ وقد اوضح حدود هذا التحليل ... حتى لانطلق — "احكاما جزافية " — نرجع الى المصدر الذي يبين وجهة نظر ، انجلز " و ماركس" حول الجزائـــــــــــــــر .

وبالاضافـة الى أشرت اليه في مـوضوع سابـق" (3) ، اقترح ما يلي: لنبـدأ اولا بماركس، الذي كان في فترة " نقاهـة " من 20 فبراير الى 2 ماي 1882 . والذي لم يبذل جهدا ثقافيا لتحليل المجتمع الجزائري — حتى انه عاصر انتفاضة " بوعمامة" في الجنوب الوهراني ، ولم يعرف عنها شيئ ، بما ان المعلومات كانـــــــــــــــت ،

---

(1) P. BOURDIEU " Sociologie de l'Algerie " ED/P.U.F PARIS 1980 P95 . (1

2) كاتشافنسكي : —عبـودية ، اقطاعية ام نمط انتاج اسيوي ترجمة : عارف دليلة دار الطليعة بيروت 1980 (ص: 203 — 209) .

3) انظر أطروحتي : " الهجرة الداخلية ... " معهد / العلوم الاجتماعيـة 80/ 81 ص: 58 — 60 .

تأتيه من القاضي "فيرمي" — FERME — في رسالة له الى "جيني" : كان يأمل أن يشاهد أبنه "الاجناس" المختلفة : من الاندلسيين MAURES .... والعرب ، والبربر ، والاتراك ، والزنوج .. هذا العالم الشرقي الذى يختلط فيه الفرنسيون — "العسكر" — مع انجليز أشقياء * (1) في رسالة أخرى ، يقوم بوصف حادثة شاهدها لابنه "جوني" ، لا تتعدى وصف هيئة "زنجي" مصحوبا "بأندلسي" ويعتبر أن الزنوج كانوا عبيدا للعرب والاتراك : أما "الاندلسي" — فيطلق عليه الاهالي "عربي" — ، ولا يقيم "ماركس" وزنا لتاريخ هؤلاء ، أو لحياتهم الحضرية ، وانما يكتفي بوصف لباس هؤلاء وملامحهم ، فقط * (2) .

نقلا ، عن "فيرمي" : يتحدث عن بعض الجرائم "العنصرية" تجاه "الاجناس الدنيا" — الوضيعة — من طرف "العسكر" الفرنسي ضد العرب * (3) .

ومن نفس المحدث " القاضي فيرمي" : يقول :— " ان المسلمين في الواقع ، لا يقبلون تجاوزا : فهم لا يقبلون أن يكونوا " موضوعا " أو "تحت الادارة" فانهم لا يعترفون بأى سلطة ، بأستثناء المسائل السياسية ، وهذا يحدث كثيرا من سوء التفاهم لدى الاوروبيين" . عدد قليل من "الشرطة" في الجزائر ، يتشكلون في أغلبهم من "الاهالي" * (4) .

وفي رسالة الى "لورا" ، يظن أن "لعبة الورق" هي انتصار الحضارة الغربية على الاندلسيين — بينما يشرح "الشارح" على أنها عادة "شرقية" .

.../...

(1) GAILLISSOT, BADIA:- " MARXISME et ALGERIE " ED/10-18 .PARIS 1976. P321.

(2) Ibid PP 328-329.

(3) Ibid PP 331- 351.

(4) Ibid PP 340- 341. (Lettre à LAURA)

ثم يقول :ـ "بعض هؤلاء الأندلسيين MAURES ـ يلبسون بطريقة أنيقة وثرية ، وبعضهم يلبس بذلات من الصوف الابيض تكثر فيها الرقع والخرق ـ ولكن في نظر المسلم الحقيقي فإن هذه الاختلافات ، وهاته الحظوظ او سوء الحظوظ ، لا تقيم اي اختلاف بين ابناء محمد ، وهذا لا يؤثر على " المساواة المطلقة التي تظهر في علاقاتهم الاجتماعية " ـ انهم لا يعون بهذه الاختلافات الا في فترات الاحباط . ان حقدهم على المسيحيين والامل في الانتصار على هؤلاء الكفار يدفع ساستهم الى اعتبار الشعور بالمساواة المطلقة وممارسة هذه المساواة كأمر يجعلهم يتحكمون في هذا الحقد ، وعدم التخلي عن الامل في الانتصار (هذه المساواة لاتتعلق بالسعادة ، أو بالوضعية الاجتماعية ، وانما تتعلق بالشخصية) ـ لكن فيلذهبوا للشيطان ان لم يقوموا بحركة ثورية " * (1) .

ثم يضيف :ـ " . . . وأخيرا ، كما يقول "ماير" ، لننطلق من وجهة نظر تاريخية عالية ، هؤلاء العرب الرحل (الذين سقطوا في الدرك الأسفل ، لكنهم مازالوا يحتفظون ببعض السمات القوية في صراعهم من أجل الوجود) مازالوا يذكرون بأن شعبهم قد أنتج سابقا ، فلاسفة كبارا ، وعلماء ، . . . الخ . ويعرفون بأن الأوروبيين يختزلونهم بسبب جهلهم الحالي . . . " * (2) هذا فقط ، ماكتبه "ماركس" عن الجزائر ، بصورة مباشرة ، اذا أستثنينا "المدونات" التي وضعها على نص "كوفالسكي" الخاص بالجزائر ؟ وهنا اختلف مع "المعرب" ـ شريف الدشوني ـ التي يعتبرها :ـ

" ـ تمثل جزءا لاغنى عنه من الاعمال التي تركها كارل ماركس ((حوالي 180 عملا)) لم تمهله الوفاة حتى يقوم بتحليلها كجزء من مواد الاجزاء اللاحقة لرأس المال التي كان ينوى القيام بها ، انها تمثل مصدرا اساسيا ذا أهمية بالغة لمتابعة أفكار ماركس في السنيين

---

(1) GAILLISSOT, BADIA :- "Marxisme et ALGERIE" op.citée PP345- 346 .

(2) Ibid P 347.

الاخيرة من حياته حول هذه المجتمعات " * (1) حيث انها تطرح افكار "كوفالسكي" فقط ، والتعلقيات آو تشديد من " كارل ماركس" لا اقل ولا اكثر.

أما "انجلز" ، فلم تكن لديه وجهة محددة في التحليل ، بل اعتبر القبض على الامير " عبدالقادر" ، وغزو الجزائر وانتصار للحضارة * (2) .

ويرى آيضا في مراسلة مع ماركس (— 06/جوان/1853 —) ان مدن شبه الجزيرة العربية ، اصبحت في القرن " السابع" الميلادى عبارة عن صحارى قاحلة ، كما ان البدو المجاورين اكتسبوا عادات آسطورية ، وخرافية [أنظر"القرآن " والموءرخ العربي " النويرى"] (...) ويبدو لي أن تاريخ محمد يتميز بطابع رد الفعل البدوى ضد فلاحي المدن القاطنيين ، والذين كانوا يمرون بمرحلة الانحطاط ... " (3) .

حين يستلزم هذا الطرح ، الرجوع اليه ثانية ، سوف نقوم بتحليل أوسع في مجال مناسب من هذا البحث .. بينما يبغي أن نشير ، ونتفق في ذلك مع "وديع بوزار" ، حينما يقول : "اهتم "ماركس" بالجزائر باعتباره ملحقا للمسألة العثمانية ". لذلك فانه يعتقد بأن "غياب الملكية العقارية" هي مفتاح الشرق كله وعلى أساسها يرتكزالتاريخ السياسي والديني * (4) ثم يجدد " ماركس أن " القطيع" ، وليس "الارض" هو مايمتلك ويعاد انتاجه بالنسبة لمجموعة " الرحل " ". فعلاقات الرحل بالارض هي علاقات رخوة وعدم اكتراث * (5) .

فنحن ، أمام رباعية تعتبر علة المشكلة " السهبية" :— الارض— القطيع — الانسان — الطبيعة .

---

* (1) كارل ماركس: "حول الهند والجزائر " تعريف ، ش. الدشوني — دار ابن خلدون بيروت 1980 ص: 6 .

(2) GAILLISSOT, BADIA: - "Marxisme et ALGERIE" op.citée PP25-26 .

(3) Ibid P26.

(4) Ibid P 83.

(5) W. BOUZAR:- "La Mouvance et la Pause " op. citée T:1 P229.

الرباعــية السهبيــة :ــ

الأرض،هــي تاريــخ فــي خــد ذاتهــا ، انهــا تحــبير عــن صلــة، عــن ربــاط واحســاس : ومــع انهــا أقــدم وسيلــة للانتــاج ، الا انهــا لا تمثــل بالنسبــة للبــدو لا موضــوع عمــل ، ولا وسيلــة عمــل ، ففيهــا تستقــر أرواح الجــدود ، التي لاتقهــر ، وهــم الذيــن يقومــون بحراستها (1) * .

ورجــل السهــب يحتــاج اليهــا اكــثر من غــيره فهــي مــصدر الكــلا بالنسبــة لماشيتــه ، وهــي مــصدر دفئــه فــي ليالي الشتــاء البــاردة ، ومنهــا يضــع حظائــر لقطعانــه ... الخ . فعلاقــة " المربــي " أو " البــدوى " مــع الارض تاريــخ وحضــارة حــاول القــرن "العشريــن" طمسهــا ... مــع جــدب الارض تتحطــم آمــال "البــدوى" ومــع خصوبتهــا يســوده الــفرح والانشــراح .

لذلك فهــذا المعطــي جــزء من العلاقــات التي تربــط الانســان بالطبيعــة والتي تؤثــر علــى سلوكــه واحساســه وفكــره . لذلك لابــد مــن المحافظــة عليهــا مــن "الهــلاك" ، هــذا الهــلاك يفــوق اهتلاك " الآلــة " الــتي هــي قابلــة للاصــلاح أو التعويــض . فالارض لمــا تهتلــك تصــبح غــير قابلــة للاصــلاح أو غــير نافعــة ... فتفقــد قيمتهــا الاستعماليــة ، هــي لذلك نلاحــظ أن حــياة المربــي تزداد سوءا كلمــا أصيبــت الارض بتقلــص فــي نباتهــا ، أو بفســاد فــي تربتهــا .

حــين يتحــدث "دونيــان" عــن الارض (2) ، فاننــا نواجــه ذلــك الحديــث الدائــم والممــل ، والذى أصبــح "مجانيــا" ، وهو "ازدراء عــمل الارض" .

.../...

(1) ALGERIE– ACTUALITE N° 998– 29Nov /5 Dec 1984 P30.

(2) C/ M.R. DOGNIN :–"Sociologie de la steppe" In ; Seminaire Intérnational sur le Pastoralisme – ALGER 22– 27 AVRIL 1974 .

ومنه انتقاد " علماء الفلاحة" للبدو على احتقار " عمل الارض" الذى لا تتم (الثورة الحلفية) الا من خلاله .. ينتقد هذا الحكم بشدة موضحا بآن ذلك يعني تحويل عدم الاكتراث اتجاه عمل " الارض" الذى له جذور في ثقافية معتبرة ، الى موقف للمقاومة السلبية .. هذا " الازدراء" مقرون بشعور "التفوق" الذى ينجم عن العلاقة مع السكان " المزارعين" أو "شبه المزارعين " (" البستاني" مثلا ..) ، وهذا مانلاحظه في العلاقة بين البدو، وأنصاف البدو من جهة وساكني "القصر" — التشلح — من جهة أخرى في المنطقة التي شملها مجال البحث ، حيث يحتقرون العمل الزراعي أو شبه — الزراعي ، نجد مثلا هذه العبارة " ان ذلك "القصورى" — ساكن القصر — يحمل كل صباح المجرفة على كتفه ("الفالة" بالتعبير المحلي) ، وكأنه يريد القيام بعمل عظيم" .. هذا الازدراء والتهكم ليس بريئا ، وانما له جذور ثقافية ينبغي تتبعها منذ القدم حتى تتضح الرؤيا ، ولانطلق أحكاما مجانية ، وكأن " البدو" وحدهم ، هم الذين يحتقرون مهنة " الفلاحة" ، فلننظر الى الاعتبارات الاجتماعية للمهن حتى في الدول الغربية " المصنعة" لكي نلاحظ التقييم والاعتبار الذى تأخذه كل مهنة من المهن ، وبأنها في كثير من الاحيان تحدد تصرف وسلوك ونسق القيم الموجود لدى كل فئة أو طبقة اجتماعية (1) فمابالك بالمجتمعات " الشرقية" — "العالم الثالث" — " النامية" .. الخ.

وحينما يقول مربي الماشية : "ان النشاطات الرعوية هي أنبل من الانحناء على الارض " ، فمعناه لا اننا لانجد هذا الانغلاق على الذات موجودا لديه فقط ، وانما يشمل كل سكان العالم .

* (1) أنظر اطروحتي : الهجرة الداخلية" معهد العلوم الاجتماعية 80/1981.

وهو الذى يسمح بتفسير كافي لهذا الشعور بالتفوق، بدون ان تكون هناك ضرورة لجعله شيمة سلبية (خطأ) للذهنية الرعوية . * (1)

في هذا الاطار نلاحظ أيضا" رغبة البدوى" ـ "والمربي في السهب ـ للاستقلالية ، أى الاستقلالية المجالية عن الأرض (   ) ، فهو يستفيد منها ويدافع عنها ، اذا غزاها مستعمر، ولكن لايريد أن يكون مصيره مرتبط بها ، وبها وحدها . لذلك فنمط الحياة"الزراعي" هو مقيد لحرية "رجل السهب"ويرغب في الترفع عنه ، ويبرر موقفه من ذلك كما أشرنا .

ان امتلاك"الأرض يحوضه بامتلاك"القطيع" ، وهذا يرتبط بثقافته الخاصة . وبالبعد السياسي أيضا ، "فهو يرفض المجتمع "المستقر الذى يتطلب نوعا من"التحضر" .. ويرفض أيضا المراقبة والمجتمع "العسكرى" الذى يتسم بالقهر وتقييد الحرية ، وتحييد أو تحديد لتصوره للارض والبيئة ..

2) ـ __الماشية:__

* الماشية ، هي العنصر"الثاني"، فهل تصبح تسميتها "برأس المال السهبي" ؟ أم انها "وسيلة انتاج" ؟ " ماركس" يرى بأن القطيع "رأسمال متغير" * (2) . لكن طبقا للمنطق الاجتماعي فهما وجهان لعملة واحدة ، فهي "رأس مال" لانها تشكل رصيدا ماديا للسهب قابلا للاستثمار، وهي "وسيلة انتاج" لها قيمة استعمالية وتداولية سواء تعلق الامر بها أو بملحقاتها . انها تشكل دائرة كبيرة في اطار الاستهلاك والتسويق أيضا. فهي تربط بين التل والسهب ، وخطورتها تكمن فيمايلي :ـ

.../...

(1) __voir C/ M.R.DOGNIN__ :-"Sociologie ...." op.citée P11.

(2) __W.BOUZAR__:- " La Mouvance .." T:1 P229 .

لا يمكن تنظيم النشاط السهبي بمعزل عن النشاطات الاخرى:.. الزراعة - الصناعة - التجارة - النشاط الحرفي ... الخ . اذن ، فمحورها ودائرة تأثيرها لا يمكن اغفالهما .واذا أخذنا رأى "دونيان" عن البحث في المجال السهبي نجد " ليس الهدف هو الحوار الاكاديمي بقدر ماهو البحث عن التحكم في خصوصية الحياة السهبية ، أى العلاقة مع القطيع ، لأن هاته العلاقة هي المكان المفضل الذى يحيق المبادرات التي تهدف الى تحوير ذهنية المربين " * (1) .

* تحرير هاته الذهنية لا يتم الا من خلال انتعاش اساليب معينة في طرائق ونظم التعليم التي تتلائم مع واقع هذه الأطراف أو تشكل نقطة الانطلاق .

وعن العلاقة بين " المربي " ، والقطيع يقول "الباحث" "ان عدم فهم السلوك " الرعوى" والاثارة التي تنجم عنه ، ناتجة عن كون الاشخاص يحكمون عن علاقة "المربي" مع قطيعه على انها " حاجة" بينما هي مسألة "رغبة" * (2) .

* فعلا نعثر على ذلك من خلال ملاحظاتنا التي سنوردها بالتفصيل فيمابعد ، حيث أن كثيرا من المهتمين بهذا الموضوع تأثروا بشكل او بآخر بنظرية "الحاجات" التي بدأت منذ الاقتصاديين الاوائل ، وتوجت في عهد " ماركس" ، مع ان الواقع يجعلنا نلاحظ بأنها الرغبة هي التي تدفع "المربي" الى امتلاك القطيع لانه يرتبط بعلاقات احساس وتفهم لهذا القطيع الذى يسهر على تربيته أكثر من العلاقات النفعية التي هي علاقات مؤقتة ، ولهذا الأمر دلالته :-

.../...

(1) C/ M.R.DOGNIN:- "Sociologie de la steppe" P1.

(2) Ibid P4.

فهو يرتبط بحراقة "البداوة" لدى هؤلاء الاشخاص ، أى بثقافتهم الاصلية التي هي ثقافة تجعل "الوجدان" يوجه "الحاجة المادية" .

اذن ، فنحن امام احكام "قيمية" سواء من طرف علماء الاقتصاد ، أو الساسة ، أو "الباحثين" للسهوب ، كلهم يمتازون بنظرة ما عن هؤلاء "المربين" فأحدهم يحكم عليهم بأنهم لا ينتظرون الا الفرص السانحة لكي يفرضوا اسعارهم ، والبعض الاخر يرى ان ذهنيتهم تحتاج "للتغيير" لأنها لا تتناسب مع التنمية " و"التخطيط" ، والبعض الاخر يرى بأن هؤلاء "المربين" هم فئة طفيلية تعيش على هامش المجتمع كما انها جشعة لا تقوم بأى دور في التنمية .واذا اخذنا تساءل الباحث ، وقلنا مثله :- هل هناك عقلانية خاصة بالرعي ، والمختلفة عن طرق التربية المستعملة الآن ؟ أو كما نظن تلقائيا أن الرعي شكل قديم من اشكال النشاط الاجتماعي والاقتصادى ولا يحتاج الا للتطوير .. هذه الاسقاطات وغيرها هي التي يرفضها "المربي" لذلك نجد عدم طواعية في تقبل المقترحات التنموية ، وعدم تفهم للتخطيط السياسي الذى يعتبره غريبا عنه .وكما لاحظنا ، وعاينا . فان البدو . وانصاف - يواجهون هذه الامور بنوع من الريبة والتحفظ .

ثم اننا نظن - وهذا شكل آخر من الاسقاط - بأن تصورنا للعلاقة التي تنشأ بين القطيع والمربي هي نفس العلاقة التي تنشأ بين القطيع والمزارع .

وهذا خطأ من الاخطاء الذى ساعد على هذه الريبة وهذا الشك في نجاح المربين في عرقلة كل تنمية سهبية . المزارع

.../...

لايرى القطيع كما يلاحظ الباحث * (1) ــ الا من خلال المنتوجات التي تحصل عليها من لحم ، وصوف ، وحليب بمختلف مشتقاته ويعتبره منفصلا عنه في شبكة العلاقات التي تربطه بمحيطه ، بينما يعتقد المربي ان هذا القطيع هو جزء منه ، انه يرغب بأن تستمر هذه العلاقة ولا تتوقف ، فهو يصاب بالحزن حين يلاحظ أمراضا تصيب ماشيته أو أن عددها يتناقص بفعل الجفاف أو الذئب .

أما الامتيازات التي يأتي بها القطيع من حليب ، وصوف ومشتقات آخرى فانه لا يرفضها ، لكنه لا يرى القطيع من هاته "الزاوية" فقط . هذا الذي ينبغي فهمه حتى يكون التخطيط لتنمية سهبية منسجما ولا يعاني من التناقص انه يجعل هذا القطيع في مستوى الانسان من حيث الرأفة به ، والاعتناء به ، ومداواته ، وتقديم الخدمات له حين "الولادة" ، وتدفئته في البرد القارس ... الخ .

هذه المفارقة في خيال "المربي" من رغبة في الحصول على الماشية ، واكثار عددها ، أكثر من اهتمامه بالحاجة الى منتوجاتها ، ومشتقات منتوجاتها ... ورفض هذا الخيال ــ وان كان لا يصرح به الاتضمينا ــ "للحاجة" ، هذا المطلب المادي الرخيص . مؤكد على اشارتنا السابقة .

اذا فالمربي يعتبر "قطيع" موضوعا "خياليا" "لا نهائيا" حيث يريد امتلاك عدد أكبر من القطيع كلما توفرت له الفرصة ، وكلما سمح له السوق بذلك . ــ على عكس المزارع ــ الذى يرتبط أكثر

.../...

(1) C/ M.R. DOGNIN:- "Sociologie de la Steppe " P5.

منه بالأرض الزراعية (1) — وهذا الخيال يتناسب مع اتساع السهوب . فالقطيع لا يعرف حدودا يرسمها الواقع ان "المربي" والبدوى" يريد تعويض فراغ خيالي يحس به مثل الشخص الذى يجمع أشياء ليصنفها — Colléctionneur.. — كما يلاحظ "دونيان" .

كما أن فشل كل سياسة "سهبية" غير منسجمة ترجع الى عدم تفهم خصوصية هاته "الذهنية" التي لها سمات تصعب على من لا يعرف السلوك الاجتماعي والنفسي لهؤلاء المربين مع قطيعهم ، وردود فعلهم .. فكثيرا مايلاحظ أن تدخل التقنيين والاعوان المختصين في المجال الرعوى يثير كثيرا من الاشكالات، وعدم الاطمئنان ، وعدم الثقة ، حيث يحاول دائما أن يحمي هذا القطيع من كل تدخل أجنبي بوسائله الخاصة سواء عن طريق المقاومة السلبية أو التهكم أو عدم الاكتراث ، وفي أسوء الحالات بالمجابهة المباشرة . . لذلك فهذه العلاقة الخاصة التي يقيمها " البدوى" ، و" مربي الماشية" مع القطيع ترتبط بالشكل متواتر بنظرته للارض كما أشرنا *. لذلك يقول" الباحث" :— "هاته السمة الخاصة للعلاقة بالأرض ، في درجة الصفر ، وفي العلاقة المتفوقة بالقطيع تجعل المربين مرتبطين بماشيتهم ، ويظهرون كراهية نحو كل عمل زراعي * (2) .

هذه الملاحظة صحيحة ، في أكثر من موقع ، حيث انهم لا يقومون بالعمل الزراعي الا في ظروف قهرية ، في مراحل الجذب "المقلقة" ، في فترات المجاعة — حيث ان هؤلاء "البدو" في سنة 1945 مثلا — حينما اصابت المجاعة الجزائر ،

.../...

* (1) لاينبغي الاعتقاد بأن هذا يناقض ما أشرنا اليه سابقا بأن مربي الماشية يرتبط بإحساس معين بالأرض (الارض كمجال واسع :- "السهب") وليست الأرض المحدودة والزراعية أو القابلة للزراعة .

(2) C/ M.R.DOGNIN : "Sociologie de la Steppe" P8.

أضطروا للهجرة للتل ، والتقاط الحبوب وجمعها لبيعها — على الأقل ، فإن ذلك لايعرضهم للموت البطيء الذى يصيبهم ببقائهم في السهب الذى أصبح عقيما بمعني الكلمة .

برجوعنا الى "القطيع" ، وعلاقته بالمصالح الادارية والتقنية نجد تحطيما للثقافة البدوية عن طريق فرض "المعايير" التقنية الجديدة التي لاتلقى تقبلا مريحا من طرف " البدو . " تعرف أن القطيع يحتوى في بعض الاحيان على دليل ، وهذا الدليل يوضع له جرس ويختار من طرف "مربي الماشية" طبقا لمقاييس معينة ، وهو الذى يوجه القطيع نحو الاتجاه الصحيح ، مهما كانت الظروف . . ومعايير الاختيار قد تتوقف على العمر ، وقد يبيع من ماشيته تلك التي تتسم بخصائص مختلفة عن الماشية التي يبقي عليها ، التي تتسم بميزات منسجمة ، ومتشابهة . . اذن فهو يبيع أو يبدل كل طرف لايتلاءم مع الصورة التي يضعها كذلك فإن اختيار نوع من الماشية تذبح للضيوف يتم طبقا لقواعد معينة ترتبط بالثقافة البدوية . . واذا كان الحديث حول الحركة الصحية ، فإننا نلاحظ أن المربين نادرا مايعارضون هاته الحركة بينما يرون فعاليتها وصلاحيتها ، لكن لابد من اشراكهم ولو بطريقة رمزية . . حيث أن مجانية هاته الخدمات الطبية قد تؤدى الى حذرهم والى الشك ، فإن الدولة — الادارة المسؤولة — قد أصبح لها حق في جزء من القطيع .

وهذا هو الذى كان وراء أستياء المربين أمام كل "الحملات" الصحية والى عدم تفهمهم لبرامج التوعية التي يحسون تجاهها بنوع من الاغتراب .

.../...

وهذا الأمر أيضا يرتبط بتعداد الماشية ٭. لذلك فإن خشيتهم من الضرائب هي التي جعلتهم لا يعلنون عن قطيعهم لتلقيحه .

ويشير "الباحث" أيضا ٭ الى أن هاته المسائل التي نعتبرها في بعض الأحيان هامشية تتصل أتصالا وثيقا بالثقافة "الرعوية" (فانتقاء أصناف من الماشية ، وبيع نوع ، والابقاء على نوع معين ، وتسمين بعضها ، وزج البعض الآخر .. الخ يخضع لمعايير معينة) "فاذا عورض المربون في ذلك فمعناه ضرب العلاقة الرعوية ، واثارة مقاومة كبيرة و فالثقافة اما أن تأخذ مكانة فوقية ، واما أن تحطم " ٭ (1) .

ولابد من الاشارة في هذا المجال الى أن المربين والبدو لا يستهلكون اللحم بقدر مايستهلكون الحليب ، لذلك فإن اللحم يتعلق بالطلب الخارجي بينما الحليب يستهلك ذاتيا : ونحن نعرف بأن البدو "ساكني الخيام" لا يقومون بذبح الماشية الا للضيوف أو في مناسبات معينة (أعياد .. احتفالات طقوسية ((الوعدة)) .

و"رينون ديمون" يعتقد بأن انتاج كيلو لحم يتطلب "30 مرة" من العلف بالنسبة للتر من الحليب ، والذى يحتوى على نفس "البروتينات" ، مع العلم بأنه اذا رفض "المربي" بيع ماشيته ، فلا يعني ذلك رفض بيع حليبه .. وهذا الفائض من الحليب هو نتيجة لفائض من القطيع " ٭ (2) .

3) — الانسان :—

لكن "الانسان" هو محور هذه "الرباعية" والذى تتأسس عليه العملية السهبية بكليتها ، كيف نعتني به ؟ كيف نكونه ؟ كيف نحترم ثقافته ؟ .

.../...

(1) C/M.R.DOGNIN: "Sociologie de la steppe" P13.

(2) Ibid P 15.

"فرجل السهب" هو أهم عنصر في هذه "الرباعية" ، عليه يتوقف التنظيم الاجتماعي والبيئي والاقتصادي ـ الخ لذلك فهو فاعل ومتلقى في آن واحد ، وعلى ضوء هذه الثنائية يتحدد مجاله في "السهب . ولابد من النفاذ الى داخل هذا "الانسان" ، الى معرفة آماله وطموحه الفعلي ، الى معرفة مايحقق الترقية الاجتماعية له ؛ وفي هذا المجال يبدو تساؤل :ـ الا يمكن اعتبار حرية التصرف الشخصية في أمتلاك القطيع قاعدة لتحقيق طموح الجماعة ؟ أو بمعنى آخر ، الا يمكن عن طريق الامتلاك "الشخصي" ، والسكن "الشخصي" والمراقبة الذاتية تحقيق المساواة الاجتماعية ؟ .

ان طبيعة "البداوة" تؤكد على "التصرف الشخصي" ، وهذا التصرف ينبغي أن يحقق طموح الجماعة ، ان البدوى يعتز بالسمات الشخصية رغم خضوعه للجماعة ، فهو يعتبرها جزءا من تقاليده وقيمه ، لذلك يرفض أى فكرة تحاول الغاء ذلك ، لكن هذا لاينبغي أن يوحي لنا بتنمية "الروح الفردية" في جانبها السلبي ، أى استعادة "الملكية الكبيرة" لمكانتها في عهد الاستعمار الفرنسي ، وسيطرتها من جديد على القطاع السهبي برمته وبذلك تضاعف من عملية "التفقير" . . . ألا يجدر بنا تحديد نوعية الفئات المتواجدة في السهب ، ونوعية العلاقات التي تنشأ بينها ، هل هي علاقات أستغلالية ؟ أم علاقات تعاونية ؟ أم علاقات تلفيقية تجمع الى جانب "التعاون" و"التعاضد" ذلك الاستغلال "المخفي" الذى يمارس بطريقة أو بأخرى ، سواء عن طريق القرابة العائلية أو القبيلة أو العرش . هنا نحن امام فئات تجمعها "العصبية" وتفرقها المصالح

.../...

أيا كان نوعها اذن ، فمنهج تحليل علاقات "رجل السهب" الاجتماعية هو البدء من الفردي ، وعلى أساس "الفردي" ننتقل الى "الخاص" ثم "العام" وان كنا هناك نخالف بعض المعطيات المنهجية المستقرة ، "فالواقع السهبي" يقترح علينا تحوير اتجاه التأويل ..

هذا "الانسان" الذى تتوقف عليه التنمية "السهبية" ، كثيرا مايغفل دوره ، ولا يصبح الا ملحقا للتقنية أو للسياسة التنموية مع انه ركيزتها وعمادها الاول ، لذلك فالتكوين ، والنمط المدرسي لم يمس لحد الآن الوسط الرعوى ، ولم يهيأ هذا الوسط حتى لاستقباله ـ فالتعليم مازال حضريا وسيبقى كذلك اذا لم يغير توزيعه الجغرافي والمجالي تغيرا جذريا طبقا لدراسات متقنة ومعمقة ، لذلك فالسؤال الذى كان مطروحا ولايزال هو: ما اثر التعليم على ابناء مربي الماشية ؟ هذا ماسنطرقه في فصل لاحق ، بنوع من التحليل والتفصيل لكن لا ينبغي تبني "الديماغوجية" ، ونضع هاته الحلول بمثابة عصا موسى السحرية ، فلا بد أن تكون هناك دراسة سابقة للبيئة بكل مقوماتها ، والمحيط الاجتماعي ، الذهنية والثقافة الرعوية "دونيان" والقيم والعادات الخ لانّ هاته المراكز التكوينية التي يقترحها وغيره من الباحثين تواجه صعوبات كبيرة ، اذا إهملنا بعض الجوانب الخاصة من شخصية " رجل السهب" لذلك لا ينبغي الاستهانة بالتهيئة المجالية التي سبق ، وأن إشرنا اليها ، وذلك طبقا لمخططات تنموية تنطلق من ثلاث قواعد إساسية :ـ

1) ـ اختيار المخطط الكفوء ، الذى له معرفة واسعة بواقع السهب ، والحاجات الضرورية لمربي الماشية ، والاطلاع الواسع على الثقافة البدوية .

.../...

2) ـ التهيئة المجالية ، التي لا تأخذ السهب كقطعة جغرافية منفصلة التل ، وانما أخذه في علاقاته مع التل بما يحمل ذلك من أبعاد مختلفة :ـ توازن تنموى ، وتكامل اقتصادى و وتوطيد شبكة العلاقات الاجتماعية .

3) ـ النظام "التكويني" ضرورى في السهب ، لكن ينبغي أن يتكيف مع الحاجات الملحة للمنطقة ، وذلك بالتخلص من طابع التعليم الحالي ـ الذى مازال حضريا في أساسه ـ ، وزحزحته الى الأرياف والسهوب .. بعد توفر شروط اجتماعية أخرى طبعا .

4) ـ الجانب الايكولوجي :ـ

أما مايسمى "بالبيئة" أو الجانب "الايكولوجي" ، فيمارس ضغطا على من حوله سواء أكان "الانسان أو"الماشية" أو "الأرض" نعطي للجانب "الايكولوجي" ، لأنه شرط لقيام النشاط السهبي .. "فالبدوى" و"مربي الماشية" أكثر تحسنا من غيره في مراعاة وقت سقوط المطر ـ مثل "المزارع" ـ وكميته ونفعه ، فالجدب أو القحط عدو أساسي من أعداء الانسان يحاول مصارعته لكنه يفتقد السلاح .. الاختلال "الايكولوجي" يخلف آثارا سيئة على "الانسان" و"القطيع" والأرض (الفياضانات .. أو الجدب) اذن ، فاهمال هذا الجانب من قبيل ترك عنصر هام يؤثر على الحياة السهبية ... ومن وجهة نظر "دونيان" فان الكلمة الحالية : لعلماء "المناخ" والمتخصصين في الرى " HYDROLOGUES " ، ويضيف "كودارك" :ـ "ان "الرى" مثلا ، لا يتناسب مع الضرورة : فالآبار نادرة ، وليست موزعة بشكل مقبول .. في المناطق السهبية بمعنى الكلمة فان مناطق شاسعة بعيدة عن مراكز المياه (..) وحتى لا تتعب الحيوانات لابد على "الراعي" ألا يبتعد أكثر

.../...

من 15 كلم عن مركز (منبع) الماء (..) وقد يحدث في تركز المواشي حول "الماء" حدوث "الموتان" (Episootie) وافساد العلف ، لكن المربين الكبار يتجنبون ذلك ، وذلك بوضع مواشيهم في المناطق جيدة العلف ، ويأتون "بالماء" بصفة منتظمة ، عقلانية وذلك بمساعدة "خزانات" المياه والجرارات ، كلما كان المربي "كبيرا" ، كلما استطاع تنمية تراكبه لرأس المال ، وكلما كان "صغيرا" كلما كان مجبرا على تحصيل "القوت ، و"العشب" ، وأن يصبح "راعيا" ، في أدنى حالات "الجدب" * (1) .

وبعض الملاكين الكبار ، كما لاحظنا يلتجئون لشراء مضخات المياه ، وخزانات الماء ، لكي يتم أرتواء ماشيتهم .. بينما يكتفي "المربون الصغار" بالذهاب الى المحركات الهوائية — المائية ، والتي هي في كثير من الأحيان غير صالحة للاستعمال .

ويلاحظ "قويدر" محمد " بأن الاستعمال اللاعقلاني للأراضي الجافة هو السبب الرئيسي لكل الحوادث التي تصيب القطيع (..) ومن المهم جدا تشكيل احتياطات غذائية كافية لمواجهة الخسائر التي تنجم عن سنوات الجفاف ، وذلك للمحافظة على القطيع وعلى السكان المعنيين ، وأن زراعة (الاشجار المثمرة) في المناطق الجافة يكون مساعدا لعلف الحيوانات و وسيلة لقوت السكان البدو ، والقاطنين حيث يرتفع النمو الديمغرافي * (2) .

---

(1) R /COUDERC :- "De la tribu à la coopérative " In options Méditéranéennes N° 28 — 5° Année.

(2) C/ Kouider Mohamed :- "possibilité de l'Abroculture " In : Seminaire , International ... ALGER , AVRIL 1974.

السهوب بين الجغرافيا والتاريخ

2) — السهوب بين الجغرافيا والتاريخ :

* اذا تحدثنا عن السهوب ، فمعناه أننا نتحدث عن رقعة جغرافية واسعة تمتد من الحزام الشرقي للكرة الأرضية (من الصين ، و التبت) الى حدودها الغربية ، أى الولايات المتحدة الأمريكية (الأريزونا والتكساس) . هذا المجال الجغرافي الشاسع للسهوب والذى طرأت عليه تغيرات جيولوجية منذ العصر الحجرى القديم — والذى ليس هو مجالنا هنا — يبين الى أى مدى قد تعاقبت الأجيال والاحداث على هذا الج المجال الجغرافي ، والذى كان يمثل تغيرا كبيرا في مسار تاريخ البشرية منذ غزو "الاسكندر المقدوني" لاسيا ، ثم " الفتح الاسلامي" و "الغزو المغولي" ، و"الاحتلال الأوروبي" وكل مانجم عن ذلك من أسفار ، وأكتشافات ، وتوسع تجارى وحضارى :— يبين أن "السهوب " كانت مسرحا للأحداث التاريخية الهامة ، وهنا تتعاقد الجغرافيا مع التاريخ عقدا طويل الأمد لاينتهي الا بأنتهاء الحياة البشرية .

نشوء البداوة:

"منذ فجر التاريخ ، نشأ صراع بين الحضارة الزراعية في دالات الأنهار ، وبين البداوة ومجتمعات الرعي والصيد والاغارة ، ويتركز هذا الصراع في الاسطورة — الام — التي حددت أجناس شعوب وقبائل المنطقة السامية ". * (1)

.../...

* (1) شوقي عبد الحكيم :— علمنة الدولة وعقلنة التراث العربي دار العودة بيروت 1979 ص : 23 .

ورغم آن الكاتب شوقي عبدالحكيم ، يخلط بين "سام" و "حام" وقابيل وهابيل" الا آن التضمينة التاريخية تجعل "قابيل" صاحب زرع ـ فلاخ ـ و "هابيل" ـ راعي ـ أو "مربي الماشية" . وقد تقبل الله عز وجل من "هابيل" "الراعي" ، ولم يتقبل من "صاحب الزرع"، فكان أقدم هذا الاخير على إغتيال لاخيه .

وهكذا فإننا مجبرين على تتبع الحضارات "السهبية" التي تعود الى الشرق القديم ، قبل نشوء الحضارة الاسلامية ، والتي مازالت تسم المجتمعات "الرعوية" ومنها "المجتمع الجزائري" الحالي، فقد نجد بعض العادات والاعراف التي ليست منحدرة من القيم الاسلامية ، فرغم أننا كباحثين لاينبغي أن نصدر عليها حكما قيميا ،الا انه ينبغي ارجاعها الى أصولها الثقافية والانثربولوجية ،وهنا يظهر دور التاريخ والجغرافيا بصورة جلية .

لذلك يقول "غوردن ايست" :ـ " ان دعوى الجغرافيا التي تتردد في مجالس التاريخ تقوم على أساس راسخ ، يتلخص في أنها هي وحدها التي تدرس دراسة شاملة علمية بواسطة طرائقها وأساليبها الخاصة مجال النشاط البشرى ، فضلا عن أن الظروف الخاصة التي تميز هذا المجال لاتساعد على تعيين مكان الاحداث فحسب بل تؤثر كذلك في بعض نواحي هذه الاحداث على الاقل" * (1) .

ان معظم الحضارات السامية نشأت في بلاد مابين النهرين (الهلال الخصيب) وفي جنوب اليمن (حضارة "سبأ" في الالف الاولى ق.م. (1000 ق.م) .. فهي تنشأ في المناطق الزراعية حيث أن "الاستقرار" عامل مهم في توطيد الحضارة ، لكنها كانت تتوسع في "السهوب" كما أوضحنا سابقا .

* (1) غوردن ايست : الجغرافيا توجه التاريخ ترجمة د/جمال الدين الديناصورى دار الحداثة بيروت 1982 ص: 11.

اذن ، فمجتمعات العالم القديم ـ في "الوطن العربي" حاليا ـ في مراحل التكوين القبائلي والعشائرى قد عاشت في مختلف البيئات والمناخات الجغرافية ـ من مجتمعات زراعية ورعوية وجبل ، وبحر. * (1)

وفي هذا العالم القديم أيضا طورت تربية الماشية واستئناس الحيوانات وأصبحت منبعا للثروة ، وأبدعت علاقات اجتماعية جديدة ، حتى المرحلة الدنيا من البربرية ، فائن الثروة كانت تنحصر في المنزل ، والثياب ، والمجوهرات والآلات الضرورية للمعيشة أو للحصول على القوت : قوارب ، أسلحة .. أما القوت فيجب الحصول عليه كل يوم من جديد ، لكن الشعوب الرعوية ، احتلت أراضي جديدة .. فالساميين على ضفاف نهرى الفرات ودجلة ، قد وجدوا في قطعان الخيل والجمال والحمير والبقر والغنم ، والماعز والخنازير ملكية كانت لاتتطلب غير المراقبة وغير أبسط صنوف العناية لكي تتكاثر بأعداد متنامية ، وتقديم طعاما من الالبان واللحوم وافرا للغاية وهكذا تراجعت الآن جميع الاساليب السابقة للحصول على الطعام الى المرتبة الثانية ، والصيد الذى من قبل ضرورة اصبح الآن بذخا ، لمن هاته الثروة الجديدة ؟ في البدء كانت بلا ريب تخص العشيرة " GENS .. " بيد انه كان لابد للملكية الخاصة للقطعان آن تتطور باكرا . هل (..) اعتبر (..) موسى ، ابراهيم مالكا لقطعانه بموجب حقه الشخصي بوصفه رئيس مشاعة عائلية ، أم بموجب مركزه كرئيس يرث بالفعل عشيرة . * (2)

واذا وصلنا الى ابراهيم ، الذى أنحدر "العرب" من أبنه أسماعيل ، فائنا لن نطيل كثيرا في أصل السلالات وتفرعها ، من سامية وحامية وآرية : وانما يهمنا تفرع "البداوة الرعوية" : ومن ورائها

(1) أنظر شوقي عبدالحكيم: "علمنة الدولة ... نفس المرجع ص : 22 ./...
(2) انجلز :ـ "أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة" ترجمة الياس شاهين دار التقدم ـ موسكو ـ دون تاريخ ص : 66 ـ 67.

الحضارات التي غزت السهوب أو أنطلقت منها — فأنطلاقا من السهوب الاوراسية — نسبة الى أور — الموجودة في جنوب غربي آسيا نحو الهلال الخصيب وشبه الجزيرة العربية برزت أكبر الغزوان على ممر التاريخ ، وأستخدم "الجواد" للحرب والغزو، وظهرت الاحتكاكات الخضارية الاولى الى ماوصلت اليه الآن كما يقول "توينبي" ، الا أنه ينبغي الاشارة الى النزاعات الدائمة التي كانت تجرى بين الشعوب "الهندية — الاوروبية" (الآرية)، والشعوب السامية ، حيث كانت السهوب مسرحا لها وذلك من بداية القرن (20 ق.م) ، وحتى بين الشعوب السامية نفسها . حيث قضى البابليون على الاشوريين بحرقهم العاصمة "نينوى" وهدمها سنة "612"ق.م. (1)

*

يتحدث "توينبي" عن نشوء "البداوة الرعوية" وأنتشارها ، وكيف أنها كانت مصدر رعب وهلع بالنسبة للحضارات الزراعية :— " (..) على أن البدوى الراعي كان ، من أول الامر ، يثير الرعب عسكريا في المرات القليلة التي كان يخرج فيها من السهوب التي هي موطنه العادى .

ولعل الهجمات التي ذاقت بلاد بابل ومصر وبلاتها ، وقد يكون نال كريت من ذلك نصيب أيضا ، في النصف الثاني من القرن (18 ق.م)، انما هي آثار غير مباشرة للتفجر البدوى الذى عقبته سلسلة من التفجرات التي استمرت في السهوب الاوراسية حتى القرن الثامن عشر للميلاد ، وفي السهوب العربية الشمالية الى مابعد الحرب العالمية الاولى .* (2)

اذن فالهجرات الواسعة التي صاحبت هذه الهجمات المستمرة واختلاط الشعوب والاجناس من آراميين — نشأتهم وحضارتهم في القرون الاولى — وكنعانيين وعبرانيين : — الذين ينحدرون أو ينتسبون الى الآراميين — ،

.../...

---

(1) غي دى بوشير :— " مفاتيح لأجل العالم الثالث " ترجمة :— فؤاد سراجي المراد دار الحقيقة بيروت 1974 ص17 .

(2) أرنولد . توينبي : تاريخ البشرية الجزء الاول ترجمة د/ نقولا زيادة — الاهلية للنشر والتوزيع بيروت 1981 ص ص 99—100 .

وانتشار الحروب فيما بينها جعل الخريطة الجغرافية تتغير من عصر الى عصر : فهذه امبراطورية تتسع لتصل الى أقصى حدود الشرق ، وهذه أمبراطورية تتقلص نتيجة لهجمات بعض الشعوب "البدوية" الآسيوية أو الآرية ، أو قد تكون نزاعات و داخلية تستمر بين عائلات من نفس السلالة ولا أدل على ذلك من حضارة القرطاجيين أو الفينيقيين (من القرن 6 ق.م — الى — القرن "1" ق.م) : اذ يكفي الرجوع الى موءرخي هاته الحضارات لكي نلاحظ التعقيد الذى تبرمه المعرفة التاريخية مع المحيط الجغرافي .

ان أسماء المناطق ترجع الى أصول عرقية : فهلم السلالة أيضا يلعب دور الوسيط بين الأمكنة (الجغرافيا) ، والأزمنة(التاريخ) : وقد خلفت الشعوب السامية أسماء أسلافها وأسماءها على كل مكان وطئته(..) ان قارة افريقيا سميت نسبة الى الملك الحميرى، آفريقش بن أبرهة" — هكذا لدى ابن خلدون — الذى يقال أنه عندما غزا المغرب — شمال افريقيا — متجها اليه من آرض البربر رأى بلادا كثيرة الخير ، قليلة الأهل ، فنقل "البربر" من بلادهم فلسطين الى مصر ، فلما بلغ آفريقش حيث بلغ من فتوحات أمر ببناء مدينة بتلك الارض من افريقيا . * (1)

وعلى رأى ابن خلدون — فأن هذا الملك ، أخذ معه هوءلاء البربر ، ووطنهم في هذا المكان :— والاختلافات التي مازالت قائمة بين الموءرخين الاوروبيين ، وموءرخينا القدماء والمحدثين هي في أصل نسب "البربر" ، هل هم شعب "آرى" أم "سامي" ؟ لكن الرأى الراجح هو انضم شعب "سامي" طبقا للموقع الجغرافي الذين انطلقوا منه ، ولهم

.../...

(1) شوقي عبدالحكيم : علمنة الدولة .." المرجع المذكور صص88_89 .

قد أتفق مع الكاتب حينما يتعرض للمنشأ الثقافي للحضارات السامية ،لكن الاختلا ف معه في تقييم الدين الاسلامي ،حيث تطغى نزعتة الشوفينية " فكرة القومية " على تحليله (أى تدخل الايديولوجيا) .

خصائص الشعوب السامية في عاداتهم وأعرافهم ونظمهم الاجتماعية التي يبدو أنها وثيقة الاتصال بحضارات شرق البحر المتوسط ، والتي تختلف عن السمات الحضارية التي تبرز لدى الشعوب "الآرية" . لذلك كان تأثرهم سريعا بالبداوة "الرعوية" ، لانها أصيلة عندهم وعريقة .. "فتويني" لم يكن مخطئا حينما ذكر: "ولما دجن الجمل ذو السنام الواحد في السهوب العربية قبل أنتهاء الألف الثاني ق.م ،ولما تأقلم الحصان هناك قبل بدء التاريخ الميلادى ،اتسع مجال البداوة الرعوية فشمل بلاد العرب ومن بلاد العرب أنتقلت البداوة الرعوية الى شمال افريقية، وقد صنع البدو الرعاة التاريخ منذ القرن 18 ق.م ،حتى زمن لا يزال الكثير من الأحياء يذكرونه . * (1) بعد التعرض للتنمية التي ألصقت "بافريقيا" ،فان ذلك ينطبق على رقع جغرافية أخرى منها يذكره شوقي عبدالحكيم أيضا ،... "واسم الشام ، نسبة الى "سام" بن نوح ، وأصله في العبرية "شام" أو "شم" ،واسم "آرام" بن سام أطلق أيضا على الآراميين (معظم لبنان ،وسوريا، ومابين النهرين) ،كما أطلق على مصر "خام" ، اذ أما كنعان ابن حام فقد أطلق على المنطقة الممتدة من الأردن الى البحر المتوسط ،وأطلقوه على لبنان وعلى الريف الفينيقي وتسمية "اليمن" تتصل بيعرب بن قحطان الذى كني "يأيمن" ، و"أرمينيا" حاليا تنسب الى هجرات آرامية وقعت في القرن السابع "7ق.م" . * (2)

ورأى "غوردن ايست" لايخلو من وضوح حين يقول : " اذا كانت الجغرافيا بدون تاريخ تبدو كهيكل بدون حراك ،فان التاريخ بدون جغرافيا كضال لاماوى له يسير على غير هدى" * (3)

.../...

(1) ارنولد توينبي : — " تاريخ البشرية " نفس الجزء ص100 .

(2) شوقي عبدالحكيم : — "علمنة الدولة" مرجع مذكور ص89 .

(3) غوردن ايست : — " الجغرافيا توجه التاريخ " مرجع مذكور ص14 .

الاسكندر المقدوني ، غازي أم مكتشف :-

تبرز الرحلات والأسفار على مر التاريخ ، الدور الذي لعبه الجغرافيون في اكتشاف آفاق جديدة لم تكن معروفة من قبل ، فهناك من كان "جغرافيا" وهناك من أجبر على أن يكون "جغرافيا" كالتاجر الذي كان يريد اجتياز الافاق التي يجهلها لتنشيط تجارته ، أو كالغازي الذي قاده طموحه الى أن يستولي على أجزاء من العالم المعروف في عصره ، فلم يرتد الا حينما حال بينه وبين الافاق الممتدة البحر: تلك هي حالة الاسكندر "المقدوني" الاسكندر "المقدوني" ذلك الذي نجده في القرآن الكريم ملقبا بذي القرنين هذا الشخص الذي كان يهتم ببلاد الفرس منذ صغره ، لم يكن يعرف "الاسكندر" الا أن العالم يحيط بالبحر المتوسط ، وأقصى حدوده لاتتجاوز "المحيط الخارجي" ، وهذا حسب خريطة "هيكاتي" Hecatée (1) اذن ،فلم يكن يعرف الا جزءا من أوروبا ، وجزء ضئيل من القارة الاسيوية (أسيا الصغرى) ، والجزء الشمالي من افريقيا (حوض النيل) وليبيا (التي تضم المغرب العربي حاليا) :- همه هو الوصول الى مكان يعرف بالمحيط الخارجي ، ولم يفت "الاسكندر" أن يطالع كل ما أتى به الرحالة عن وصف تخدم افريقيا التي كانت تتمثل أنذاك في مصر والحبشة وليبيا ، وآسيا التي لاتتعدى شبه الجزيرة الهندية وبلاد فارس ، لكن هؤلاء الرحالة لم يكونوا جغرافيين بمعنى الكلمة ، ولم يحددوا الطرق الرئيسية أو المسالك الوعرة أو الجبال ، وانما كانوا يعرضون على طريقة القدماء ما كانوا يشاهدوه من "أحداث" و "غرائب" ، و"عجائب" ... الخ .

لقد كان يحمل "الاسكندر" في نفسه طموحا كبيرا ، لغزو الافاق البعيدة كان يحلم بأخضاع كل السهوب التي كانت تمتد امام عينه حينما توجه الى مصر ، ثم آسيا بعساكره التي كانت ترافقه في الرحلة الطويلة والشاقة، لقد سمع عبارة من احدى المنجمات :

.../...

---

(1) J.P . CARTIER :- " Explorateurs et explorations" .collèction:-"U" maîtrise du Monde LAROUSSE PARIS 1974 . P14

" أى بني ، اذهب فأنت لاتقهر " .. وهذه المغامرة جعلته يضيع في واحات "مصر". باختصار استمرت غزواته من 334 الى 334ق م انطلق من "مقدونيا" (اليونان الحالية) ، وهاجم آسيا الصغرى والحوض الشرقي للبحر المتوسط وهنا واجه "بيزنطة" و"الفينيقيين" وغزا "مصر" ثم عاد على أعقابه ليغزو شمال شبه الجزيرة العربية ثم اخضع "سوريا" وبلاد الرافدين ثم بلاد فارس ثم اتجه شمالا الى آسيا الوسطى ثم بلاد الهند "والبنجاب" ، وأخيرا عاد على أعقابه من خلال سواحل بحر "عمان" حتى أنتهى به المطاف الى مدينة "بابل" التي توفي فيها سنة 323 ق.م لقد أسس في غزواته مايربو على احدى عشر مدينة أعطاها اسم "الاسكندرية" ويضفي عليها اسما آخر بأمكنة أو مدن مجاورة.

لقد كان هدفه هو الوصول الى حدود المحيط الخارجي، أن يصل الى أطراف الدنيا حتى يصبح ملكا على العالم. حينما توقف جنده بجبال "الهملايا" بعد أرهاق كبير وتعب "مضني" ، ألقى خطابا سياسيا يتضمن أيضا طموحه الذى ليست له حدود وتصوره الجغرافي للعالم : " اذا كان احدكم يريد أن يعرف كيف تنتهي هذه الحرب التي نشنها ، فليعرف بأن المسافة ليست بعيدة عن نهر " الخانج " ، والبحر الشرقي ، وسوف أؤكد لكم بأن " بحر قزوين" مرتبط مع هذا البحر، لان المحيط الخارجي الكبير يحيط بالارض من كل الجهات سوف أبرهن لكم بأن البحر الهندى يلتقي بالبحر الفارسي من جهة ، وببحر"قزوين" من جهة أخرى ، ومن البحر الفارسي فان قواتنا الغازية تبحر نحو افريقيا ، وهنا نصل الى مستعمارات " هرقل".

.../...

اذن ، فكل افريقيا وكل آسيا سوف تصبح ملكنا ؛ وحدود امبراطوريتنا سوف تكون طبقا لهاته الشروط هي الحدود التي وضعتها الآلهة للأرض. * (1)

كانت محاولة "الاسكندر" فريدة من نوعها في ربط الشعوب الشرق بشعوب الغرب ، لم يكن ذلك عن طريق الغزو فقط ، وانما عن طريق المصاهرة : توحي له السهوب الواسعة التي اجتازها بأن هناك آفاق أخرى ينبغي ارتيادها واكتشافها ، واقم واقامة تحالف مع أهلها والاخذ منهم .. بأختصار اثر الشرق في فكره ، وخاصة التصور الشرقي للملك .

بعد الاسكندر ؛ ظهرت الاحتكاكات الاولى بين الحضارات المختلفة : فأول احتكاك بين الروم والعرب تم في سنة 24 ق.م ، حينما وجه القائد الروماني "أليوس كالوس" حملته ضدهم (..) وهذا الجيش كان يضم عددا من العرب الأنباط الذين كانوا يقطنون شمال شبه الجزيرة العربية ، وعاصمتهم "البتراء" .. أهم مركز تجاري في شبه الجزيرة في العصر المسيحي الأول (ق "1" م) بعد ذلك احتلت "مكة" هذه المكانة التجارية ، وقد يكون ذلك في عهد الجد الأكبر للنبي محمد -ص- ؛ وكانت "المضاربة" أول نشاط تجاري تستثمر فيه مبالغ مالية تعود على أصحابها بالفائدة .

<u>دور السهوب في شهرة العرب التجارية :</u>

ومنذ القرن "الخامس" حتى أوائل القرن "السابع" ، حينما اضمحلت الامبراطورية الرومانية ، وحلت محلها القسطنطينية تحول الثقل التجاري العالمي لها . ولكن منذ القرن "السابع" حتى نهاية القرن "الحادي عشر" كان العرب اشهر التجار في العالم * (2) فعن طريق اتساع نطاق الامبراطورية الاسلامية من الصين شرقا التي فتحت في القرن

(1) J.P. CARTIER :- " Explorateurs ...." op. citée P26.

(2) لويس يونغ : - " العرب واوروبا " ترجمة : ميشيل ازرق - دار الطليعة ، بيروت 1979 . ص ص 56-57 ، و 141-142 .

الثامن الميلادى الى فرنسا غربا (أى حتى "بواتييه" التي أنهزم فيها عبدالرحمان الغافقي "732م") ، فاٴن المجال الجغرافي (السهوب بوديانها ، وجبالها ، ومسالكها) أدت دورا أساسيا في ازدهار العملية التجارية بين العرب ، وأوروبا ، والهند ، والصين ... الخ . ان ساكني الخيام ، ومربي العير والماشية اصبحوا تجارا أذكياء ، حتى أن "لويس يونغ" يصل الى أنهم شكلوامايسمى حاليا "بالشركات" (شركة "الكارم" بمصر في القرن العاشر ، التي لم تختفي الا في القرن الخامس عشر م.) * (1)

ثم أخذ الرحالة والمكتشفون ، في اكتشاف السهوب العربية . . بدأ ذلك منذ عهد الاٴغريق لانّهم كانوا يعرفون أن شبه الجزيرة العربية تقع في الطريق التجارى الذى يوٴدى الى الهند والصين ، هوٴلاء الرحالة بدوٴوا في جولاتهم بعد وفاة النبي العربي مباشرة حوالي 670 م . حتى القرن العشرين .. وهوٴلاء الرحالة كان أغلبهم ألمان وأنجليز وفرنسيين ، فبعضهم دفعه ذلك الى "السحر" الذى تمثله الصورة التي تنطبع في ذهن الأوروبي عن "الشوق" معرفة مايوجد من بدو ، وخيام ، وأقوام ، وقوافل ، وأحداث تشبع فضول "الأوروبي" الذى أنفصل عن "البداوة" ، والهجرات الجماعية "السلمية منذ الهجرات الجرمانية الاخيرة ، لكن "الأوروبي" — كما ذكرنا — يخضع دائما لتلك الصور "الرومانسية" التي يتخيلها عن الشرق الساحر ، فتكون بمثابة متعة وترفيه عن النفس . لكن الواقع غير ذلك حيث عانى بعض هوٴلاء الرحالة من مصاعب كثيرة في اجتيازهم لهاته السهوب الواسعة ، وفي أختراقهم لاحياء القبائل العربية . ولم يكن ط ذلك ظلما اذا عرفنا أن هوٴلاء الرحالة كانوا يقومون بتلك الاكتشافات في

.../...

(1) لويس يونغ : — "العرب وآوروبا" نفس المرجع ص59 .

المراحل الحرجة في التاريخ ؛ بل يتجاوزون ذلك الى التجسس ونقل الاخبار الى بلدانهم الاوروبية كلما ظهرت الحاجة الى ذلك ؛ فاوروبا والعرب كانوا في أخذ ورد ، وحروب ، ومناوشات مستمرة (الحروب الصليبية مثلا ـ) .

خرافة "الغزو" الهلالي :ـ

اثناء الحروب "الصليبية" وبعدها ظهرت موجات "الهلاليين" و "بني سليم" في القرن الحادى عشر الميلادى وينعت المؤرخون هاته الموجات بأنها "تخريبية" نظرا لكثرة الحبر ، ولتلال الورق ، التي أهدرت من اجلها ، دون ذكر مبررات هذا "الغزو" أو الأدلة الكافية لادانته ؛ وقد وجد بعض الكتاب الاوروبيين (المؤرخين والجغرافيين) في هذا الغزو فرصة لادانة العرق "العربي" ، وادانة الحضارة العربية ـ الاسلامية وقد لاحظ "عبدالله العروى" أنه رغم مايكتب عن "بني هلال" وغزواتهم ، التي استمرت قرابة ثلاث قرون ـ حتى القرن الرابع عشر ـ فان ذلك يتعلق بالنتائج أكثر مما يتعلق بتحليل بنية المجتمع المغربي أنذاك . * (1)

كتب "جاك بيرك" مايلي :ـ " فرنسا مخربة (..) وبيرنطة مهددة في الشاطيء الجنوبي ، فان الهلاليين ، والشعوب القريبة أنجزت حركتها من الشرق للغرب ، والتي دامت قرنين أو ثلاث قرون (هذه المدة الأخيرة هي الأصح) وأنشأت السلطانيات المغربية فبدخولهم الى بلاد تمارس فيها تربية الماشية في فترات منتظمة وتقسيم مقبول بين القاطنين والرحل ، حطموا وخربوا نظاما ريفيا ،

.../...

(1) A. LAROUI:- " Histoire du Maghreb " T:1 Maspero PARIS 1976 .P135 et suites .

لذلك فانهم أحدثوا عدم الاستقرار طبقا لمغامرتهم ، وذلك على أسس مناخية واجتماعية موجودة قبلهم ، ولكنهم ساهموا في تصحيدها بواسطة تصرفاتهم الخاصة ، وكأنها صدمة جديدة أحدثها تضييق الخناق على الثقافة الأصلية .. ان قبائل الحير انتشرت في مساحات شاسعة آخلت بالتوازن في قرى تعتمد على زراعة الأشجار المثمرة وعلى الري ". ☆ (1)

فنحن أمام قبائل يعتقد "بارك" أنها قبائل "الحير" ، ولم تجد أمامها الا القبائل "الرعوية" و "الاقطاعات الفلاحية" (من كلمة "اقطاع" التي لها مفهوم محدد في الفقه الاسلامي يختلف عن المفهوم المستعمل بأوروبا) .. مع أننا نعرف أن قبائل "بني هلال" ومن رافقها ، هي قبائل قد مارست "تربية الماشية" — فالرسول — ص — وان كان مدنيا ولد "بمكة" ، الا أنه كان راعيا للماشية — ونظامها الاقتصادي " بدوي — رعوي" ، والسهوب ليس بالأمر الجديد عليها الا أن هناك ظروف داخلية وخارجية — محاولة الخليفة " الفاطمي " التخلص منهم مثلا ... .

ساهمت مجتمعة في هذه الهجمات والغزوات المتتالية .. .ينبغي الا ننسى بأن الفتح الاسلامي للمغرب بدأ في القرن " السابع " الميلادي وأن هاته القبائل ليست هي القبائل العربية الأولى التي فتحت المغرب .. هذه المعطيات التاريخية لاينبغي اهمالها حتى لا نتورط في "الهالة" التي اعطاها المؤرخون الأوروبيون وغيرهم لهاته الغزوات ، وكأنها غزوات موغلة في التوحش والهمجية والبربرية .. لم يشهد التاريخ مثلها ... نريد من خلال هذه النتائج الأولية الخروج بأدلة على هذا التعاقد بين التاريخ والجغرافيا في تفصيل وتحديد الواقع السهبي .

.../...

(1) J. BERQUE :- "MAGHREB , Histoire et Sociètés " ED/SNED; et DUCULOT — BELGIQUE 1974 . P:53

منذ ذلك العهد :ـ العهود الاسلامية الأولى ، بدأت بوادر هاته السيادة التي تمارس من "البدو" على "القاطنين" في الظهور بشكل واضح ، ولا ينبغي أن نقع في الخطأ القائل بأن "البدو" يتشكلون فقط من "العرب" الفاتحين ، وانما يمكن أن نضم اليهم كل القبائل البربرية التي كانت قوية في فترات معينة من ظهور "الامبراطوريات" المغربية :ـ قبائل زناتة ، وصنهاجة ، ومغراوة ، وغيرها ... ، وبدأت البداوة السهبية " تتشكل شيئا فشيئا ، وتأخذ مكانتها على الصعيد الاجتماعي والسياسي ، وما استلهام "ابن خلدون" لمقدمته الا دليل على هذه السيطرة والهيمنة السياسية ، حيث يورد "ابن خلدون" نظريته عن العصبية بالاستناد الى " أطوار" الملك :ـ طور الظفر بالبغية ـ طور الاستبداد ـ طور الفراغ والدعة ـ طور القنوع والمسالمة ـ طور الاسراف والتبذير (الهرم)، منذ عصر "ابن خلدون " ـ القرن 14 م ـ والعصبيات تتحكم في مصير المغرب العربي السياسي حتى عهد قريب جدا ، وكان الحكم الفاصل يرجع الى القبائل القوية (السهبية) التي تستنجد بها الاقطاعيات "المدينية" والحكومة المركزية حينما يجابهها خطر داخلي أو خارجي .

وحتى في العهد "العثماني" ، . فان قبائل ، المخزن ، أى قبائل "الرعية" لعبت دورا كبيرا وهاما ، في تثبيت فكرة الاستقلالية عن كل ضغط سياسي من الحكومة المركزية ، وكانت السلطة العثمانية (ابتداء من القرن السادس عشر) تستخدم هاته القبائل في جباية الضرائب من جهة ، وفي توطيد سلطتها على القبائل "التابعة" ، وكانت تتقي خطر هذه القبائل بمداهنتها حينا ، وبرياشها أحيانا أخرى .

.../...

ولكـي نعـرف بشكـل جيـد ، هـذه الممارسـة السياسيـة ، ينبغـي أن نعـرف التوطـن الجغرافـي لهاتـه القبائـل ، فقـد توطنت فـي الجنـوب القسنطينـي فـي الهضـاب العليـا و"السهوب" مع قبائـل "الشاويـة" ، ثـم اتسـع مجالهـا لكـي تصبـح فـي الحـدود بين المناطق الصحراويـة وجبـال الاطلـس التلـي ، ثم اخـذ مجالهـا يتسـع الـى "الجنـوب الوهراني" الذى نقيـم عليـه دراستنـا الحاليـة .

السهوب اثناء التغلغل الاستعمارى (1830)

لم يغـير التدخـل الاستعمـارى في 1830 – رغـم ما احدثـه مـن هجـرات جماعيـة – الخريطـة الجغرافيـة للبـدو الرحـل من الجنوب الى الشمـال ، وقـد كانـت هـذه المناطـق السهبيـة هـي مركـز الانتفاضات الكـبرى (ثـورة"اولاد سيـدى الشيـخ" ثـورة "بوعمامـة" ، و"بوشوشـة" ... الخ ، واخـيرا ثـورة الاوراس 1916 م) لذلك فمحاولتنـا في اثبـات العلاقـة الوثيقـة بـين التاريـخ والجغرافيـا لاتخلـو من فائـدة ، اذا علمنـا بأن هـذا سـوف يجعلنـا نطمـح لان نقيـم "علم اجتمـاع" "سهـبي" خاص ، له مميزاتـه واطروحاتـه .

الفصل الثاني

=/=/=/=/=/=/=/=/=/=

أصل أولاد سيدى الشيخ وتحركهم

1) ـ الحضور العربي للاتحادية في "مصر" و "تونس"
2) ـ الهجرة الى "الجزائر" واستقرارهم بها
3) ـ بداية تفرع الاتحادية الى قبائل " وشرائح "
4) ـ التغلغل الاستعمارى في الجنوب الوهراني .

.../...

أ) ــ الحضور العربي "اللاتحادية" في "مصر" و"تونس" :ــ

أحاول أن أحدد هجرة أسلاف هاته الشريحة بدءا من "شبه الجزيرة العربية ، الى الجزائر *. بالاستناد على مؤرخين معروفين في ثقافتنا العربية الاسلامية من بينهم :ــ "ابن خلدون" و "الادريسي، والسلم المتنصر" . "الحسن بن الوزان" ، (ليون الافريقي) وكذلك من خلال بعض المراجع المتوفرة ، والتي تأخذ في أغلب الأحيان من هاته المصادر الأصلية .

كيف بدأت الهجرة ؟ .

أسلاف هاته الاتحادية القوية ، هاجروا مع الفاتحين ، لكن بعد الهزات العنيفة ، والانفجار السياسي الذى هز أركان شبه الجزيرة العربية بعد مقتل "عثمان" *. أى بعد انتهاء "السنة المثالية" ، وظهور الصراع بين "آل البيت" ، و "الفئات السياسية" الأخرى .

1) ــ "مصر" المهد الأول :ــ

يحدثنا المؤرخون ــ ابن خلدون ، وابن الأثير ــ بأن عليا ولى محمد بن أبي بكر على مصر ، ولهذا الحدث دلالته في انتقال هاته الأسرة الى مصر منذ ذلك العهد ، وقد تكون قد أختلطت مع القبائل العربية "الفاتحة" ، آنذاك ، منذ عهد "عمر بن الخطاب" الخليفة الثاني بعد "أبي بكر" ، اذ يجب أن نشير الى قلة عددها ، وهو أمر عادى في تلك الفترة *. ومكثت في "مصر" عددا من "القرون" وتابعت الغزوات الهلالية التي لم تنقطع منذ القرن "الحادى عشر" *. ويحتار أحد الكتاب كيف أن "اتحادية" أولاد سيدى الشيخ ، وصلت الى هذا العدد في العصر الحالي ، ولم يعلم بأن الهلاليين تجاوزوا "مائتي ألف" شخص، حسب/

.../...

عبدالله العروى ؛ وأن التزايد "الديمغرافي" يمتاز بالسرعة والتواتر ، وهو "سنة" القبائل العربية ؛ اذ يفتخر "العربي" بكثرة الأولاد ؛ ثم يتساءل "ثلاثة قرون كانت كافية لكي ينقرض الغزاة الأوائل ؛ وعلى ضوء ثمانية قرون فاننا نجد المنحدرين من ثلاث أو أربع قبائل التي أمتدت من خليج قابس الى شواطيء الاطلنطي ، حيث أن المنحدرين منهم أكثر عددا ، لكي يشغلوا ثلاثة أرباع الجزائر ، هذه الأطروحة مقبولة ، ولكن الاعتراض الوحيد هو أن هؤلاء السكان ينسبون أنفسهم الى العرب ، كما نقول في فرنسا ، بأننا فرنسيين دون أن نحدد هل نتحدر من العرف "السالي" أو "اللاتيني" — على حد تعبير جورجو — أو "الجرماني"" ، ثم يحلل الأخطاء التي وقع فيها المؤلفون من تقسيم السكان الى عرب وبربر * (1).

اذن ، أثرت الأحداث التي كانت تجرى في مصر على هاته الشريحة وغيرها من القبائل العربية الفاتحة ، ويذكر "أندرى ميكال" أن القبائل العربية كانت تتميز بعدم الاستقرار منذ الفتوحات الاسلامية الأولى ، وكانت ساخطة أيضا على السلطة المنتزعة ... وظهرت حركات مضادة لبني أمية في شبه الجزيرة العربية وفي مصر ؛ وأحتدم الصراع بين "القيسية" عرب الشمال ؛ و "اليمنية" عرب الجنوب (2) *

ويلاحظ أيضا كثرة الانتفاضات الدينية ، وتعدد في الحركات العشائرية والامارات .. وكذلك أثر على هجرات الأسلاف ، المقاومة التي أبداها الرؤساء المحليون ("الكاهنة" ، في جبل الأوراس) — ويضيف "أندرى ميكال" "فوجهوا (يقصد الفاطميين) نحو الغرب قبيلة عربية

.../...

(1) F.GOURGEOT:- " Situation politique de l'ALGERIE" PARIS1881, P 86 et suites.

(2) A.MIQUEL:- " L'Islam et sa civilisation " (7°- 10° siécle) ED/A. COLIN FRANCE 1977. P85 .

مناوئـة ، مكثـت في صعيـد "مـصر" — "بنـو هـلال" — الذيـن أنتشـروا فـي المغـرب ؛ وهـي أول حركـة للفتـح والـتي أستمـرت فيمـا بعـد : هـؤلاء تبعتهـم قبائـل آخـرى ، خاصـة بـني سليـم ، وبمـا انهـا آخـذت تتجـه نحـو الغـرب ، عـلى الحـدود الشماليـة للصحـراء فاءن الرحالـة العـرب ، وصلـوا حـتى الجنـوب "المغربـي" *(1)
وحسـب نفس المؤلـف فقـد بـدأ التمايـز يظهـر بوضـوح بـين بـذخ الدولـة المركزيـة ، وكادحـي الأرض ، أى شعـب أصابتـه المجاعـة يـرى بعينيـه قصـورا وكميـة هائلـة من الحلويـات تهدى للموظفين ، والأغنيـاء * (2) ، هـذه الأوضاع لم تكـن ضعيفـة التأثير على هـؤلاء "المهاجريـن" ، الذيـن كانـوا فـي مـصر ، مصدر الاضطرابـات والثـورات ، فهـم الذيـن أيـدوا "قرامطـة" البحريـن فـي ثورتهـم : وهـم الذيـن كانـوا قبـل القـرن الحـادى عشـر يكـثرون المناوشـات والاضطرابـات فـي شمـال شبـه الجزيـرة العربيـة ؛ فحولـوا كمـا عرفنـا الى صعيـد "مـصر" ، ثـم جـاءت الفرصـة مناسبـة لتهجيرهـم لحـل الأزمـة السياسيـة للخلافـة الفاطميـة ، ولقهـر الزيريـين فـي تونـس وكسـر شوكتهـم .

لـذا فهـو دخـول "ثانـي" لأراضـي المغـرب — أو افريقيـا — تجتمـع فيـه عـادة قديمـة متوارثـة وهـي "الغـزو" مـع الرغبـة فـي "الجهـاد" ، مـع الحنـين الـى البـداوة والترحـال في السهـب .

2) — <u>غزو بني هلال وبني سليم :—</u>

يـرى "الادريـسي" فـي أكـثر من موقـع ؛ أن البـدو من "عـرب" وبربـر ، اذا حـلوا بأوطـان خربوهـا ، وجعلـوا قوائـم مساكنهـا أرضـا ، ولـم تبـق منهـا الا الأماكـن ، والتي يعـاد ..... بناؤهـا من جديـد ، ولا ينسـى

.../...

(1) <u>A.MIQUEL</u>:- "L'Islam...."op.citée P196.

(2) Ibid P174.

أن يحدثنا عن تلك الصلة الوثيقة التي كانت قائمة في عهده بين الزراعة والرعي ، لدى عدد كثير من قبائل البربر *. فالى جانب تربية المواشي من غنم وبقر وحمير ، فانهم يمارسون زراعة الحنطة والشعير ، ويبدو أن الطور الذى عاش فيه الادريسي يمثل مرحلة تتسم بالتحام التل بالسهوب: فالتكامل الاقتصادى بين الرعي في السهوب ، وحتى في السهول ، والزراعة في باقي المناطق التلية خطا خطوات متزنة رغم الصراعات التي كانت قائمة بين القبائل "البدوية" ، التي تغير على بعضها في فترات معينة للنهب والسلب . ويبدو أن هذه الغارات كانت شديدة التأثير على النشاط التجارى وعمارة المدن *. وفي عهد "الادريسي" " لم تكن السهوب الجنوبية هي منطقة "الرعي" فقط ، وانما تشاركها حتى بعض المدن الساحلية ، وفي المرحلة التي ألف فيها كتابه ،"نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" فانه عاصر غزوات "بني هلال" ، و"بني سليم" ، والقبائل الاخرى ونقل ماقاست به هذه القبائل من تخريب وقضاء على عمران كان قائما ، وأراضي كانت تعتمد على "الرى" فيقول :— "... وكل هذه المنازل التي ذكرناها في هذا الطريق خلاء بلقع ، قد أتت العرب على عمارتها ، وطمست آثارها ، وأخربت عمارها ، وأفنت خيراتها ، فليس بها الآن أنيس قاطن ، ولا حليف ساكن . وهي مستباحة لقبيلة من العرب تسمى "مرداس" ، و"رباح"" * (1).

وهذا ما يوضح ضعف تأثير الحضارة الاسلامية في جانبها "الاعتقادى" وفي " الممارسة" على بعض القبائل العربية "الغازية"— — بني عامر مثلا — .

.../...

* (1) الادريسي :— "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" (المغرب العربي من كتاب (نزهة المشتاق) حققه ونقله الى الفرنسية محمد حاج صادق د.م.ج . وبلجيكا 1983 — ص19 — 20 — ص: 162.

3) — السمات الجغرافية — الاجتماعية :—

فطرية أم مكتسبة ؟ ، ايضاح السمات الجغرافية التي يتميز بها "المغرب" والسمات الأخرى التي كانت موجودة قبل هذا التهجير "الجماعي" ضروري لمعرفة مدى تأثير الهجرة على الظروف الجغرافية ، بفعل ادخال بداوة "العير" على "تربية الماشية"، وتقسيم واضح بين القاطنين والمرتادين ، ويحدد "(دوبلانهول") * (1) الاصالة الجغرافية لما كان يدعى بافريقيا — أى المغرب العربي— كمايلي :—

1) — اختلاف المغرب عن المشرق في كونه لا يحتوى على أودية كبيرة ، مثل "وادى النيل" ، أو "الدلتا" ، ومثل "وادي الرافدين" وانما توجد عدة أودية متفرقة هنا وهناك ، وهي صغيرة ، وليس هناك مناخ يساعد على قيام حياة الاستقرار ، وهذا مايثبت تقدم الحياة البدوية وتقهقر الوحدة السياسية ، البعيدة عن كل تصور .

2) — أستعمر المغرب من طرف القرطاجيين والرومان ، وفي العصر الحالي من طرف الاستعمار الفرنسي ، وهذا التأثير الخارجي هو مابين أصالة هذا "القطر" .

3) — كذلك فان كثرة السلاسل الجبلية ، والأطلس الكبير ، والأطلس الريفي ، والأوراس . . . الخ ، كلها لم تساهم في استقرار الحياة السياسية في السهوب ، لذلك يمكن ملاحظة أن أغلبية الدول والسلطنات قامت في السهول فقط أو بجوار السواحل والتي كانت بمثابة صلة وصل بين كل التأثيرات الغربية (الأجنبية) التي سيطرت على افريقيا الشمالية .

.../...

(1) X. DEPLANHOL:- "Les fondements géographique de l'ISLAM" ED/ FLAMMARION FRANCE 1968 , P124.

4) ـ أما في "تونس" : قبل الغزو وأثناءه ، أنكمش السكان على أنفسهم في أبراج الساحل الكبيرة ،وفي وسط غابة الزيتون ، وفي السهوب المنخفضة التي كانت أقل كثافة في السكان من الفترة السابقة ، وقد أخذ السكان في الانتقال من التشتت الى التجمع ، ولكن لاينبغي المبالغة في هذه التأثيرات والتغيرات : من حيث النهضة ،فقد بدأت في "القرن التاسع" الميلادى تحت حكم الأغالبة (800م ـ 900 م) ، ثم الفاطميين (909م ـ 973 م) ،ثم الزيريين (973م ـ منتصف القرن الحادى عشر م): لكن أختفت عدة مناطق مشعة كانت قائمة وراء أشجار الزيتون في الساحل ،فان السهوب المنخفضة بقيت منطقة كبيرة لزراعة الحبوب ... وتفوق تونس يرجع الى تأسيس مدينة "القيروان" مدينة "الاشعاع" و "الحرف" و"الاسواق" وهذا مايذكره الادريسي ايضا في "نزهة المشتاق" كما يبدو أن المناخ متماثل بين العهد القديم والعهد الحاضر ،فيذكر الباحث أن بعض الابار ،الرومانية مازالت مستعملة لحد الآن ، و أن السهوب والصحراء تعاني من الجفاف المرحلي منذ حقب طويلة .. ولم تتغير الا مواعيد الحصاد ، ولم يؤد ارتفاع سقوط الامطار دورا في التجميع السكاني وغير ذلك ،وكذلك لم يكن طرفا مساعدا في هذا التخريب الذى أثاره هذا الغزو ، فدوره لم يكن أساسيا في تعمير أو اخلاء مناطق معينة ـ ونفس الأمر بالنسبة لدرجات الحرارة (أشجار الزيتون مثلا ،تتطلب أرتفاعا في درجات الحرارة) التي لم تكن حاسمة في التخريب الذى ساد "المغرب" أو " افريقيا ... * (1) .

.../...

(1) X.DE PLANHOL:- "Les fondements ...."op.citée PP 131 et suites .

4) - الوضعية الاجتماعية "للمغرب" العربي " في القرن 14م :-

منـذ الهجـرات الأولـى الـى القـرن 14 م ، - فـي عهـد ابن بطوطـة ، وابـن خلـدون - كان المسلمـون رغـم خلافاتهـم ، وحروبهـم ، والتخريب الـذى أصاب العمران فـي بعض المناطـق يحملـون حضـارة منطلقهـا "الصحـراء" و "السهـوب" وقاعدتهـا "البـداوة" ذات الطابـع الرعـوى ؛ والـتي وجـدت فـي النـشاط التجـارى والحرفـي ، وفـي التطـور العلمي (حيـث سيطـر المسلمـون علـى هاتـه الانشطـة عـدة قـرون) مكمـلات لايستغـنى عنهـا فـي البنـاء الحضارى ومن هنـا كـان "ابن خلـدون" مرجعـا أساسيـا لكـل من يريـد دراسـة التاريـخ الاجتماعـي للمغـرب العربـي ؛ وأصبحـت أغلـب المـدارس الاستشراقيـة والغربيـة تريـد توظيـف أفكـار "ابن خلـدون" لخدمـة أغراضهـا الايديولوجية والعنصريـة ، ولأدل علـى ذلـك من سـوء استخدامهـا لكلمـة "عـرب"، و "أعـراب" والـتي لهـا دلالـة" ومعـنى محـدد لـدى "الادريسـي" و"ابـن خـلدون" ، .

أ) - ابن خلدون والقرن الرابع عشر :-

مـاذا يقـول "ابـن خلـدون عـن عـصره ؟

يقـول : " ... وأمـا لهـذا العهـد وهـو آخر المائـة الثامنـة ((القـرن 8 هـ)) ، فقـد انقلبـت أحـوال المغـرب الـذى نحـن نشاهـدوه وتبدلـت بالجملـة ، واعتـاض مـن أجيـال البربـر أهلـه علـى القـدم بمـن طرأفيـه من لـدن المائـة الخامسة ((القـرن 5 هـ)) من أجيـال العـرب بما كسروهـم وغلبوهـم ، وانتزعـوا منهـم عامـة الأوطـان ، وشاركوهـم فيمـا بقـي مـن البلـدان لملكهـم ، هـذا الـى ما نـزل بالعمـران شرقـا وغربـا فـي منتصـف هـذه المائـة الثامنـة من الطاعـون الجـارف الـذى تحيـف الأمـم ، وذهـب بأهـل الجيـل وطـوى كثيرا من محاسـن العمـران

.../...

ومحاها ، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها ، فقلص من ظلالها ، وفل من حدها ، وأوهن من سلطانها وتداعت الى التلاشي والاضمحلال أحوالها — وأنتقص عمران الأرض بأنتقاص البشر ، فخربت الأمصار والمصانع ، ودرست السبل والمعالم.

وخلت الديار والمنازل ، وضعفت الدول والقبائل ، وتبدل الساكن ، وكأن بالمشرق قد نزل به مثل مانزل بالمغرب ، ولكن على نسبته ومقدار عمرانه ، وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالاجابة :— "والله وارث الأرض ومن عليها ، واذا تبدلت الأحوال جملة ، فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره ، وكأنه خلق جديد ، ونشأة مستأنفة ، وعالم محدث فأحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليقة والافاق وأجيالها والعوائد والنحل التي تبدلت لأهلها ، ويقفو مسلك المسعودى لعصره ليكون أصلا يقتدى به من يأتي من المؤرخين من بعده " * (1).

أختيار هذا النص ، .. وبأكمله — لم يكن اعتباطيا ، وانما يعكس جوانب هامة من الحياة الاجتماعية في القرن (14م ، 8 هـ) هذا القرن يحتاج الى كشف أكثر ، ويبين فيه "ابن خلدون" التلاحم بين العرب والبربر الذين تجاوزوا مرحلة الصراع في القرن " 5 هـ " ، الى الملك الغالب بواسطة "العصبيات" ، ثم يتحدث عن مرض الطاعون الجارف على غرار حديثه عن الحرب ، ويبين كيف دمر العمران وخرب المدن ، وادى الى ذهاب الاجيال وانقراضها ، ويبرز ايضا أن الوقاية الصحية للبشر هي دعامة لنشوء الحضارة وتطورها ولا مجال للتذكير بأن الشعوب التي تتمتع بوسائل صحية

.../...

(1) ابن خلدون (عبدالرحمن) :— المقدمة" مطبعة محمد عاطف بمصر — — دون تاريخ — ، ص25 — 26 .

وطبيعة متطورة هي الشعوب الاكثر تحملا لعبء الحضارة حتى في هذا القرن (القرن العشرين)، وهذه العوامل السابقة كانت مساهمة في قطيعة على مستوى التاريخ "العالمي" الذى كان يمر بأزمة خطيرة على كل الأصعدة (السياسية، الاقتصادية الصحية .. الخ) لذلك فهو محتاج الى التجديد ،أى يحتاج الى قفزة جديدة تتخطى الجيل السابق ، وتنشيء جيلا جديدا ، وهذا مايظهر من قوله السابق ، الخلاصة هي أن أحوال عصره هي التي دفعته الى تدوين "المقدمة" وتأليف كتاب "العبر" في التاريخ ،وذلك لما لاحظه من تقلبات كثيرة ، وتناقضات لاحصر لها ، وتغير كبير في مجرى التاريخ ، وينبغي الأخذ بعين الاعتبار ،غلبة العالم البدوى وقوته في القرن 14م ، رغم غزوات بني هلال وبني سليم ثلاثة قرون قبل ذلك ، فقد تركت المراعي والأعشاب والقطيع ، وبالنسبة للرحل فإنهم جماعة قوية لها القدرة على السيطرة على العالم الحضرى ، اذا فالمرتحل يسيطر على السهب ، وحين يريد السيطرة على المدينة فإنه يفعل ذلك * (1) .

ونجد نصا آخر لابن خلدون: " فصل في آن المدن والأمصار بإفريقية والمغرب قليلة" ... والسبب في آن هذه الاقطار كانت للبربر منذ آلاف السنين قبل الاسلام ، وعمرانها كله بدويا ، ولم تستمر فيهم الحضارة حتى تستكمل أحوالها ، والدول التي ملكتهم من الإفرنجة والعرب لم يطل آمد ملكهم فيهم ، حتى ترسخ الحضارة منهنا ،فلم تزل عوائد البداوة وشؤونها فكانوا اليها أقرب ،فلم تكثر مبانيهم ، وأيضا فالصنائع بعيدة عن البربر لانّهم اعرق في البدو ، والصنائع من توابع الحضارة (...) وايضا فهم أهل عصبيات وانساب لايخلو عن ذلك جمع منهم والانّساب والعصبية أجنح الى البدو * (2) .

.../...

---

(1) W.BOUZAR:- " La Mouvance et la pause" op.citée P149.

* (2) ابن خلدون (عبد الرحمن) "المقدمة" مرجع مذكور ص: 268.

اذن فهذا النص " دليل تاريخي يدحض آراء المؤرخين "الغربيين" و"المستغربين" في التأكيد على التناقض بين "العرب" و"البربر" ، (رسوخ الأوائل في البداوة الرعوية ، ووجود حضارة ذات طابع فلاحي تمتاز بالاستقرار عند البربر) حيث يقرر "ابن خلدون" أن عمران أقطار المغرب كان عمرانا بدويا ، وأن هؤلاء البربر لم يستطيعوا انشاء عمران حضري ـ مع بعض الاستثناءات ، دولة بني حماد مثلا ـ نتيجة للغزوات المتتالية التي تقوض بوادر العمران .

ف) ـ البداوة والعصبية :ـ

وفي فصل آخر نجد عند "ابن خلدون " مايلي :ـ " واذا كانت الأمة وحشية كان ملكها أوسع" ... وذلك لأنهم أقدر على التغلب والاستبداد كما قلناه ، واستبعاد الطوائف لقدرتهم على محاربة الأمم سواهم ، ولأنهم يتنزلون من الأهلين منزلة المفترس من الحيوانات العجم ، وهؤلاء مثل العرب وزناتة ومن في معناهم من الأكراد والتركمان ، وأهل اللثام من صنهاجة" * (1) .

هذه ليست "اتهامات" بقدر ماهي تحليل موضوعي للواقع الاجتماعي ، فيما أن الدولة (الملك) في عصر "ابن خلدون" تحركها العصبية ، فلا شك أن أقدر الأمم على "الحرب" كانت الأمم البدوية لما فيها من شدة وبأس وقوة ومنعة ، وهذا مانعرفه عن " المغول" من خلال " ابن بطوطة ، ولذلك يلاحظ "ابن خلدون" في مواقع إخرى ان الحضر "يحتاجون" للبدو في مجال "الحماية" ودرء الخطر عنهم ، ولايخفى هنا تأثره بدعاة تأثير الظروف الطبيعية على سلوك وتصرف البشر وطبائعهم وسماتهم ، فالبدو طبقا لطبيعة أراضيهم .../...

* (1) ابن خلدون :ـ "المقدمة" مرجع مذكور ص: 109.

يعيشون حياة "شظف وحرمان " لذلك فهم يمتازون بالغلظة - بينما الحضر نتيجة لطبيعة المناخ مثلا ، يميلون الى حياة الرفه والدعة والرقة : بما توفر لهم من وسائل العمران وغاياته ، لكن رغم ذلك فاًن حاجة البدو للحضر، وحاجة الحضر للبدو تقوم على توازن معين ..." اذا كان "ابن خلدون" قد لاحظ بأن البدو يحملون الاسلحة ، ومستحديين للانقضاض على كل قافلة ... الخ ، فاًنه يقرر أن البدو ماداموا في البادية ولم يحصل لهم ملك ولا أستيلاء على الامصار ، فهم محتاجون الى أهلها ، ويتصرفون في مصالحهم وطاعتهم متى دعوهم الى ذلك وطالبوهم به " * (1) ، فحاجة "الملك" الى البدو هي حاجة "ظرفية" أو "انتهازية" ؟ وذلك مقابل أستعمال سواعدهم للحرب ، وتكريس الغلبة على غيرهم ، والحضر يتحملون البدو طبقا لامور يجهلونها مثل " الطرق" و "الاماكن" و "مراكز المياه " والمنتوجات "الرعوية" ... أما البدو فيحتاجون الحضر في المعاملات التجارية وفي الصنائع والحرف .. نجارة ، حدادة ، لكن رغم هذا التعاون المصلحي ، فاًن الاختلافات تظهر على السطح من حين لآخر ، وذلك حين تكثر العصبيات وتتصارع ، فيكون "الحضر" هم أول من يدفع الثمن ، وهذه الاحتياجات ، والمصالح، هي التي كانت وراء المكانة التي حظي بها شيوخ بعض القبائل أو الشرائح القوية .

يقول "ابن خلدون" في فصل آخر: "أن جيل العرب في الخلقة طبيعي" "وأما من كان معاشهم في الابل فهم أكثر ظعنا وابعد في الفقر مجالا (..) فكانوا آشد الناس توحشا وينزلون من الحضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من

.../...

* (1) ابن خلدون: "المقدمة" مرجع مذكور ص : 115.

الحيوانات العجم وهؤلاء هم العرب وفي معناهم ظعون البربر وزناتة بالمغرب والاكراد والتركمان والترك بالمشرق ،الا أن العرب أبعد نجعة وأشد بداوة لانهم مختصون بالقيام على الابل فقط ، وهؤلاء يقومون عليها وعلى الشياه والبقر معها ، فقد تبين لك أن جيل العرب طبيعي لابد منه في العمران والله سبحانه وتعالى أعلم *(1).

لكن يبدو أن المجال المغربي ،كان مختلفا عن سهوب آسيا الوسطى ، الذى لم يشهد وجها بدويا "كتيمورلنك" الذى عاصره ، "ابن خلدون" ، أو "جنكيز خان" أو غيرهما من البدو الذين أقاموا أمبراطورية واسعة ذات طابع "بدوى" والتي استطاعت أن تضم بعبقرية خاصة "المدينة" و "التحضر" في اطارها ... وهذا الحدث التاريخي "الخاص" لم يظهر كما يقول "وديع بوزار" الا في عهد الأمير عبدالقادر ، الذى يعتبر شخصية بدوية أسست دولة "منظمة" ،لكن يتدارك بقوله " أن الاختلاف بين "تيمورلنك" والأمير عبدالقادر أربعة قرون ولهذه المدة الزمنية أهميتها *(2) نعود الى "ابن خلدون" أيضا الذى يوضح أن جدلية "العصبية" تتغلب على جدلية "الملك" ، وهذه خاصية مغربية : "فصل في أن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل أن تستحكم فيها دولة":

" والسبب في ذلك اختلاف الآراء والأهواء ،وأن وراء كل رأى وهوى عصبية تمانع دونها ، فيكثر الانتفاض على الدولة والخروج عليها في كل وقت ، وان كانت ذات عصبية ، لأن كل عصبية

.../...

* (1) ابن خلدون :"المقدمة" مرجع مذكور ص : 92.

(2) W.BOUZAR:- " La Mouvance " op.citée P123.

ممن تحت يدها تظن في نفسها منعة وقوة ، وأنظر ماوقع من ذلك بافريقية والمغرب منذ أول الاسلام ولهذا العهد، فان ساكن هذه الاوطان من البربر أهل قبائل وعصبيات ،فلم يغن الغلب الاول الذى كان لابن ابي سرح عليهم (..) وهذا معنى ماينقل عن "عمر" أن افريقية مفرقة لقلوب أهلها اشارة الى مافيها من كثرة العصائب والقبائل الحاملة لهم على عدم الاذعان والانقياد (....) والبربر قبائلهم بالمغرب أكثر من أن تحصى وكلهم بادية وأهل عصائب وعشائر، وكلما هلكت قبيلة عادت الأخرى مكانها ، والى دينها من الخلاف والردة ،فطال أمر العرب في تمهيد الدولة بوطن افريقية والمغرب " * (1).

فالصراع صراع "عصبيات" ،وكل عصبية مغلوبة تترك مكانها للعصبية الغالبة ؛ وهذا لم يكن مقصورا على العرب والبربر، وانما عم عدة أمم ذكرها "ابن خلدون" في مواضع متفرقة ... وأستحكام "الدولة" لايكون فيها كما مر ، وانما على العكس من ذلك فان الدولة تتدعم بالعصبيات لبسط نفوذها ، وتوسعها والقضاء على دولة أخرى "مناوئة" ، والتاريخ الاجتماعي للمغرب العربي له أكثر من دليل على ذلك : مثل أسلاف هذه الاتحادية الذين يقال بانهم حظوا بمكانة مرموقة ، وبأراضي واقطاع لمساندتهم للدول القائمة آنذاك .

ولهذا فان الدولة "المركزية" سواء كانت بربرية أو عربية ؛ تلجأ الى العصبية القوية وتتحالف معها دون الاهتمام بأصلها أو بعرقها ... كل هذه الامثلة تفند ثانية تلك النظريات التي

.../...

* (1) ابن خلدون :ـ المقدمة مرجع مذكور ص : 123 ـ 124.

كانت تزعم بتعارض كبير بين "العرب" و"البربر" ...
واذا كان البربر أقوى من الناحية الديمغرافية في عهد " ابن خلدون" ـ رغم ماهز المغرب أنذاك من أوبئة ... الخ ، فما الذى جعل "العرب" أكثر أنتشارا ؟.

هذا يؤكد الفرضية ـ التي تعتمد على أفكار الاوربيين وافكار مفكرينا المعاصرين "عبدالمجيد مزيان" ـ بأن اللغة او اللهجة ليست دليلا كافيا على الانتماء "العرقي" ، والذى يؤكد ذلك هو أن بعض القبائل العربية أصبحت بربرية بالمجاورة ، وبعض القبائل البربرية "تعربت" بالمجاورة نتيجة لنفس التأثير ، والاختلاط في الانساب كما يوضح "ابن خلدون" ، يمكن ان تتصفح "الفصول" الاخرى ، التي تغني عناوينها عن تفاصيلها ، وهاته العناوين عبارة عما نسميه اليوم " فرضيات "، والتي يمكن أن ينتزع منها كل مايشوبها من أفكار مسبقة بالاستناد على "الشروح" السابقة .

لكن فائدة ومعاصرة "المقدمة" تبرز فيما يوضحه لنا المؤرخ عبدالله العروى ، أنها كانت عرض حال للقرن "الرابع عشر م" ، أكثر مما كانت تبحث عن الاسباب الخفية . فتحليله كان يتعلق "بالنسق" أكثر من تحليل "أصل" هذا النسق ، وهذا ماقاله في كتابه "تاريخ المغرب " * (1).

د) ـ قراءة المقدمة: "أحكام وتقييم" ؟

أما "وديع بوزار" فيلاحظ: "ان قراءة المقدمة تؤكد وجود عملية تطور في المغرب: كباقي المجتمعات الاسلامية بين المدنية

.../...

(1) A. LAROUI:- " L'Histoire du Maghreb " T:1 op.citéeP206.

والقرى وفي حالات من التوازن ، والتكيف المتبادل ، تتسم كل الحضارة العربية والاسلامية ، وتحدد بالظاهرة البدوية ، وبالحدث البدوى ، وبعد ست قرون فائن الجزائر المستقلة تأخذ بعض معتقداتها وسلوكها من "العمران البدوى" ويستطرد في تحليل الوضع الحالي وكذلك فلابد لها من حل مشكلة "عالم سهبي" مخلخل ومتقهقر (...) وعدد من عناصر الوصف والتحليل لدى " ابن خلدون" تجدها تحافظ على فائدتها ، ومعاصرتها للواقع الاجتماعي الحالي للمجتمعات المغربية فتحليل "ابن خلدون" مازال ذو دلالة ومعاصر ، وهذا على خلاف مؤلفين في مراحل بعيدة ، وهذا مايعطي له طابعا سوسيولوجيا " * (1) .

وهذه الآراء ذهب اليها ، أو اقترب منها كثير من المفكرين الحاليين :ـ "الاكوست" ، و"عبدالغني مغربي" ، وغيرهما .. وعارضها بشكل حاد عبدالقادر جغلول :ـ "اذا كان مفهوم مثل مفهوم "العمران" لا يزال بسبب عموميته الكبرى قادرا على الفعل في درس المجتمعات الراهنة ، فائن آغلبية المعاني الخلدونية تكون منتجة لكي تعيد النظر في الوقائع الاجتماعية المؤرخة ، والتي لاتوجد اليوم الا في حالة "أثرية" ، ولكي يدرك الديناميكية الاجتماعية لعصره ، أبدع "ابن خلدون" مفاهيم العصبية ، والبادية، والحضارة .

(هذه المفاهيم لاتستطيع في الوقت الحاضر أن تفسر سير وحركة المجتمع الجزائرى) * (2) " بالتشديد " .

هذا عن الوضعية الاجتماعية/السياسية للمغرب العربي في عهد "ابن خلدون ، ومنها "تونس" التي كان يقطن بها آسلاف هاته الاتحادية في القرن 14 . وبالفعل فقد تأثروا بمختلف هاته

.../...

(1) W.BOUZAR:- " la Mouvance ...." op.citée P150.

* (2) جغلول (ع):ـ الاشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون ترجمة د /فيصل عباس ، دار الحداثة .د .م.ج الجزائر 1981ص88

الظـروف والمعطيـات لكـن يطـرح تـساؤل هـو:ـ لمـــاذا نلاحـــظ أستمراريـــة فـي الانتسـاب الـى جـد معـين عـبر قـرون عديـــدة ؟ .

3) ـ نسب أولاد سيدى الشيخ :ـ

يذكـر عبدالمجيد مزيـان ، في كتابـه الذكـور سابقـــا أستنـادا الـى "ابـن خلـدون" أن انتمـاء القبيلـة الـى جـــد وهمـي ، ماهـو الا "تصـور ضـرورى لتدعيـم الكيـان الاجتماعـي". مـثل ذلك :ـ حينمـا يتحـدث " ابن خلـدون" عـن (أسـلاف) ذاتـه الاتحاديـة ،أولاد سيـدى الشيـخ :ـ فحسـب زعـم/كورجيـه :ـ " يرجـع أولاد سيـدى الشيـخ ،أصـل سلالتهـم لابـي بكـر الصديـق ، الصديـق الوفـي للنـبي ، الذى خلفـه بعـد موتـه ، هذا الادعـاء لاتدعمـه حجـة أكيدة بل بالعكـس ،فابـن خلـدون مؤلـف. تاريـخ (البربـر) يبين فـي المقدمـة أن بـني سعـد شيـوخ بـني يزيـد شريحـة من شرائـح زغبـة ، والـتي ينحـدر منهـا أسـلاف "سيـدى الشيـخ" يدعـون انتسابهـم قبـل أبـي بكـر الصديـق " * (1).

يقـول ابـن خلـدون : " ومن هـذا البـاب مايدعيـه بنوسعد شيـوخ بـني يزيـد من زغبـة بانهـم من ولـد ابـي بكـر الصديق"*(2).

ثـم يضيـف "كورجيـه " :ـ " أن هـذا الادعـاء لاتبريـر له لانه خاطـيء آساسـا ، من دون شـك انهـم من شبـه الجزيـرة العربية، وأنهم كانـوا فـي حملـة "الغـزو" الثانيـة التي نعرفهـا فـي منتصـف القـرن الحادى عشر ميلادى " * (3)

---

(1)F.GOURGEOT:- "Situation politique de l'Algerie" PARIS 1881P30. (1) *

* (2) ابن خلدون (عبدالرحمن) "كتاب العبر " الجزء الاول" دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ لبنان 1977 ص : 234.

(3)F.GOURGEOT:-"Situation politique ..." op .citée P30 .

وفي "المقدمة" نجد :ـ "لما فشل ريح زناتة وجاش بحر فتنتهم مع العرب ، استبد بنو يزيد هؤلاء بملكة تلك الأوطان ، وغلبوا عليها من جميع جوانبها وفرغوا لجبايتها ، واقتضاء مغارمها ، وهم بطون كثيرة فمنهم حميان بن عقبة ... ثم صارت ـ الرئاسة ـ في بيت سعد ابن مالك بن عبد القوى بن عبدالله بن سعيد بن محمد بن عبدالله بن مهدى ابن يزيد بن عيسى بن زغبة ، وهم يزعمون بأنه مهدى بن عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق ، نسب تأباه رئاستهم على غير عصبتهم ، وقد مر ذلك قبل ..." وكان أحلافهم فيما تقدم بنو عامر بن زغبة يظعنون معهم في مجالاتهم ويظاهرونهم في حروبهم " * (1) التعليق على ماذكره "ابن خلدون" يتلخص فيمايلي :ـ

ان النسب الذى يورده "لاكروا" بالاستناد الى شيوخ من " أولاد سيدى الشيخ "، وشجرة النسب التي توجد بالمغرب الأقصى ، تختلف عن تسلسل النسب الذى أورده "ابن خلدون" .. ومن المعروف أيضا أنهم كانوا يدعون "بالبوبكرية" قبل وجود "سيدى عبدالقادر" المدعو " سيدى الشيخ" ، وهذه التسمية لا نجدها في الآثار ... أو يحتمل أن يقصد " ابن خلدون" شريحة أخرى تحمل نفس الاسم .. لأن كورجيه هو الذى يحيلنا الى " ابن خلدون " ، وقد يكون ذلك من باب التمويه والمغالطة خاصة اذا عرفنا المرحلة التي كان يمر بها الاحتلال آنذاك .

.../...

* ابن خلدون :ـ "كتاب العبر" الجزء الحادى عشر" نفس الطبعة ص88، 89

ثم يلاحظ "جينار" :ـ "بعد طردهم من مكة في المراحل الاولى للاسلام ، نتيجة للفوضى التي أحدثوها ، فانهم تغلغلوا في الغرب ، وكانت محطاتهم الاولى "مصر" ثم توجهوا الى تونس : وكانت الديار التونسية تعاملهم بأعتبار كبير، وذلك طبقا للاصل الذى يدعونه ، ويكلفونهم بجزء من السلطة، واذا صدقنا أولاد سيدى الشيخ ، فان آباءهم كانوا يمارسون السلطة السامية في هذا البلد ، (لكن هذا الزعم لم يكن له أساس ، فقد مكثوا (عدة سنين) . وكانوا يحتلون مناصب عالية ، ولم يخرجوا الا في القرن (الرابع عشر) " * (1) ليتوجهوا نحو الغرب " (* (2) .

وفي هذا الاطار يمكن أن نقول عن حاضر هذه الاتحادية وماضيها ، مايقوله عبدالمجيد مزيان : " ولقد عرفنا عبر التاريخ عصبيات تبرز في مظهر قبيلة موحدة ، وهي في الحقيقة تكتلات سياسية مثلما كان الشأن في قبيلة "كتامة" بالمغرب ، أو قبائل "الانصار" بالاندلس ، (...) فالنظام القبيلي يختلف اذ بحكم الظروف السياسية التي توسعه وتعطيه حركية خاصة"* (3).

2) ـ الهجرة الى الجزائر واستقرارهم بها :ـ

لقد وجدوا في تونس في القرن "14"م . وبما أنهم أرغموا على ترك هاته البلاد . اتجهوا نحو الغرب في بداية القرن "15م" . "سي محمر بالعالية"، (سي محمر بن سليمان بالعالية) ، كان رئيس "البوبكرية" ، يتبعه عدد من الخدام . قطن نهر قبيلته ،

* (1) بين ( ) :ـ أخطاء ، فهم لم يمكثوا عدة سنين وانما بين./... القرن 11م ـ 14 ـ وتوجهوا نحو الغرب في القرن 15م . . كذلك يظهر بعض التناقض في حديثه .

* (2) GUENARD:-"Les OULED SIDI CHEIKH" InBulletin de la Sté de géograhie et d'archéologie d'ORAN 1882 P:329.

* (3) عبد المجيد مزيان :ـ "النظريات.." مرجع مذكور ص177 ـ 178 .

وكشاهد على أصالة ذلك نجد أضرحة رؤساء "البوبكرية"، "سي عيسى" ؛ ثم "سي بلحيا" ؛ ثم "سي أبو ليلى" ؛ ثم "سي بوسماحة" * (1) ، فأول من حفظ الاهالي ذكره هو "سيدى محمر بالعالية" الذى قلنا بأنه ترك "تونس" ، واقام في "اربوات" التي دفن بها ؛ وقبره مازال محل احترام شعبي؛ اما آخر احفاده ، وهو "سيدى سليمان بن بوسماحة" الذى توفي بمصر فتوجد قبته بجوار قصر "بني ونيف" ، وينسب اليه أهل "فجيج" كرامات ومعجزات كثيرة وقد ترك "سيدى سليمان بن بوسماحة" أبنين ، وبنت :ـ "سيدى محمد بن سليمان" الذى توجد قبته بقصر "الشلالة" الظهرانية" ، جنوب غربي "البيض"، و"سيدى أحمد المجدوب" الذى دفن بقصر "عسلة" ، والذى ينحدر منه "أولاد سيدى أحمد المجدوب" أو "المجاديبة" (اختصارا): وهو الذى ينسب اليه نفي "بني عامر" من هاته المنطقة ، مازال يحتفظ بذكرها المنحدرون من هاته القبيلة لحد الآن ، وقد ترك هذين الشخصين أخوتهما "بفجيج" وتوجها نحو الشرق (عسلة ،الشلالة)، " لالا صفية " ، رئيسة قصر "صفيصيفة" ، والذى توجد به قبتها، وهي أم " أولاد نهار" ، وقد تزوجت من شريف جميل الوجه يدعى "النهار" ، وأتجه بأبنه للتل ؛ والذى أصبح أصل فرع "أولاد نهار"، أنجبت منه طفلا يدعى "يحي" ؛ وبموتها دفنت "بصفيصيفة" أولاد "النهار" هم المنحدرون من يحي الذى توجد قبته في ربوع " أولاد نهار" غير بعيدة من "سبدو" ؛ و"أولاد نهار" لايقومون بخدمة "أولاد سيدى الشيخ" بل يناصبوهم العداء ـ يقول المثل العربي : "ان الشر لايستفحل الا ببلوغ ابن الأخت سن الرشد"؛والاهالي

.../...

(1) LAMARTINIERE, LACROIX:- "Documents pour sérvir à l'étude sur le NORD-OUEST AFRICAIN " T:2 FRANCE 1896. P 759.

لا ينسون ذكر هذا المثل كلما ذكر أولاد نهار ، و " أولاد سيدى الشيخ " ... كما يذكر أن "سيدى الشيخ" أجاب الوفد الذى سعى للصلح بينه وبين أبناء عمته "أولاد نهار" :- " في الحقيقة لن أسالم أولاد نهار ، حتى يسالم الليل النهار، والماء النار، والقط الفأر" * (1) .

"سيدى الشيخ" المدعو "سيدى عبدالقادر بن محمد ، ينحدر من الابن الاول لسيدى سليمان بن بوسماحة . فهو الذى أسس قوة هاته العائلة ، وهاته القوة التي انتقلت من جيل الى جيل بصورة غير منقطعة تؤكد على أصلها المباشر ، وليس لها أى حق أو قوة أو قاعدة أو دعم الا ذلك الاسم الفاضل وعفة هذا الشخص الذى أنشأ هاته العائلة ولد هذا "القديس" في (951 هـ / 1545م) : وتوفي في (1035 هـ/1630 م) ، بدأ تعلم القرآن الكريم في السابعة من عمره حينما قاده والده الى الشيخ "الحاج بن أعمر" مؤسس القصر ، الذى يحمل اسمه فيما بعد ، وبعد ذلك تتلمذ على الشيخ "عبدالجبار" الذى له مقام في الشلالة الظهرانية .. ودرس في المدن الكبرى بالمغرب ، وتجول في عدة بلدان ، ومكث في عدد من الزوايا : بعد قضائه عدة سنوات لتعميق مذهبه الصوفي لدى "سي محمد بن عبدالرحمن الساحلي" فانه زار "توات" ، و " تافيلات " ، ثم "فاس" ، و "عين ماضي" حيث تزوج بسعدة بنت الحراث .. ثم توجه الى "مغرار" التي لم يمكث بها طويلا .. وعاد الى "الابيض " حيث أسس "الزاوية" ، وأصبح منذ ذاك الحين يحمل اسمه * (2) .

.../...

(1) F.GOURGEOT: - "Situation politique de l'Algerie" op.citée P 32- 33 .

(2) LAMARTINIERE , LACROIX:- "Documents ..." op.citée PP760- 763.

في هذا القرن يلاحظ "الحسن بن الوزان " . المسلم الذى تنصر وأصبح يدعى "ليون الافريقي" أن : "بني سعد يسكنون الصحراء ، ويصلون الى مملكة تنس ، ولهم شهرة كبيرة ، وسلطة واسعة ، ويعطيهم ملك تنس اعانات : فهم نبلاء شجعان ولهم كل مايحتاجونه .. " * (1) ، وتضيف "غرودى" . أن (أسلاف) أولاد سيدى الشيخ دخلوا الى هاته المنطقة في القرن الخامس عشر "م" ، واختلطوا مع هاته القبائل التي كانت كثيرة ومتعددة ، وذات أصول مختلفة "أولاد ميمون" أولاد عمران ، أولاد زياد ، الانبج ، اولاد ناصر ، أولاد حمزة ـ أهل عقيل ، الأرباع ، الاغواط ، كسال ... الخ ، وأخذت العلاقات بين هذه القبائل ، وشرائح "العمور" و "بني عامر" تتوطد .. وطبقا لأنها سبقت هاته الشريحة في التوطن بهاته المنطقة ، فانها كانت تتنافس في التحالف معها ، ومصاهرتها ، وتكريمها طبقا لشرفها الرفيع ، ونبلها .. لكن هذه المرحلة أيضا كانت تمتاز بالصراع ، والفوضى . والتناحر القبيلي ، والاغارات المستمرة ، والغزو والنهب ، أى الرجوع الى نفس الصراع الذى كان يسم القبائل العربية في المرحلة ماقبل الاسلامية وانتقلت السيادة من قبيلة الى أخرى ، وأخذت الأحلاف تتقوى والفوضى تعم ، وأخذت القبائل المهزومة تترك تباعا هاته المنطقة وتتجه نحو التل في مراحل معينة . أو تتجه نحو الجنوب الغربي اين يتوفر حد معين من السلام * (2) كان "الباب العالي" والسلطة العثمانية تأخذ من قبائل "الرعية ضرائب عن طريق المخزن" في التل خاصة .

.../...

(1) LEON L'AFRICAIN:- " Déscription de l'AFRIQUE" traduit de l'Italien par EPAULARD, MONOD,MAUNY - Maison Neuve PARIS 1956. P29.

(2) MATHEA GAUDRY:- "La société Féminine au DJbel AMOUR et au KSEL " S.A.I.D ALGER 1961

ومن المعروف تاريخيا أن اتحادية "أولاد سيدى الشيخ" ، وحتى "قبائل حميان" كانت تتمتع بالاستقلال عن الباب "العاملي" ، وعن بايلك الغرب ، بل انها كانت تدفع قدرا يسيرا من الضرائب والاتاوات بل تعفى في بعض الأحيان طبقا لنفوذها الديني لابد من ذكر مسألة هامة في مرحلة ماقبل التغلغل الاستعمارى ، وهي البديهية التي ذكرناها سابقا بأن التزايد الديمغرافي للشريحة أو القبيلة أو حتى "الاتحادية" لاينتج مباشرة من المنحدرين من الجد الواحد ، وانما من القبائل "التابعة" التي تنتسب الى قبيلة "الاشراف" ، أو من "الولاء" الذى لم ينقطع تاثيره واهميته منذ مرحلة ماقبل الاسلام ، حتى عهد قريب جدا . أيضا ، يمكن أن تضم هاته الاتحادية شرائح أخرى ، والتيكانت موزعة على كل بقعة من بقاع المغرب العربي .. فهم ليسوا افرادا منعزلين ، وانما يتوزعون كشرائح في التل الجزائرى ، وقد ذكر البعض ، أنهم كانوا في ضواحي توزر ، وفي نفطة بتونس (بلاد الجريد) ، وفي المغرب الاقصى ، ويوجد بعضهم في عين صالح ، والمنيعة ، وتينركوك وهاته الشرائح تتسم بعلاقات وطيدة ، وتطيع كل الضغوط السياسية التي يمليها رئيسي الفرعين المتنافسين (الشراقة ، والغرابة) .

3) ـ بداية تفرع الاتحادية الى قبائل وشرائح :ـ

بدأ تفرع هاته الاتحادية القوية من أولاد سيدى الشيخ "الشراقة" و "الغرابة" ، الى شرائح متنافسة ، ومتعادية في بعض الأحيان لأسباب سياسية ، فهل هذا "العداء" كان موجودا قبل التغلغل الاستعمارى أم انه كان من عمل ، ونسج الاستعمار أم يرجع أساسا الى الصراع على "الزعامة" .

.../...

لقد خلف "سيدى الشيخ" كما يذكر النسابة "ثمانية" عشر ولدا ، (أنظر التنظيم السلالي للعرش في "الملحق")... لا ينبغي التفصيل فيما يتعلق بالكرامات التي تنسب لهؤلاء "المرابطين" لأنه ليس مجال موضوعنا ، بقدر مانهتم بما تركته هذه الكرامات من آثار على تسمية بعض الأماكن ، أو الحوادث التاريخية . فتنسب الى "سيدى الشيخ" وأبنائه ، و (عمه) ، وأجداده : كرامات لاحصر لها ، والتي تقترن في كثير من الأحيان بأعمال أنبياء ، أو ملائكة ... الخ ، مثلا ماذكر عن "سيدى الشيخ" الذى اختلف مع أبناء عمه (سيدى أحمد المجدوب) في حادثة معينة ، ومما قال لهم : "أذهبوا ، فلن يصبح منكم غازي ولا حاكم " ... أما ماينسب الى عمه "سيدى أحمد المجدوب" الذى اختلف مع أحد جبابرة "بني عامر" * (1) يدعى عبد الحق . في حادثة يعرفها "الاهالي" فدعا عليه وعلى قومه قائلا :- " سوف تموت يا "عبد الحق" ، وأرضنا ترفض أن تحمل جثتك أما أنتم يا (بني عامر) فإن الله سوف يصيبكم ليوم عظيم ، وظما شديد : أما أهاليكم فيصيبهم الهلع . ويهربون مولين "الادبار" وسوف يصلون في يوم واحد من منبع "المصيف" الى مخيماتهم الصيفية بتاسلا ، ويذكر أن عبد الحق توفي بعد أمراض وأوجاع أصابته ، وكثر الصراخ والضجيج في ربوع القبيلة ، وأخذت كل عائلة في ثني خيمتها استعدادا للرحيل نحو الشمال وحملتها ووضعتها على ظهر "الحمير" . وهربت نحو الشمال دون انتظام ، وبما أن الأمر كان سريعا جدا ، فإن بعض الأطفال الذين كانوا يلعبون في ظل جرف من الأجراف نسيوا من طرف أوليائهم وماتوا جوعا ، ومن ثم سمي بجرف "الاطفال" وهو يوجد بضواحي "مفرار" كما أن "كدية عبد الحق" موجودة بالقرب .../...

*** (1) مع الاشارة الى أن "بني عامر" أستقدمهم "معمر بالعالية" معه كما ذكرنا سابقا . وكانوا يقطنون المنطقة فعلا ، ومازالت آثار مساكنهم بالقرب من "عسلة" دالة عليهم .**

من قصر الشلالة ... هذا فقط للتذكير بأن الحجج المادية متوفرة رغم أن "الحدث التاريخي" مبالغ فيه ، لكن المنحدرين من "بني عامر" ، و"المجادية" يؤمنون به ويصدقونه *(1) هذا الحدث يشبه الدعاء الذى سلطه نوح على قومه (القرآن سورة نوح ، الآيات 26 ، 27) (سورة الحاقة ، الآيات 6 ، 7 ، 8) .

اذن ، يمكن ان نعطي سببا آخر لتفرق الشرائح ، والعشائر والقبائل الى سوء التفاهم بين قبيلة أو أخرى ؛ أو بين الشرائح ، أو خلافات عائلية ، أو نزاعات حول الزعامة القبلية ، أو مسالة تتعلق بالنسب ... مثلما وقع لأولاد نهار "أبناء عمة" أولاد سيدى الشيخ ؛ وقدمو علينا ذلك حيث طلب أولاد نهار من أمهم "الاصفية" أن تغادر المنطقة ، ويستقلون عن أبناء "سيدى الشيخ" لأنهم "أشراف" من حيث نسبهم العريق من جانب أبيهم "النهار" ، ثم أن الخلاف الذى نشب بين "سيدى الشيخ" وأبناء عمه هو الذى يرجع هجرتهم الى عسلة : حيث يوجد ضريح عمه "سيدى أحمد المجدوب" ، وضريح ابنه "التومي" ، وأضرحة أبنائهم الذين تفرعت عنهم شرائح كثيرة ... لكن لاينبغي المبالغة في هذه الخلافات "فأم سيدى الحاج بوحفص" الذى تفرع عنه أولاد سيدى الشيخ "الشراقة" هي "بنت سيدى أحمد المجدوب" كما يروى النسابة ، وهنا مايفسر انضمام شرائح كثيرة من "المجادية" الى "الشراقة" : لكي نعرف خلفيات التحالف في أى مرحلة من المراحل لابد من العودة الى العلاقات "القرابية" "الدموية" أو الى "علاقات السيادة" ، القائمة بين قبيلة المرابطين ؛ والقبائل التابعة.

.../...

---

(1) F.GOURGEOT:- " Situation Politique " ..op. citée PP50-52.

تفرع "أولاد سيدى الشيخ" الى عدة قبائل ، كما ذكرنا سابقا ، وتمتد شرائحهم من المغرب الى تونس (من فقيق الى "بلاد الجريد") : مع التأكيد على مسألة "الولاء" التي ذكرناها سابقا ؛ والقبائل التابعة التي تجعل هذا التزايد الديمغرافي ممكنا ، وهذا العدد من السكان صحيحا ، لذلك فتغلغل وانتشار أولاد سيدى الشيخ في كل المناطق يجعل الاهالي يحملون انطباعا معينا ؛ وهو تشبيه هاته العائلة ، بنخلة كبيرة يمتد جذرها وجذعها في الصحراء ، وتمتد أفنانها حتى التل ؛ ويمكن الاحساس بنشاطهم في كل مكان ، حيث أن للمنحدرين منهم الامر والنهي ، طالبين ومطلوبين * (1) .

فانتشارهم هذا يجعلهم يقيمون علاقات مع القبائل المجاورة في كل منطقة يقطنونها ، والتي تمنحهم نوعا من الاحترام و "التقديس" نتيجة للاصل الذى ينتسبون اليه .

فأولاد "سيدى الزروقي" (أحد أبناء "سيدى الشيخ") يقطنون بجوار "عين تموشنت" ، والقبائل الموجودة في هاته الجهة تحاملهم باعتبار ، و "أولاد سيدى الحاج بحوص" الابن الثاني يتوزع أبناؤه على ضواحي "الابيض سيدى الشيخ" ووصلوا الى جبل عمور والاغواط ومتليلي الشعانبة ، ومن خلال الرواية الشفوية اكتشفنا وجود شرائح أخرى تنتمي "بالولاء" لسيدى الحاج بحوص ، رئيس فرع "الشراقة" ، مع انها تنحدر من القبائل المجاورة مثل أولاد زياد ... وغيرها ..

.../...

(1) F.GOURGEOT:- "Situation Politique ..." op. citée P34.

وأولاد "سيدى الحاج عبدالحاكم" ، الذى ينحدر منه "الغرابة" الذين يتوزعون على القصر الغربي ؛ و"بني ونيف" ... الخ .

أما "سي بلحسن" يوجد ضريحه في ربوع "أولاد نهار" .. أما "الحسن" والحسين" ، فلم يتركا خلفا ، "عبدالرحمن" يوجد ضريحه لدى "الرحامنة" ، ويعيش المنحدرون منه مع أولاد بلاغ (في الضايه) ، ومع "أولاد ميمون" ، ضواحي جبل عمور ، سيدى الحاج "محمد بن عبدالله" ، يوجد ضريحه في الابيض ؛ ويقطن المنحدرون منه في المغرب الاقصى ، وفي "تابلكوزة" بقورارة ، أما "أولاد سي مصطفى" الذى دفن في الأبيض فيوجد قسم منهم في عين تيموشنت ؛ والقسم الآخر في "ولهاسة" بجوار "رشقون ، أما أبناء "سيدى محمد" بن الشيخ الذى دفن في الأبيض فان المنحدرين منه يقطنون بعين صالح ، وتوجد شريحة بالقرب من "عين تيموشنت" ، أما سيدى بن عيسى (العايب) فقد دفن "بفقيق"؟ يخيم قسم من المنحدرين منه مع "بني غيل" ؛ والقسم الآخر مع "ذوى منيع" ، أما "أولاد سيدى التاج" ؛ فيوجد المنحدرين منه "بفقيق" ، ومع "العمور" ، وبين "مقرار التحتاني" ، و"مقرار الفوقاني ومن "أولاد سيدى التاج" ينحدر "بوعمامة" ، قائد انتفاضة 1881م : الذى سوف نتطرق اليه فيما بعد من فرع "أولاد الحرمة" .

أما "أولاد سيدى بولنوار" الذى دفن بمتليلي ، فيوجد المنحدرون منه بعين صالح ، وتيكيدلت .. أما أبناء "سيدى الحاج الدين" فهم أكثر أنتشارا بين مختلف المناطق في الصحراء والتل ، أما أولاد "سيدى الحاج ابراهيم" فقد دفن بمقرار التحتاني ؛ ويتوزع المنحدرون منه بين المغرب الاقصى و"بني غيل" - أما أبناء

.../...

"سي المدني" فهم يتوزعون على "البرابر" بين "ولهاسة" وأولاد خالفة ، أما أولاد "سيدى الحاج أحمد" آخر أبناء سيدى الشيخ ، والذى دفن بجوار أخيه "عبدالحاكم" فيتوزع المنحدرون منه :ـ "أولاد بوعسرية" ، وأولاد "سيدى المازوزى" على ضواحي الابيض، هذا بدون ذكر المنحدرين من اخوة "سيدى الشيخ" الذين يدعون "بالزوى" ، أى المنتمين "للزاوية" ـ وهم :ـ "سيدى محمد" ، والذى انضم المنحدرون منه الى أولاد "سيدى ابراهيم" الاخ : الثاني لسيدى الشيخ الذى دفن بالقصر الغربي في "الابيض"، وفي 1864 م هم الذين انضموا الى "الطرافي" : ثم انضموا الى "ذوى منيع" بعد انتفاضة بوعمامة 1881 م ، التي ستاتي على ذكرها .. ويتبعون الطريقة "التجانية" ، أما "سيدى الطاهر" : فيعرف المنحدرون منه "بأولاد سيدى محمد بن سليمان" ، قطنوا في فترة ما (1864 م) عند "بني سمير" ، وعند "أولاد بلاغ الفاقة ، وعند "الغياثرة" (أولاد مسعود) ، وعند "المغاولية" ، أما (سيدى أحمد) ، فيعرف المنحدرون منه "بأولاد سيدى محمد بن سليمان " أيضا ، ويوجدون بالشلالة الظهرانية : وهم "بوابي" قبة سيدى محمد بن سليمان الى عهد الاحتلال الفرنسي ، أما "سيدى عبدالرحمن " فلم يترك من بعده خلف ، أما "المجادبة"، الذين سبق ذكرهم ، فالمنحدرون منه (سيدى أحمد المجدوب) كثر أيضا ، وكأني بهم قد تبعوا نفس الحركة نحو التل والمغرب والمشرق مثل مافعل أبناء اخوتهم ، "أولاد سيدى الشيخ" تخييمهم الاصلي والمركزى أين يوجد ضريح سلفهم الصالح في قصر "عسلة" وضواحيها حتى "الشلالة" ويقطن بعضهم في القصر ، وتحولوا

.../...

من حالة البداوة الى حياة الاستطانة وتفرعوا في المغرب الاقصى ، وفي التل الوهراني (بجوار "سعيدة"و"تيارت"، و"تسمسيلت" ، و "عين الذهب"، وضواحي "وهران").

وهناك من تحول منهم الى حضر بمعنى الكلمة يقطنون في "وهران" ، واكتشف أخيرا أن شرائح منهم توجد بالقرب من "المسيلة" .

تقوم علاقات تجارية هامة بين هاته الشرائح المتفرقة والقبائل الاخرى فهي تفرض هيمنة سياسية على القبائل التابعة كما ذكرنا سابقا ، وتتمتع بأعتبار اجتماعي — كما أنها تقيم علاقات "مصاهرة" لتدعيم كيانها الاجتماعي .

ويبدو أن الاحتلال الفرنسي أعطى وزنا كبيرا لهاته العلاقات التجارية ، التي كانت قائمة بين "أولاد سيدى الشيخ"، و "ذوى منيع" ، و "بني غيل" ، و"أولاد جرير" في الجنوب ، ومع قبائل "الشعانبة" ، والتجارة النشيطة مع "ميزاب" ، وغيرها من الواحات الجزائرية ، كما أن قبائل "التل" كانت تقيم علاقات تبادلية واسعة معهم ، وحين توطنت شرائح منهم "بالتل" فانهم لم يقطعوا علاقاتهم مع ابناء عمومتهم الذين مكثوا في

الصحراء بجوار "البيض" . حيث يحصلون من بعض الخدام " أولاد زياد" ، "عكرمة" "بني عقبة" ، و"أولاد سرور" ، وأولاد ميمون" ، وغيرهم على "المدايا" و"النذور" ، ومن القبائل التلية على الحبوب والخضار ، وكل منتوجات التل مقابل "السمن" ، و"الصوف" ، و"الجبن" ، وكل مشتقاته . أما مع الجنوب فيبادلون هاته المنتجات بالتمر ، والتوابل ، والسلع المجلوبة من "السودان" (أى "مالي" الحالي) ، وسوف نتعرض لذلك بالتفصيل حينما نتطرق الى التغلغل الاستعماري في الجنوب الوهراني .

التغلغل الاستعماري في الجنوب الوهراني :-

يقول "لاكروا" : "لا ينبغي أن نتأخر في الاعتراف بإقامة أتصال مباشر مع هؤلاء السكان ، اذا أردنا تغطية مؤسساتنا في التل (..) لذلك ارتأينا أن نتجه الى هاته العائلة الكبيرة "أولاد سيدى الشيخ" والتي أعترف بأنها قبيلة جزائرية في عقد 1845 م ، والتي تسيطر دينيا على كل بدو الجنوب . وقد قبل (السي حمزة) بالشروط التي وفرناها له بوضعنا المركز في البيض GERYVILLE (1852) ومن هنا وضعنا أرجلنا في الجنوب ، وذلك لمراقبة تحركات قبائل الجنوب والرؤساء الجدد الذين نوليهم" * (1) .. ثم يضيف :- " .. وفي كل الأوقات ، وحتى مرحلة الاتراك ، فإن حظوظ "حميان" كانت مرتبطة بمنطقة تلمسان ، اننا لانغير في وضعية هاته القبائل التي ترتبط بدائرة "سبدو" ، ولكن نحاول فقط أن نجمعهم حتى نسمح لهم بأن يحافظوا على أنفسهم من "الغزو" الذى يأتيهم من التل " * (2) ، وكان اهتمام فرنسا

.../...

(1) LAMARTINIERE , LACROIX:- "Documents ...." op.citée P76.

(2) Ibid P78.

ـو قطع صلة "أولاد سيدى الشيخ" ،بالقبائل الكبرى والاخرى ـد كتابتها في غير موقع وجوب اثارة الحقد ، وسار الفتنة واستغلال العداوة القديمة مثلا بين أولاد سيدى الشيخ وأولاد نهار فصل قبائل "الاحرار" و"العمور" عنهم ، ومساعدة هؤلاء الحلفاء تستطيع فرنسا أن تبمدهم نحو الجنوب الغربي ... وبعد اختيار "البيض" كمركز للتحكم في "أولاد سيدى الشيخ" ، اختيرت "عين الصفراء" كمركز في الجنوب ، وموقعها يسمح بمراقبة "القصور" المجاورة ، وهذا الموقع الجديد سمح لفرنسا بمراقبة السكان الذين كانوا يحبرون المنتفضين على الاحتلال ، مصدر المعلومات بالنسبة لاولاد سيدى الشيخ ، لضرب القبائل الموالية لفرنسا .

أ) * ـ التغلغل الاستعمارى والمصالح الحيوية للاحتلال :ـ

لابد من الربط أيضا بين التغلغل الاستعمارى ، والمصالح التجارية ، والاقتصادية لكي نعرف السبب الذى يوجه فرنسا للتحكم في "القصور" والذى كان يدفعها لاقامة مراكز المراقبة العسكرية ، هم يعرفون بأن هاته "القصور" تمثل محطات لتموين "البدو" ويشتهر "أولاد سيدى الشيخ" بكثرة قصورهم التي تستعمل "للتخزين" و"التموين" ، و"العبادلة" .. وقد ذكرت سابقا ان اقامة هاته المراكز يسمح بمراقبة تحركات البدو الرحل نحو الشمال أو نحو الجنوب ومعرفة اتجاهاتهم وطرق اتصالهم ، لذلك حاول الاحتلال قطع البدو الرحل عن مصادر تموينهم السابقة ، وبذلك وضع البداوة في مأزق لا زالت تعاني أثاره حتى الآن .

* وهذه شهادة "حية" لاحد الكتاب: "اذا قلنا بأن "اولاد سيدى الشيخ" في التل هم وراء مايحدث في الجنوب فهذا صحيح .. اذا عرفنا بانهم قطنوا التل مايقرب من "قرن" ، ولاأجهل أن بعضهم ملاك شرعيين للأراضي التي يعيشون فيها ، واعرف كما يعرف كل من درس تاريخهم ، بانهم يقيمون علاقات مع اخوانهم في الجنوب ، وقد جاؤوا للتل لكي يبثوا الدعاية الخاصة بمذهب سلفهم الكبير ، ويجعلون أنفسهم دعاة ، حيث أن وطنهم الصحراء ، ويفتخرون بالانتصارات التي يحوزونها سواء كانت من طرف "قدور بن حمزة" ، أو "سي لعلا" ، أو "بوعمامة" ويقومون بعمل مضاد لسيطرتنا" * (1).

ومن ثم يذكر الكاتب طريقة تهديد آتبعتها فرنسا ، لكي يكف "أولاد سيدى الشيخ" في التل عن أعمال المشاغبة والدعاية ، وذلك بمصادرة الأموال ومصادرة الأراضي وانتزاعها ، وحجز الخيرات التي يمتلكها هؤلاء وتحت عنوان "القضاء على التنظيم التقليدى" ، يذكر "كودارس" .

"لانستطيع أن نحدد وضعية السهوب الغربية في 1830 م ، خاصة أثناء التدخل الاستعمارى في التل ، لكن يمكن أن نعيد تشكيل الخطوط العريضة للتنظيم السهبي" أربع قبائل تشغل هذه المساحة ، ونجدها حتى اليوم :- "حميان" في الشمال الغربي ، و"الطرافى" في الشرق ، و"العمور" في الجنوب الغربي ، و "أولاد سيدى الشيخ" في الجنوب ، كلها تمارس البداوة والترحال بشكل واسع ، بين التل والصحراء ، وذلك

.../...

(1) F.GOURGEOT:- " situation politique.." op.citée P157.

بأستعمال المنطقة الجغرافية "العرش" في السهب كقاعدة وسطى ، فالقبيلة ترتحل بأكملها ، ولاتترك وراءها أى شيء :- تاخذ معها كل خيراتها وقطيعها ، فالتل اذن ، منطقة لانتاج الحبوب من جهة ، ويسمح للقبائل البدوية بواسطة عقود مع قبائل التل باستعمال التبن والمراعي ، واستطاعت هاته القبائل تشكيل مستعمرات صغيرة في التل :-

أولاد سيدى الشيخ في "أولاد ميمون" قرب تلمسان ؛ "حميان" في وادى مكنة والطرافي في منطقة أرزيو ، وفي الشتاء يذهبون للبحث عن المراعي حتى شبكة "ميزاب" ، وذلك باتباع مسار الاودية الجبلية التابعة من "القصور" .. بعضهم يكتفون برحلات أكثر تقلصا ، خاصة تلك التي يتقاطع أتجاهها الجماعي مع المناطق الطبيعية المختلفة " * (1) .

وبالاستناد على شهادات الكتاب "العسكريين" : نلاحظ أن "الطرافي وحميان" ينحدرون نحو "قورارة" ، وأولاد سيدى الشيخ نحو "حريش المقطع" في أنتظار قافلة "حميان" الذين ينحدرون نحو "وادى الناموس" ؛ ويلتقون في "قورارة" ، ودور هذه القوافل مهم جدا :- " كل سنة من نوفمبر الى ديسمبر ينظم هؤلاء البدو قوافل ليتاجروا .. في واحات "قورارة" ، وفي بعض الاحيان حتى "تيميمون" وقد كان عدد الجمال بين 4 آلاف الى 10 آلاف وتدوم الرحلة من 60 الى 65 يوما ... المواد المصدرة هي الحبوب المشتراة من التل ، والفضة ، والصوف ، والفول ، واللحوم الجافة والتبغ ، والفلفل الأحمر ، وقفف الجريد ، وألبسة منسوجة ..." * (2) .

.../...

(1) R.COUDERC :-"De la Tribu à la coopèrative" Apércue sur....etc.In:-options Méditéranéennes N°28(sans Année) P68.

(2) TRABUT , MATHIEU:- "les hauts plateaux Oranais" ALGER 1891, In "COUDERC "De la tribu....." op.citéeP68.

* فالبدو هم في نفس الوقت مربي مواشي وتجار ، وهذه عادة توارثوها عن أسلافهم في شبه الجزيرة العربية ، فالرسول (ص) نفسه كان مربي مواشي ، وتاجر قوافل *. فهم يستفيدون من الصحراء والتل على حد سواء .

كان التكامل التقليدي — (المرتكز على التكامل بين المناطق والنشاطات) — متوازن نسبيا ، فالقصور هي مركز العلاقات بين البدو والحضر ، وبما أنها تقع في الاطلس الصحراوي ، فسكانها يخضعون للبدو في سبيل حمايتهم ، وبالمقابل يقدم القاطن كل الخدمات ويشترى منهم المنتجات المعروضة ، ويقوم سكان القصر بنشاطات حرفية لفائدة البدو مقابل منتوجات معينة *. حيث يذكر "دوكولومب" : "نجد أن النساء في أربوات (1856م) يصنعن "البرنوس" ، و"الحايك" (غطاء من الصوف) ، والعباءة للبدو *. ويأخذن كأجرهم جزء من الصوف مساو لما يحكنه " * (1) .

ثم يلاحظ "الكاتب" بأن التكامل لايعني "العصر الذهبي" لأن العلاقات الاجتماعية تتسم بعدم المساواة ، فسكان القصر كما سنعرف فيما بعد هم "خماسة" لدى البدو ، وذلك لحمايتهم . . . الا أن سكان القصر يتعرضون عادة الى غزوات القبائل المجاورة مثلما وقع لقصر "سيدى الحاج بن عمر" على يد قبائل "الزغدور" التي تقطن في الجنوب المغربي (1856) ، * (2) ، والذى أصبح مجموعة من الخرائب . . وفي نهاية القرن 19 م ، تكاثرت الغزوات في الصحراء الكبرى ، وفي 1892 م وقعت كثير من الغزوات ، وسلبت قطعان من الماشية ، وقد أتسع نطاقها حتى حاذت واحة "فقيق" * (3) .

. . . / . . .

(1) L.DE COLOMB:-"Exploration des KSOURS et du SAHARA de la province d'ORAN " ALGER 1858. In :- COUDERC : "de la tribu ..." op.citée P69.

(2) COUDERC:- "de la tribu...." op.citée P69.

(3) GERYVILLE; KIVA:- "Souvenirs en ALGERIE" ALGER 1892 ,IN COUDERC ..P69.

ما نأخذه الآن ، هو الارتباط الواضح الموجود منذ قرن بين أقتصاد الهضاب العليا الغربية ، والمناطق المحاذية: الصحراء والتل الزراعي ـ ومع توطن الاستعمار في الشمال ودخوله بالجنوب فقد حطم آليات هذا التوازن * (1) .

هذا مايشير اليه "آمحمد بوخبزة" ، الذى ينتقد بعض "الكتاب" الذين كانوا يرون في البداوة ذلك العالم الرومانسي لساكن الصحراء ، الذى يجد في الآفاق الواسعة والرحبة التجسيد الحسي للرغبة في الحرية والانطلاق ويعترض على ذلك بناء على حجج من الواقع ؛ وهو أن ذلك الأمر يخضع لمنطق آخر ، وهو العلاقات الاجتماعية والسياسية التي تحركه ، أى تلك التي تربط البدو داخليا ومع الخارج .. ويوضح بأن هجرة القطيع هي عملية منظمة بين مختلف المناطق: (التل ـ الهضاب العليا ؛ التل ـ الصحراء ؛ الهضاب العليا ـ الصحراء ـ والعكس ..) ، ويبين بأن البدوى كان يقوم بعملية توزيع المنتجات بين الشمال والجنوب ، وهذا يرجع الى الوظائف الأساسية التي تؤديها العير التي يملكها ، ويوضح بأن منطق التجارة كان عملية التبادل ؛ ولكن الاحتلال هو الذى أدخل نظام المضاربة بالقضاء على تجارة "العير" * (2) .

كتب حاكم الجزائر في "1901م" : "كل شيء ينبيء بأن شروط حياة البدو في الهضاب العليا قد تغيرت جذريا فالقبائل التي ترفض كل فكرة للحراثة ، أخذت في الالتصاق بالارض ... فالترحال للمسافات الطويلة ، والقوافل التي كانت تقطع المسافات البعيدة

.../...

(1) COUDERC:- "De la Tribu à la coopérative " ..op.citée P69.

(2) M'BOUKHOBZA:- "L'Agropastoralisme traditionnel en Algerie" O.P.U ,ALGER 1982, Partie :A chap:1.

آخذت في التقلص وأصبحت نادرة ... * (1)، فمنذ بداية القرن 20م، أخذ ترحال مربي الماشية في التقلص شيئا فشيئا، وأخذت الانقلابات في تحرير الحياة البدوية .

ب) - تطور التعمير في التل وانعكاسه على السهوب:-

كيف تطور "التعمير" بعد 1830م ؟ وماهي الآثار التي خلفها على البداوة ؟ سيطر الاحتلال على التل بعد 1830. وأخذت مزارع المعمرين تظهر في الجنوب، وهذا ما أدى الى تقلص مساحات الأرض، وحدث تغيير في العلاقات التقليدية التي تتحكم في العشابة .. وأخذ المعمرون مكان القبائل القديمة ... ولم يقبل المعمرون هذا العقد الذي أبرموه مع الأهالي. وهذا مايشير اليه "أحمد بوخبزة" أيضا، حيث يلاحظ أن البدو، كانوا يمثلون أكثر من نصف سكان الجزائر عشية 1830 م (60٪)، ويمثل ذلك بالجدول التالي :-

جدول رقم: (1)

نسبة البدو والحضر من مجموع السكان عشية 1830 * (2)

نمط الحياة / المنطقة	بدو ٪	حضر ٪	المجموع ٪
باقي القطر	45.6	38.4	84
السهب	14.4	1.6	16
المجموع	60	40	٪100

.../...

(1) COUDERC:- "de la tribu ..." op.citée P69.

(2) M' BOUKHOBZA:- " L'Agropastoralisme.."op. citée P183.

ومركزهم لم يكن كما تدعي مختلف الأطروحات الاستعمارية لأغراض ايديولوجية :- (التل كان "فارغا" من الأشخاص النشطين، وجاء الاحتلال لتعميره)، المنطقة الجنوبية والصحراء، التي نعرف أنها لم تكن الا ملجأ من قساوة الشتاء ؛ حيث أن التل كان "عامرا" بالقبائل البدوية (فالقبائل مثل "الحشم" و"بني عامر"، وغيرها ... كانت تمتد على أطراف القطاع الوهراني .. الخ ، وكثيرا ما كان يدعي الاحتلال انه هدفه هو ادخال "التقنية" للزراعة ، وتطويرها .. في حين ان العبء الكبير تحمله البدو في التل كما في السهوب * (1) .

ويبين "أمحمد بوخبزة" ايضا ، كيف أن البداوة "الرطبة" (أي البداوة التلية) كانت مزدهرة في مرحلة ماقبل - الاحتلال، لكن التغلغل الاستعماري وانتزاع الأراضي من الفلاحين - المربين ، الذين نزحوا الى أماكن أخرى أدى الى اختفاء "الخيام" ، وظهور أكواخ "الديس" .. واستنادا على الاحصائيات ؛ يبين الكاتب أن الأراضي المنتزعة بين 1830 - 1850 انتقلت من 115 ألف هكتار الى 2.350.000 هكتار (منها :- 210 ألف هكتار منطقة غابية) بين 1940 - 1954" * (2) ، وبالتالي ألغى الاحتلال نظام"العشابة" في المناطق التي يسميها بوخبزة بمناطق "البداوة الجافة" ، أي تلك الرحلة التي كان يقوم بها البدوى ، ومربي الماشية للبحث عن الكلأ لماشيته .. وقد تم ذلك فعلا ، حيث أن "مربي الماشية" حرم من ايجاد سوق للتبادل فالمعمر أصبح يسوق سلعته بسهولة دون واسطة ؛ وكذلك فان دور "العير" كما رأينا عند "كودارس" أخذ في التقلص منذ التغلغل الاستعماري حتى

.../...

(1) M'BOUKHOBZA:- " L'Agropastoralisme..."op. citée ; Partie: A chap:2

(2) Ibid , partie: B chap :1 .

اختفى نهائيا مع بداية الثورة التحريرية ، ومن هنا فعلا ظهرت أزمة البداوة التي عقدتها أكثر مجاعة 1920*(1).

وفي نفس الوقت ، فإن توسع الاحتلال نحو الجنوب قلص من مساحة السهب . وقد أوضح "كونسيلت" بأن المناطق السهبية تبقى خارج القياس "المترى" ، والتملك الفردى ، فبقى السهب أرض عروش ، حيث منحت الدولة حق الأرض للقبائل ، وبذلك أصبحت غير مستلبة ، ولكن تأويل التعبير "الأراضي السهبية" هو الذى سمح بأن تقوم الحراثة على حراف هاته الأراضي ("الضايات") ، ويذكر "لوهيرو" : "بأن الجزء الشمالي من الهضاب العليا ممنوع عنهم حاليا . وقد بترت منطقة ارتياد الكلأ من احتياطاتها القديمة في الشمال "* (2) ، وأخذت احتياطات الكلأ تتقلص شيئا فشيئا ، عوضها استغلال مكثف للأراضي السهبية التي بدأت في التقهقر شيئا فشيئا ، فقد خلف "القضاء" على البداوة "الرطبة" آثارا اجتماعية وأقتصادية جسيمة على السكان عقب 1830 م . وبذلك أبعدت البداوة "الجافة" الى المناطق الأكثر فقرا ، حيث أنها لم تصبح من القوانين الصارمة التي تمنع كل أستقلالية تجاه السلطة الجديدة ... وبما أن هؤلاء البدو ، قد قطعت علاقاتهم مع قواعد التموين من التل ، حيث استبدلت "الحبوب" ، "بالكروم" .. وانقطعوا عن زبنائهم الذين يشترون المنتجات الصحراوية . فإنهم وجدوا أن نشاطهم قد شلتها خطوط السكك الحديدية ، والسيارات . وانقلبت عاداتهم التجارية بفعل النمو الحضرى .. وبذلك اضطروا لحراثة الأراضي السهبية فهذه الممارسة لم تكن نتيجة لما يعتقد الآن "التخريب من أجل التخريب" .

.../...

(1) M'BOUKHOBZA :-"L'Agropastoralisme ..." op.citée ,partie:B chap:2

(2) COUDERC: "de la tribu ...." op.citée P 69.

يشير "بوخبزة" الى الملتقى الوطني حول الرعي الذى عقد بالجزائر في 1974 - وانما ينبغي الرجوع الى الاسباب التي أدت الى ذلك ، وهي الازمة التي تعرضت لها البداوة ؛ وحتى في عهد الاحتلال الفرنسي فأن بعض الكتاب ، كانوا يوكدون بأن البدوى لايقوم بالحراثة الا اذا لاحظ أرتواء نسبي للأرض من المطر ، ولا يحرث الا مساحة متواضعة حيث تكفي لانتاج مايلبي "حاجته أو يقترب منها ؛ لكي يقوم بعملية "التخزين" (العولة) بالنسبة "للسنة السيئة أو للطوارئ" (1) - وبعد أن تم تشييد المراكز العسكرية ("سعيدة" ؛ ثم "البيض" ، ثم "عين الصفراء" في الجنوب الوهراني مثلا ..) ، لمراقبة تحركات البدو ، ولرعاية المصالح التجارية ، والسياسية العليا لفرنسا ، أزداد السكان بوءسا ؛ واحتدت الازمات الاجتماعية ، وشعروا بالضياع في أفق لم يصبح في متناولهم .. أدى ذلك الى الانفجار ، الذى تمثل في أنتفاضات متوالية لم تنقطع ؛ منها انتفاضة "أولاد سيدى الشيخ" .

الموقع والانتفاضة :-

أندلعت ثورة تدعى بأنتفاضة "أولاد سيدى الشيخ" ، في الجنوب الوهراني ، أى في فبراير 1864م ، وقد فاجأت هذه الانتفاضة الاحتلال الذى لم يكن يعتقد بأن خطورتها ستصل الى حد لم يحسب له حساب ، بل لم يتم القضاء على هذه الثورة نهائيا الا في 1896م.

.../...

(1) M' BOUKHOBZA:- "L'Agropastoralisme..." op.citée .Partie:C chap :1

اذن ،ماهي المكانة التي تحتلها هذه الانتفاضة في خضم الانتفاضات الطويلة المتواصلة التي وقعت في الجزائر ؟ وماهي نتائج سحقها على الصعيد الاقتصادى والاجتماعي ؟.

هي سلسلة من الثورات ،ذات حلقات متصلة في أغلب أرجاء الجزائر - ويحتمل أن يكون القطر قد أنخرط بمجموعه في الانتفاضة (...)وبعض القبائل لم تقبل الانخراط الا بعد التأكد من أنها سوف ترمي المحتل في البحر ؛ وظهر نجاح "نسبي" محلي في أندلاع الثورة في المناطق المجاورة، واذا كانت الثورة سهلة نسبيا في المناطق التي يتواجد فيها الرحل ؛ فانها تبدو كأنتحار حقيقي بالنسبة لسكان المناطق الحضرية الذين أيدوا الحركة تحت ضغط ملح * (1).

أما علاقة هؤلاء بحركة "الامير عبدالقادر" : فان الامير عبدالقادر كان يحذر من المدن ، ومن مدينته معسكرا أيضا، فهو لم يعد اصلاحها بعدما استولى عليها الجنرال "كلوزيل" ، فالامير يعرف مجاله (...) لقد رغب الامير في أن يجعل الجنوب الكبير هو قاعدته الحقيقية ،من هنا ، فانه يستطيع أن يصحب طاقات جديدة - ولم يستطع الا القيام ببعض الغارات المحدودة ، وكانت هناك مناطق خارج طاعته ، ومنها المجموعات الصحراوية مثل "أولاد سيدى الشيخ"فهم الذين اشترطوا مقابل الاعتراف به أن يسمح لهم بدفع ضرائب أقل ، خاصة أنها قبيلة "مرابطين" ، ولكون الامير رجل أستراتيجي ، فانه يعرف أن مصير مناطق التل ينطلق من هاته "الاعماق" ، ولكنه بقي رجل السهوب والهضاب العليا"* (2).

.../...

(1) A.R. GOLDZEIGUER:- " Le royaume Arabe " S.N.E.D ALGER 1977. P276.

(2) W.BOUZAR:- "La Mouvance et la Pause " op.citée P209;

فالأمير "فارس" و "بدوى" ، وهذا مايميز طبيعته كمتنسك (زاهد) *. ونمط الحياة القاسي يبين طبيعته البدوية ،، وفي هذا المجال يقول "ليكاش" و"قاتان" : "ان ملاحظة الجزائرى بعد زوال الامبراطورية الثانية ، وهزيمة الجيش في مواجهة بروسيا غيرت كل الموازين ، حيث أن الجزائرى تغير في عين الملاحظ ، فبالأمس كان محاربا مصارعا ، يحارب عن الأرض (أرضه)*. أو مناوئا سياسيا يحاول فرض سلطة منافسة (الأمير عبدالقادر) أو (يمثل المحافظة على الاستقلالية) : ("الاخوانيات" ، "الزوايا" ، "القبائل") *. فالجزائرى منا يمثل موضوع البحث أما اذا هزم ، فهو ليس الا موضوع وصف فلكلورى جديد ، فأساس المصلحة قد أختفى " * (1) ومن هنا انطلق الاحتلال فعلا *. أى انه من خلال التحكم في نفسية المستعمر ، وذهنيته يمكن السيطرة عليه ، ثم القضاء على كل مقوماته من خلال الهجوم عليه من الداخل :-

"يتميز الرجل من الأهالي بانه شره في طلباته ، بخيل حين يكون خارج بلده ، ولكنه كريم حين تكون تحت خيمته ، ومسرف حين يمنحك كرمه ، انه عدو "الاجنبي" ، و"المسيحي" ،، وحينما يتولى الفرنسي قيادته فانه يناضل من اجله ، وقد يموت امام عينيه دون أن يسر بكلمة " ، "منفعل" حتى المبالغة ، مدعي لدرجة لايمكن تصورها ، ويطالب عدوه بامتلاك الشيء حتى ولو كان تافها ، وحين يتصالح معه فانه عزيز النفس ، كما انه سريع التقلب ، ورخو في تفوقه ، وهو جاد وكريم في تغيير أحواله ، كاذب ومتبجج حين يكون بعيدا عن قبيلته ، وهو متحفظ وشديد الاحترام للشيوخ حين يكون في وسط أهله "*(2).

.../...

(1) LUCAS, VATIN :- "L'ALGERIE des Anthropologues "ED/ Maspero FRANCE1979.P19

(2) F.GOURGEOT :-" situation Politique" ..op.citéeP183.

ثم يحدد هذا الكاتب بعض السمات الشخصية مثل الشجاعة ، والتدين ، والوطنية ، وحب النساء والصبر في الظروف السيئة .

والاعتقاد " بالخرافة " ، وبالعبقرية ، وبالنبوة ، وهذا مايجعله طيعا لدى المرابطين والمقدم (...) ويختتم تقييمه لهذا "الآخر" بالنسبة له "هو" :- فمجتمعنا هو مجتمع القرن التاسع عشر الذى انارته مشاعل العلم ، أما مجتمعه فهو مجتمع القرون الوسطى الذى أظلمه الجهل والخرافة .

ويعلق الجنرال "شانزى" على شخصية "الحمياني :-

"الحمياني ، هو النمط الصحراوى ، هو ذلك الفارس الممتاز ، لايتعب مغامر ، ناهب ، ذو دين يسير لايصل للتعصب ، وفي كثير من الاحيان لايحب "التجاوز" ، يحتمل بصعوبة أى فعل خارجي ، ولايعترف بالرؤساء الا من ذويه ، والذين اشتهروا بالشجاعة والجرأة ، والذين يلهمونه الثقة ، ويقتسمون معه حياته ، مغامرته ، والمخاطر التي يتعرض لها ." (1) .

فمن تحليل شخصية "البدوى" ، "والحمياني" ... والتي كما لاحظنا فيها بعض التجاوزات ، والمبالغة والنظرة المتعالية ، فاننا نلاحظه في كثير من الكتابات والتقارير العسكرية ، التي تحاول فهم "البدوى" ، لتسيطر على شخصيته ولكي يتمكن الفرنسي من السيطرة على قبيلته وعشيرته ، ثم يوسع احتلاله ليشمل الأرض ، والانسان ، والمجال .

وقد يكون هذا هو الهم الكبير الذى يشغل المعمرين والساسة والعسكريين على حد سواء ، ومن هنا استنتج "مالك بن نبي" مفهوم ("القابلية على الاستعمار") أيضا ، فمن تحديد شخصية "البدوى" الى الاستيلاء على مقومات وحضارة مجتمع بكامله .

.../...

(1) LAMARTINIERE ; LACROIX:- "Documents..."op.citée P 244.

الاستراتيجية الاستعمارية وقلب العلاقات القائمة :-

لابد من تبني استراتيجية واضحة مبنية على دراسات نفسية وسوسيولوجية :، ولا تخضع للتلقائية والمجازفة ..:- " ان وضعية الجنوب كانت صعبة ، انها ترتكز على وفاء عائلة واحدة ، هذا الوفاء قد لا يستمر ، وذلك لنزوة أغلبية اعضائها ، لكن يمكن التحكم فيها اذا كان ممثلو فرنسا "البيض " يساعدوننا على تثبيت نفوذنا بواسطة تأثيرهم " * (1) .، ثم يضيف :- "لم نستطع التحكم في الجنوب الوهراني الا من خلال هذا المركز الوحيد "البيض" ، الذى يمنحنا الدعم المعنوى وهذا التأثير الايجابي ، يسمح لنا بتنظيم القمع ، وأن نتحاور مع بعض المنتفضين ، وأن نقطع صلتهم بالقضية التي يناضلون من اجلها ، وخاصة علاقاتهم مع "الاحرار" ، ومع قبائل " جبل عمور" . وبمساعدة هؤلاء الحلفاء نستطيع أن ننطلق نحو الهجوم ، ونرمي باولاد سيدى الشيخ في الجنوب الغربي ، وبذلك نكسب كل القبائل الثائرة بالعنف والاقناع * (2) من هنا ، كان المنطلق ، حيث اعتمد المعمرون (مالطيين ، طاليان ، اسبان ، المان) على الطرق الغير الشرعية في الاستلاء على اراضي العرش خاصة ، وضاعفوا من الاجراءات العقابية لتاديب بعض القبائل التي تطلق قطعانها على اشجار الغابات أو المحاصيل منها سلب الاراضي ، وهذا ما اشعل فتيل الثورة ... كذلك عانى المجتمع التقليدى من تفتيت لرؤسائه التقليديين (شيوخ القبائل] الذين امحن الاحتلال في الا اذلالهم ، وفصلهم عن زبنائهم من الاهالى ... وكذلك لم يقدر الاحتلال الدور المادى الذى تقوم به العائلات الدينية والتي يمكن ان تخرج عن سلطانه (لانها تتلقى اعانات مالية والزيارة من طرف (les serviteurs et les alliés religieux

.../...

(1) LAMARTINIERE; LACROIX:- " Documents..." op.citée P79.

(2) Ibid PP79-80 .

الخدام ، وقد كانت متأثرة الى حد كبير بحركة الاخوانيات الدينية ، (السنوسية ، الدرقاوية ..) وبحركة الانبعاث التي سادت اناذاك في العالم الاسلامي (خاصة الانفجار الذى هز " سوريا " وأنتفاضة تونس) ثم برزت الاشارات الاولى لثورة عقلية أرادت أن تترجم بطريقة تصورية التحولات الاقتصادية والاجتماعية والتقنية المفروضة من طرف الغرب * (1) . وهذا هو اطار هاته الانتفاضة التي تعبر عن مجتمع يعيش مرحلة انتقال حقيقية على الصعيد المادى والروحي .

أما بخصوص المجتمع فقد وجد نفسه مقطوعا عن زعمائه التقليديين (الشيوخ) كما ذكرنا ، وأصبحت الجماهير الجزائرية غير معترفة برؤسائها الجدد .. ويتعرض " محمد بوخبزة" الى ماأحدثه التغلغل الاستعمارى في قلب التوازن الذى كان قائما فيما يخص السلطة لدى البدو ، حيث ظهر"القائد " بموازاة الشيخ ـ فالقائد يعين من طرف الحاكم العام ، ويقوم عليه حرس خاص ، وله "خليفة" ، يمارس انواعا من القهر والضغط على المنطقة التي تقع تحت حكمه ، ولذلك كان بمثابة اذلال للسكان اما الشيخ ، فتعينه الجماعة ، ويعيش نفس الظروف التي تعيشها القبيلة يقاسمها احزانها وافراحها . وأصبحت "المدينة" مركز استقطاب ، وقلبت تلك العلاقات التقليدية التي كانت قائمة فعوض أن يكون البدوى هو السائد ، فانه أصبح "مسودا" ، وحتى حين يرتكب خطأ فانه لايعاقب في وسط عائلته من طرف القائد بل يقيد

.../...

(1) A.R.GOLDZEIGUER:- " Le Royaume Arabe" op. citée P282 .

يديه ، ويعاقبه امام "الحضر" ؛ وهنا انقلبت العلاقة جذريا التي تربط الحضرى بالبدوى .. وأصبح مكان "الخيمة الكبيرة" ، الدار الكبيرة ، بل أصبح الرجل لايشتم أمرأته بقوله "سابقا" ، يا"بنت الحضرى" ؛ بل "يابنت الراعي" وأصبحت المسائل الهامة التي تتعلق بالخلافات أو الشكاوى أو الجرائم أو غيرها تناقش في دار "القائد" و"أعوانه" .

ثم يذكر أن السلطة الجديدة ساعدت على تجزئة القبائل الى شرائح مختلفة ، متفرقة ليس هناك من صلة بينها ، وتفتيتها من الداخل ، بل وصل هذا التشتت الى العائلات ، حيث برزت الروح الفردية مكان الروح الجماعية ؛ والتعاضد الى "الفرقة" .. وكذا أصبح "البدوى" نتيجة لاجتثاثه من جماعته وشريحته عرضة لكل اذلال وقلة اعتبار * (1) .. وتوضح "غولدوايقر" الوضع الذى اصبح قائما أثناء الانتفاضة ، والذى أدى بكل الفئات الاجتماعية الى الانخراط فيها بقولها :- " اذا كانت السلطة الاجتماعية قد أخذت في التلاشي ، فإن الاهتمام الشعبي آخذ في التزايد ؛ فالاجراءات التي اخذها الامبراطور - نابليون الثالث - على عاتقه ، والتي تجاوزت فيها القبائل تلك الخيطة الآتية الى التساؤل عن تنفيذها ، أصبحت موضع تساؤل ، فالعزالة الذين يملكون "القطيع" تخوفوا من تدمير عام يصيبهم ، و"الخماسة" خشوا من الغاء كل تقسيم للاراضي ؛ وخشي الفلاحون من استغلال الوجهاء لأحسن الأراضي ، وخشي البدو من أفول أراضي الكلأ . بإيجاز ، فإن كل هذا التردد في اتخاذ قرار تنفيذى من طرف مجلس الشيوخ قد أدخل رويا-ماما جند كل قوى المقاومة * (2) .

.../...

(1) M'BOUKHOBZA:- "L'Agropastoralisme"....op.citée Partie :B chap/ 3

(2) A.R.GOLDZEIGUER:- " Le Royaume Arabe" op. citée P 281.

فهذا الحيف الذى حل بالسكان ، والانشقاق الذى هز أركان المجتمع ، والأزمات الاقتصادية والاجتماعية المترتبة على التغلغل الاستعمارى وغير ذلك .. ساعدت على اشعال فتيل الانتفاضة التي قادها "سي لحلا" الذى يعتبر رجلا بارعا شجاعا وشارحا جريئا ، الذى يثق في انتصاره على الكفار ، ويعتز بأصله وشرفه العريق ، بأعتراف أسمى الضباط الفرنسيين ، بل انه دبلوماسي بارع ، لا يتسرع في العمليات الجديدة ، بارع في الاقناع بأستعمال كلا من سلطته ومثله وايمانه * (1) .

لقد أكدنا على هذه الشخصية التاريخية لما لها من دور على صعيد التاريخ ، فقد كانت مقاومته رمزا لكل الجماهير الجزائرية التي تعرفه في سبيل التحرر والانعتاق من السيطرة والقهر الاجتماعي ؟

ه) — تطور احداث الانتفاضة وانعكاساتها :—

لقد حافظ "أولاد سيدى الشيخ" على الأسس الاقتصادية والسياسية والروحية للمجتمع "المؤمن" ، ووسعوا حركتهم لتشمل المنطقة الممتدة من "ورقلة" حتى المغرب ، كما دعمت الانتفاضة "العصبية القبلية" ، فالجماهير تنتفض بمجرد المساس بهؤلاء الاشخاص الذين يحتلون أعلى مكانة في السلم الاجتماعي ، وبذلك يهيمنون على السلطة ، ويتمتعون بالثراء "المرابطين" :— "يحتل أولاد سيدى الشيخ صفا واحدا يسمح لهم ببسط هيمنتهم على السكان الموجودين في الصحراء ، خاصة حين يجمعون قوتهم ويجمعون بين نبالتهم في السيف مع نبالتهم الدينية ، وهذا التفوق لن نجده عند أى عائلة بنفس الدرجة ، ويقول الاهالي :— " لقد منحهم الله البركة والحركة" ، أى منحهم 'القوة الدينية الى جانب القوة العسكرية '. أى السلطة المرحلية والسلطة الروحية " * (2).

.../...

(1) A.R.GOLDZEIGUER:- "Le Royaume Arabe " op.citée P284.

(2) F.GOURGEOT/-"Situation Politique" op.citée P49.

في خضم الانتفاضة أختفت النزاعات التي كانت قائمة بين فرعي "الشراقة" والغرابة" . وبرزت الارتباطات العشائرية القديمة ، ووصل التأثير الى القبائل التابعة .

اذا بادرت هذه الاتحادية في مقاومة الاحتلال ، فانها تعرف جيدا العالم الصحراوى ، وكيف تضمحل اشلاء الاستعمار فيه ، وكيف يسمح للبدوى بالافلات من قهر الاحتلال ، ورغم ادعاء المعمر فقر هذا القطاع الغربي من الصحراء فانه كان يقوم على أقتصاد غنى يعتمد على التخصص والحرية : أما الحرية ، فهي الحرية في توسيع عدد القطيع ، وحرية الرعي ، والتجارة المتنوعة .. أما التخصص : ففي زراعة النخيل والتخصص في الرى ، والتخصص في تجارة القوافل .. بالاضافة الى ذلك فانه غني بالرجال ، وبرؤوس الاغنام وبالخيام والتقاليد .. وهو صلة وصل بين الصحراء والتل المغربي والجزائرى * (1).

وأصبحت من ثم بعض الواحات مراكز تجارية تهجر اليها قبائل "حميان" لتستبدل منتوجاتها بالتمور الصحراوية : تيميمون ، قورارة ، تينركوك .. ولهم فيها أتباع وشيع .. وتضيف غودرى :- "يذهب أولاد سيدى الشيخ عن حتى قورارة ، ويبادلون الماشية ، والصوف ، والا فرشة ، والسعف ، والحبوب ، والزبدة ، واللحم الجاف والتوابل من القصور ، والكليلة (نوع من الجبن المجفف) ، وذلك مقابل التمر ومنتوجات أخرى ويقولون على سبيل الفكاهة ، بأنهم ينصرفون في "القوراري" (ساكن "قورارة") ، كما يشاؤون حين يعطونه

.../...

(1) A.R.GOLDZEIGUER :-" Le Royaume Arabe " ..op.citée P514.

"الكليلة" ، ويضيفون بأن فرنسا كان يكفيها أن تضع "الخبز" على فوهة البنادق لكي تستولي على "قورارة"" * (1) واستعملت بعض القبائل الدبلوماسية والكياسة بالاستناد الى معاهدة " لالامنتيسة" (1845م) ، أو تطلب الحماية من ملك المغرب في بلاطه بفاس ، وهذا أثار كثيرا من المشاكل للسلطة الاستعمارية ، ويذكر "الاكروا" : "حضورنا في عين الصفراء فتح جنسية "العمور" ، الذين أعتبروا "مغاربة في معاهدة 1845م، مع انهم يرتحلون بمحاذاة قصور الجنوب "الغربي" (..) * (2)..

و "يقول الاشخاص الذين عانوا من غزو بلادهم من طرف المغاربة :ـ " اذا اراد هوءلاء المكوث في أرضنا فعليهم بالبقاء تحت سلطة فرنسا " ، هذه العبارات خطيرة جدا ، اذا لم نحميهم من المشاكل التي تأتيهم من زملائهم المغاربة ، فانهم ينفصلون ولا يدفعون الضرائب ، ويستغلون الفرصة للاصرار على مرسوم 1845م ويعلنون أنهم مغاربة ، ولهم الحق في ذلك ، وهذا يعني انهم ينقطعون عن دفع الضرائب ، ويستمرون في التمتع بهذه الاراضي التي يدعون ملكيتها ، بينما لم تكن كذلك لأنها (للمسيحيين) ، وطبقا لهذا المرسوم الذى نطرقه اليوم ، لاستقبال "بني غيل" ، فاننا لن نستطيع تصحيح هاته الوضعية التي تصبح صعبة ، وخطرة طبقا لمبدء وامتيازات سلطتنا .

ان دبلوماسيتنا تخضع لاعتبارات عليا .. فالضرورات الحكومية ، والعقود الدبلوماسية تعرقل سير وانطلاق المهمات ذات الطابع الدولي *(3) وقد ساهمت البنية الصحراوية في تجتمع سكان الصحراء حول

.../...

(1) M.GAUDRY:- "La société féminine "...op.citée PP38-39.

(2) LAMARTINIERE, LACROIX:- "Documents..."op.citée P114.

(3) Ibid (marge PP129-130).

"أولاد سيدى الشيخ" ، وذلك نتيجة لانقطاع تموين التل عنهم ، ولمضايقتهم في علاقاتهم بالمشرق ، وأدى الحس الدبلوماسي دورا عظيما في الصراع أدهش القيادة الفرنسية نفسها .. فالتقسيم بين "الشراقة والغرابة" في عهد "سي لحلا" قد خدم المصالح القبلية أكثر مما كان يتصور "الاحتلال" ، فقد استعمل "الغرابة" دبلوماسيتهم في الانتساب للعرش العلوى (الشريف) وبذلك فسحت لهم امكانية تطوير مراعيهم في الغرب ، وارتبطوا بسكان "فقيق" ، وتذرعوا بالطريقة الطيبية ("سيدى أحمد بن الطيب") ، وعلاقتهم بذوى منيع و"بني غميل" ؛ وسيطروا على "حميان الغرابة" تجار القوافل الذين تجزؤوا بفعل الغزو الاستعمارى وغيرهم من القبائل أما "الشراقة" ، فقد وجدوا الدعم لدى بربر "تافيلالت" ، ووجدوا مجالا واسعا لتحركهم ... اذن ، فمصطلح "الحدود" على الطريقة الأوروبية أصبح ضد الفرنسيين ، وخدم (الاستراتيجية) الصحراوية .. واذا كان الفرع "الغربي" قد تحمل العبء المادى ، والفرع "الشرقي" قد تحمل نقل المعركة ؛ فاٴن هذا يدل على اللعبة الدبلوماسية الفائقة التي تحول دون القضاء على الجماعة ؛ وتجعل العدو يخطيء في متاهات الدبلوماسية الصحراوية ، وكما عرفنا سابقا فاٴن جيوش الاحتلال فصلت بعض القبائل عن أسواقها التقليدية ، وعلاقاتها الاقتصادية والاجتماعية بالصحراء ، ولذلك فاٴن التجنيد الكامل لقبائل الصحراء وراء "أولاد سيدى الشيخ" يرجع الى سوء التسيير ، والانهاك الذى تعرضت له من طرف الاحتلال ؛ وهو الذى انساها كل النزاعات القديمة ، والصراعات العائلية . * (1)

.../...

(1) voir, LAMARTINIERE, LACROIX:- "Documents.." et TRUMLET:"Histoire de l'Insurréction des OULED SIDI CHEIKH"1864; et A.R.GOLDZEIGUER: Le Royaume Arabe ..et M'BOUKHOBZA:- "L'Agropastoralisme...".

ويمكن التحديد من فداحة الخسائر التي تتعرض لها القبائل المنتفضة مثلا ، القطيع الذى يبيده العسكر ،أو الخيرات التي ينتهبها ... أو الجياد التي يقتلها في الحرب.. بالهجوم على القبائل الموالية له : واقتطاع جزء من الخسارة ،كما أن "المغاربة" قدموا حججا لتضامنهم مع سكان الصحراء :ـ فالحجة الاقتصادية تتمثل في شرائهم للحبوب من قبائل "التل" ؛ والحجة القبليلية هي أن المساعدة العسكرية للقبائل المنتفضة على القبائل الخاضعة للحكم الفرنسي تجلب لهم الربح ، والحجة السياسية ، هي مساهمتهم في الكفاح ضد المخزن العلوى الذى يستغل القبائل الموجودة على الحدود ،والتي تبحث عن حريتها ، أما الحجة الدينية ،فهي تجند "الاخوان" ذوى المشارب المختلفة ضد ("الرومي") المحتل في هذه المنطقة التي توسع فيها مجال المذهب الصوفي ، ولابد من الاشارة الى أن هاته الاخوانيات (مثل :ـ التجانية بحسين ماضي) قد مست من طرف الاحتلال الذى قلص تجارة القوافل وألغى النخاسة (تجارة الرقيق).. فهذه المرحلة كلها كانت تتسم بعدم الاستقرار ، وبالانتزاع القسرى لأراضي العرش ، وبالسلطة المطلقة للقياد والبشاغوات الذين أخذوا ينصرفون في السكان وكأنهم ملكيات تباع وتشترى ؛ وشعر هؤلاء بالأذى يصل الى كرامتهم وشرفهم ، بل ضرب المقومات الكبرى التي تبنى عليها شخصيتهم ؛ وتفتت القبائل ،والدواوير ، والاتحاديات ، وعمت "المجاعة" ، وأصبح "البدوى" يسير على "غير هدى ، فقد ضاع كيانه وشعر بأن وجوده في خطر ، كل هذا ساهم في تصعيد حركة الانتفاضة من الشمال الى الجنوب * (1).

.../...

(1) M'BOUKHOBZA:- " l'Agropastoralisme", et LEHURAUX:"Nomadisme et colonisation" (1931) et A.R.GOLDZEIGUER: "Le royaume Arabe " PP530-534.

3) — نتائج الانتفاضة :—

بادخال التقنيات الحربية المتطورة الى الجزائر أخذ ميزان القوى يميل الى جيش الاحتلال الفرنسي ، وكان رد سكان القصور — حيث سنتطرق اليهم فيما بعد — هو الاستيلاء على احتياطي الحبوب ، والاقوات المتراكمة ، وأخذ سكان الصحراء و "أولاد سيدى الشيخ" في الانقسام على أنفسهم ، وفي احياء النزاعات القديمة ، وهنا وجد (الحزب الاستعمارى) الفرصة مناسبة في أخذ زمام المبادرة من النظام الامبراطورى الذى كان يريد تأسيس الامبراطورية "العربية" ، وأخذ هذا الحزب في البحث عن شخصية موالية لفرنسا داخل هذه الاتحادية ، التي تتميز بقوة نفوذها على قبائل الصحراء والتل على حد سواء باعتراف الضباط العسكريين ، وقد وجدها "ماك ماهون" في شخصية "سليمان بن قدور" * (1).

ويقول "كورجيه" : "لكي نربط بين المصلحة الأوروبية ، ومصلحة الأهالي ينبغي علينا أن نمسك برقاقيص الساعة دون أن نعطل من الحركة المنتظمة ، وهذه المهمة يقوم بها الأشخاص الموهوبين ... ثم يضيف :— مالحكم الذى يصلح في الجزائر ؟ يجيب :— هناك حكم واحد ، ذو درجة عالية يمكن أن يؤدى بالأمور الى الاتجاه الأحسن ، انه الشخص ذو الكفاءات المتعددة ، الذى يمتلك الى جانب الحكمة طاقة واسعة ، فهو "سيد" الأسياد في المسائل الجزائرية ولكن هذا الانسان ، هو الذى يصبح مثبط الهمة بواسطة بعض الانتقادات التي يوجهها له بعض الكتاب غير الواعين .." * (2).

.../...

(1) A.R.GOLDZEIGUER:- "le royaume Arabe" ..op. citée P538.

(2) F.GOURGEOT:-" Situation Politique " ..op. citée PP183 - 186.

فالاحتلال كان يبحث عن قائد مخلص في "الداخل" ، و "حاكم فرنسي" ذو مواهب وكفاءات متعددة من الخارج ، وهذا الغرض هيمنة فرنسا على الجنوب ، والصحراء ، ونجحت أيضا حملة التسميم التي انتهجها الاستعمار بنشر جواسيسه على الاقل على الصعيد الحكومي ، ومن ثم لم يكن التلاحم قويا الا بين القبائل المغربية ، و"أولاد سيدى الشيخ" الغرابة الذين تابعوا مناوشاتهم دون امل في النصر ، اما سكان "القصور" فقد طلبوا "الامان" مخافة النهب ، مثل "قصر" عين بن خليل " .. أما الصدمة النفسية الكبرى التي اصابت سكان الصحراء فتتمثل في قطع التحالف التقليدى بين سكان "القصور" و "البدو الرحل" نتيجة لهذا التغلغل ، ولا يستهان بالدور الذى قام به الرهائن الذين رجعوا من "وهران" في بث الدعاية العسكرية — التفوق الفرنسي — في أوساط "الاهالي" وهذه المرحلة تشهد على تفتت بنيات المجتمع ، والتقهقر الاقتصادى (البؤس ، الموت ، الاوبئة) ، وكذلك فان الاحتلال لم يدخل فقط "الرأس مال" عن طريق انتزاع الاراضي وانما ادخل نمط ثقافته ، وتعبيره ، وعلاقته بالعالم الافريقي والاسلامي ، وكذا فان الظلم ، والقهر ، والاوبئة قد امتصت طاقة بربر الشرق ، والقبائل ، وسكان "الاوراس" .. وهذا يشهد على تشابه الظروف والتنظيم بين سكان الصحراء والقطاع البربرى :— وتوضح ذلك "غوردى" بعدة أمثلة في قيامها بدراسة حول " المرأة في الاوراس" ، و "المجتمع النسائي في جبل عمور وكسال " * (1).

.../...

(1) M.GAUDRY:- "La société féminine .."op.citée , et A.R.GOLDZEIGUER : - le royaume Arabe PP545-547. , et LAMARTINIERE ; LACROIX :-" documents T:2 op.citée P82 et suites.

وأخذ الاحتلال من جهة أخرى في تثبيت الجزائر بين غلى الأرض ، وهذا لكي يتمكن من مراقبتهم بفعالية ، ولكي يتجنب كل انتفاضة بالاضافة الى ذلك فان المرور من "الخيمة" الى "الكوخ" أصبح رمزا لنجاح الحضارة على البربرية (التوحش) .. وهذا ، ما أدى الى فتور العلاقة التي تربط بين "القبيلة" و "الأرض" ، وأصبحت الفرصة مناسبة للمعمرين الاوروبيين في شراء الأرض بأثمان بخسة ، وشجعت حركة الهجرة نحو الجزائر . وهذا مانلاحظه من تقرير حي في حولية "مؤسسة التوسع الاستعماري " 1901م :ـ فبعد أن تتحدث هذه الحولية عن تفوق العرق الفرنسي على الاعراق الاخرى ، وبأنه حامل للحضارة ،وأن هدف الاستعمار هو تحويل العامل والمزارع والمستخدم الفرنسي الى "معمرين" ... ثم تتحدث عن العلاقة بين الولادة والهجرة ، ويقارن هذا بوضع ألمانيا وأنجلترا وايطاليا التي تفوقت على فرنسا من حيث حجم الولادات ،لذلك هجرت كل أبنائها ليمتد سوقها ، ومجال استغلالها الى أبعد الحدود ... فانها تصل الى تبني الشعار : "اهجر لتنمو" لكي يكن تجاوز "اضراب المهد" (انخفاض الولادات) .. ثم تتحدث الحولية عن ضرورة الاستعمار: وتؤكد بأن الخصائص الموجودة في المجتمع الفرنسي هي خصائص جيدة (المرونة ،وسرعة الاحتكاك بالشعوب الاخرى) ، ويضيف "المحرر" : ـ "ولدينا في الطبقات العليا الفرنسية عناصر كفأى للهجرة .. وهي مستعدة لفعل شيء ما خارج الوطن الأم ، والمثل الذى يقول : "الثروة التي لا تنمي ،تقلص" مثال صحيح خاصة في عصرنا الحاضر ، فالبرجوازية المتوسطة والصغيرة سوف لن تتأخر في امداد حركة

../..

الهجرة بمجموعات متلاحقة ، وسوف نحس بأن الأزمة الاجتماعية التي يحددها الانتشار السريع للتعليم سوف تضمحل بالضرورة نتيجة الهجرة "... "ان حل الأزمة الصناعية ، (اضرابات العمال) ، وحل الأزمة الزراعية (نزوح سكان الريف) يتمثل في توجيه الهجرة الى ما وراء البحار ... ثم يحدد الخصائص التي ينبغي أن يتمتع بها "المهاجر" ثم نجد في اختتام هذه الحولية مايلي :- "وقد رأينا النتائج المشجعة لاستعمارنا الرسمي للجزائر ، فقد أدت الى اغتراب العرب وادت الى فقرهم .. وقد منعت كل استغلال منتج (بأستثناء انتاج العنب - * (1) .

كما أن الروح "الجماعية" التي كانت تتسم بها هذه المجتمعات أخذت في التلاشي والاحتضار .

بعد هذا العرض عن الاحتلال الفرنسي للجنوب الوهراني ، ورد الفعل الذى تمثل في الانتفاضة "القوية"، "أولاد سيدى الشيخ" ثم تحليل آثار هاته الانتفاضة على الصعيد النفسي ، والاجتماعي ، والسياسي ، وأخيرا توضيح الملامح الرئيسية لسياسة "التعمير" .. سوف نتطرق الى "التخصيص" ، وذلك "بدراسة حالة " لأحدى الشرائح التي تمتع بعلاقة "قرابية" قوية بها ، والتي ذكرناها سابقا ، والتي تعتبر أيضا "قبيلة مرابطين" تدعى " أولاد سيدى أحمد المجدوب " والتي يطلق عليها أختزالا بالمجادبة .

---

(1) Bulletin de la Société d'Expansion COLONIALE (1° Année) N° 1 JUIN - JUILLET 1901 , BORDEAUX- FRANCE .

.../...

الفصـــــــل الثالــــــــــث:

1) — "المجادبة" :— أستقلالية أم أستثناء ؟

— سؤال في عنوان ؟

يمكن تبرير ذلك بتقديم بعض الملاحظات والتفسيرات:—

يعتبر "المجادبة" أقرب القبائل قرابة لأولاد سيدى الشيخ بعد اخوة سيدى الشيخ طبعا ، فجدهم "عم" سيدى الشيخ كما ذكر سابقا ، وهذا يمنحهم نوعا من الاجلال والتكريم .

* يحتق "المجادبة" الطريقة "الشيخية" بالاضافة الى "الطيبية" ، وهذا اعتراف ضمني بسيادة هذه الاتحادية على كل القبائل مهما كان مركزها ، وصلتها القرابية بها .

* يلحق "المجادبة" بقبائل "حميان" لدى كثير من المؤلفين الفرنسيين ، وحتى لدى بعض القبائل "التليية" ، وهذا الخطأ شاسع . وينكر "المجادبة" هذا الانتساب طبقا لما ذكر سابقا ، لأن بعض قبائل "حميان" نفسها تدين لهم بالولاء ، وتقدم لهم بعض المنتجات الرعوية بأعتبار أعضائها "خداما" .

* يتضح "تاريخيا" أن هذه القبيلة الكبيرة عدديا ، حيث يمكن اطلاق تسمية "عرش" عليها : كانت موالية لكل الانتفاضات سواء تحت اسم "أولاد سيدى الشيخ" ، أو "بوعمامة" ، وذلك لكونها عانت من الآثار المباشرة للتغلغل الفرنسي .

فهذه القبيلة الكثيرة عدديا ، تنقسم الى عدة شرائح ، يسميها هؤلاء ("كوارط" : جمع "كارطة" وهي كلمة فرنسية محرفة ... Carte) .

.../...

لكل شريحة شيخها ، وأصحاب الشورى فيها ، وهذه الشرائح كالتالي :ـ أولاد "سيدى محمد" ـ أولاد "سيدى بوبكر"ـ أولاد "بن عبدالله" (ـ الحبادلة ـ) أولاد الحسين ـ أولاد الحسن، أولاد "الماحي" ـ المقارنة .

ولكل شريحة من هاته الشرائح اعتبار اجتماعي خاص، "فأولاد "سيدى محمد" يحتلون أعلى السلم الاجتماعي ،وكان من بينهم كثير من الاشخاص الذين اختيروا كنخبة منذ الاحتلال الفرنسي ، أى منهم تفرعت النخبة السياسية ، والقيادة لحد الآن .. وحتى بعد انشاء المجتمعات المخططة التي تقوم على المؤسسات الحكومية ، ووجود البلدية ، فانهم يتمتعون بنفس المكانة رغم النزاعات التي مصدرها في أغلب الأحيان التنافس على "الزعامة" وحيوية "المصالح" .. ويمتازون بالوجاهة وحسن التدبير والرأى والشجاعة مع استثناءات طبعا .

أما "أولاد سيدى بوبكر" فهي شريحة تمتاز بنخبويتها ويمتاز أعضاؤها بالطموح ، ومنافسة أشقائهم "أولاد سيدى محمد" على الزعامة : وكان من بين أعضاء هاته الشريحة "قيادا" في عهد الاحتلال الفرنسي .. وفي هذا المجال لابد أن أذكر بأن أهل هاته المنطقة يعتزون ويفتخرون لكون احد أسلافهم: "قائدا" أو "آغا" وكأن ذلك دليل على رجاحة العقل وسمو المكانة بينما يتذمرون من أولئك الذين خانوا الثورة التحريرية، ويحاولون بكل وسيلة ابعاد انتسابهم اليهم ، وينقل الينا أحد المخبرين * (1) بداية ولادة هاته الشريحة من خلال "سيدى بوبكر"،

.../...

* (1) يدعى "الحاج الصديق" .

فقد توفيت والدته ، وتركته رضيعا لأخيه محمد الذى كان "يعطف عليه" ، ويرضعه وهذه كرامة تنسب الى سيدى محمد ، ولها بالطبع دلالة رمزية ، وكان سيدى بوبكر يترك رفاقه الصغار ، ويذهب مع أخيه "محمد" الى الصيد وفي احدى المرات أراد أختباره ، فأجابه بما يشبه المثل :- "ماقتلناه قد قتل ، وما أمتنع عنا تاه " .

أما المقارنة فجدهم يدعى "محمد آمقران" ، وهو صاحب الزاوية ، كان مشهورا بالكرم وحسن الضيافة ، وحينما أراد "بو الانوار" أحد اقاربه أن يقوم بواجب الضيافة تجاه بعض زوار الزاوية سأله ، محمد أمسقران :- هل أنت معاند أو مساعد ؟ فأجابه : " انا مساعد ولست معاندا" .

فدعى عليه بكثرة الذرية ، وذلك بقوله :- " الله يجعل منك الدواوير والنواوير ، ونتيجة لخلاف بين أولاد "أبو الانوار" وأحد القياد "فقد قرر بعض "المجادبة" ترك "البيض" ، والاتجاه نحو "عين الصفراء" ، حيث توجد شرائح أخرى وجموع من "العمور الغرابة" .. وأبناء "أبو الانوار" هم الذين آتوا بأولاد الحسين الى هذه المنطقة — وقد كان الشرفة بهذه المنطقة أيضا ، واستقبلهم "سيدى مولاى" أستقبالا حسنا يليق بمقامهم .. اذن فقد تخلى المجادبة عن "البيض" الى "عين الصفراء" في 1904م .. وكان فيها "أولاد الماحي" ، و "أولاد سيدى محمد" ، و "أولاد بن عبدالله" "العبادلة" وهؤلاء قد حرموا من ميراث "بو الانوار" لوفاة والدهم ، وقد كانت رحلتهم "القوررارة" في أكتوبر ، وفي الشتاء ، وفي الربيع ، ويرتحلون مرتين في الصيف نحو التل * (1).

.../...

---

* (1) هذه المعلومات قدمها لنا نفس المخبر "الحاج الصديق" الذى ينتسب الى "اولاد سيدى بوبكر" .

علاقة هذه القبيلة بالقبائل الأخرى:

وبتتبع تاريخ "أولاد سيدى أحمد المجدوب" يتضح لنا أتساع هاته الشرائح ، وتوزعها على التل والصحراء ، وكما ذكرنا سابقا ، فهم ينتشرون بين الصحراء والتل والسهوب ... وكانوا يمارسون قبل هجرة "بوعمامة" الغزو مع القبائل البدوية المجاورة . وكأننا نشهد التناحر القبلي الذى كان سائدا في شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام .. وهناك أحداث كثيرة لاحصر لها يذكرها بعض المخبرين المسنين . وكأنها قسم هام من تاريخ يذكرونها بفخر واعتزاز ، بل ينظم بعضهم حولها القصائد ، أو يذكر القصائد التي قيلت بمناسبتها ، سواء اكانوا "شعانبة" أم "ذوى منيع" أو غيرهما .. غير انه قلما نسمع عن صراع بين "المجادبة" ، و"أولاد سيدى الشيخ" نظرا للقرابة الدموية ، والاحترام من طرف هؤلاء أو أولئك ..وكان الهدف هو الاشخاص الاثرياء والمربين الكبار وقد تقع بعض الاستثناءات ،أى يكون هناك سلب لأجل النهب ، لاأكثر ولا أقل ، وكل غزوة تعقبها بعض الخسائر في الارواح طبعا ، ومازالت مأثورات القبيلة تتغنى بالابطال الاجاويد الذين أشتهروا بالشجاعة والجرأة في المعارك والغزوات تنقلها الجدات للاحفاد ، والامهات للابناء .. بل نجد عند القبائل الاخرى نفس الانطباع عن هاته الشجاعة التي يتحلى بها أفراد القبيلة تصل في بعض الاحيان الى اتهامهم بالتهور ...

وعقبت فترات الغزو ، فترة انتعاش في تربية الماشية ، ونزع الحلفاء ورحلتي الشتاء والصيف الى "قورارة" (نواحي تيميمون) والتل لالتقاط الحبوب ، والعمل الموسمي في المزارع ولاينبغي نسيان التجارة التي ازدهرت في منطقة ميزاب ، أى تجارة ...

.../...

"الأقمشـــة" (البرنـوس، وثيــاب الأطفـال مقابـل : السكر والشـــاي) أي كـل المنتوجـات المجلوبـــة من المغـــرب والتي كانـت تدعـى "بالديوانة" (المجمركـــة) ، وهـــذا كـان مـصدر الـرزق بالنسبـــة لبعض العائـلات. وهاتـه المراسلـــة التجاريـة بـين شـرق الصحـراء وغربهـا جعلت بعـض البدو يكونـون رأس مالا سمـح لهـم بشـــراء الماشيـــة ، والعهد برعايتهـا لمجموعـــة مـن "الخـــدام" لحراستهـــا ، ومن ثـم يـبرم عـقد بـــين الراعـــي و"المالـك" يتفـق عليـــه الطـرفـان ، حـيث يقـوم هذا الاخـير بتقديـم الكســـاء له واطعامـــه ، وتقديـم "عشـمـة" له ولعائلتـــه بجـــوار الخيمـــة "الكبـــيرة" .

ويتبـين لنـا أيضـا ، بأن الرعـاة كانـوا يستقدمـون من خـــلال الاتصـال بالقبائـــل الموجـودة فـي المنطقـة مـثل : "أولاد زيـــاد" ، و "عكرمـــة" ، و "الكرارمـــة" و "بـني عقبـــة" ، و "أولاد سيـدي التـــاج" ، و "الحمـــور" ... الخ ، وبالمـثل كانـت بعـض هـذه القبائـل ، و"حميان" تستقـــدم الرعـاة ومربـي الماشيـــة من هاتـــه القبيلـــة أيضـا ، وهنـا يختـل الاحـترام والمكانـــة المميزة للقبائـل "المرابطـــة" مـع السيـادة والهيمنـــة الممارســـة من طـرف "المالـك" عـلى "الراعـــي" .

أما أنـواع الاتصـال الأخـرى ، فلـم تكـن مرضيـــة فـي بعـــض الأحيـــان ، مـثل الغـزوات التي ذكرناهـا سابقـا .. أو المناوشـات التي كانـت تقـع بـين "المجاديـة" والقبائـل الأخـرى ، مثلمـا وقـع مـــع قبيلـــة "الشعانبـــة" الـتي لم يكـن فـي نيـة "المجاديـة" غزوهـــم، فقامـت معركـــة أنتهـت بقتلـى من الطرفـــين ... وهـذا كلـه نتيجـة سـوء تفاهـم ، حـيث عـرف فيمـا بعـد "الشعانبـة" بأن نـوع الرصـــاص المستعمـل ليـس من قبيلـــة مناوئـــة فتوقـف القتـال ، وتراضى الطرفـــان ، وقدمـت الديـة مـن كلا الطرفين :ـ وهـذا مايثبـت أن الحس العسكـــري لـدى البـدو الرحـل يفـوق كـل تصـــور .

.../...

وكان هناك اتصال عريق بين "المجادبة" وحميان "الجنبة" الذين يوجد بينهم "الغياثرة" (أولاد مسعود وغيرهم ..)، وهذا الاتصال بين "حميان" و "المجادبة" هو الذى جعل بعض المؤلفين يلحقونهم "بحميان" : فمثلا "غولد زايقر" حين ذكرت أن غزو بعض القبائل الموالية لفرنسا كان يضمن تغطية جزء من القطيع الذى أباده الاحتلال والخيرات التي نهبها، أو الاستيلاء على الجياد الضرورية للحرب:— ثم تنتشر هاته القبائل الغازية على السهب لكي لايسمح للعدو القيام بهجوم مضاد. تقول "وهذا مافعله "سي احمد" (ابن حمزة) في 1868 م حين جمع الشرائح (الثلاث) لحميان: "الشافعة" ، "الجنبة"، و "أولاد سيدى احمد المجدوب" ، وهجم على القبائل الموالية لفرنسا ، وهذا مايظهر بأن هاته القبائل المنتفضة قويت شوكتها" *(1).

ويذكر "لاكروا" هذا التجاور ، و "التخييم" في عدة مقاطع من مؤلفه فذكر أن "أولاد سيدى أحمد المجدوب" كانوا يخيمون مع حميان الجنبة ، وفي "1878" سمح لهم بالدخول الى قطاع البيض ، ويشير الى خطأ المفاوض الفرنسي الذى اعتبر حميان "الجنبة" أعضاء مغاربة (طبقا لمعاهدة 1845) وهذا ما أثار بعض الاشكالات فيما بعد * (2) مع انهم تحت هيمنة فرنسا ويدفعون الضرائب لها ، ويقبلون بالقياد الذين تختارهم ، وبما أنهم يحلون دائما شرق الشافعة ، فانهم يرتحلون حتى الطريق التي تربط بين سعيدة والبيض. وفي التقارير العسكرية نجد أيضا أن "الجنبة" يخيمون مع "المجادبة" في الصيف أو في "رأس الماء" ، ويتجهون حتى الهضاب العليا "للضاية" حتى "الحمام" ، ويختارون في الأغلب الشط الشرقي والآبار الموجودة غربه ، ويدفعون بقطيعهم حتى المشرية والنعامة ،

.../...

(1) A.R.GOLDZEIGUER:- " le Royaume Arabe"...op.citée P 529.

* (2) من بين الطلبات التي وجهت لحاكم وجدة مايلي : "في شهر جوان 1879 فان فرسان أهل وجدة اخترقوا الحدود ، وأخذوا ضرائب من "أولاد سيدى أحمد المجدوب" الذين التحقوا بقطاع البيض في نوفمبر 1878 ، وهذه الضرائب لم

ويختزنون أقواتهم بحسلة وتبوت ، وعين الصفراء ، وتضيف هاته التقارير بأن "الجنبة" يحتكون بأسواق الغرب ، لكنهم يختارون قبائل "سيدى بلعباس" الذين يصلون اليهم بواسطة "وادى فرطول" أعلى نهر "يسر" ، لذا فحميان "الغرابة" يقتسمون قصور عين الصفراء مع "العمور" * (1).

واذا كانت هاته التقارير تشير الى العلاقات التجارية القائمة بين قبائل السهوب والصحراء ، أو مع قبائل "التل ، فانها قلما تشير الى العلاقات الوطيدة التي قد تصل لحد المصاهرة والتحالف ، فاذا أخذنا مثال :ـ "الشرفة" الموجودين بالمنطقة ، والمنحدرين من "تافيلالت" ، فانهم آثروا البقاء في الأراضي الموجودة بين "فقيق" و "ايش" من جهة ، و "عسلة"، و "بوسمحون" من جهة أخرى ، نلاحظ أن "المجادبة" قد صاهروهم ؛ وهذه الظاهرة تدل على أعتراف ضمني من هؤلاء بهاته القبيلة "المرابطة" ؛ ولحد الآن مازالت هناك علاقات وطيدة تربط بين هاته الشرائح من الشرفة ، وهؤلاء .. والشرفة يمتلكون أهم حمام معدني يدعى "بحمام ورقة" ، والمباني التابعة له ، ومازالوا لحد الآن يعتقدون إن هذه الملكية هي حق تاريخي لاينازعهم فيها منازع .

د) ـ الهجرة الى التل :ـ

كانت هذه القبيلة تنتقل بمختلف شرائحها ، كما ذكرنا سابقا ، من الشمال الى الجنوب ... واذا أستثنينا الرحلات الثلاث رحلة الخريف والشتاء والربيع نحو "قورارة" لجلب التمر ، ومبادلته بمنتوجات الصوف ، والسمن ، ومشتقات الأغنام ، ويتجهون مرتين في الصيف للتل لالتقاط الزرع والحصول على "العلف" في السنوات

.../...

(1) LAMARTINIERE, LACROIX:- " Documents..." op.citée T:-2 PP 196-198.

الجفاف أو ممارسة العمل "الموسمي" كيد عاملة مأجورة لدى سكان التل ، فإننا نحتمل وجود ظروف قهرية مثل الممارسات الاستعمارية وحملات الطرد التي كانت تتعرض لها هذه القبائل ، الى جانب المتابعة المستمرة لهذه القبيلة من طرف "القياد" الموالين لفرنسا ، أو حتى الآغوات الذين كانت تأمرهم بتأديب القبائل المنشقة .

النخبة في ظل الاحتلال :-

لا يساورنا الشك في أن نخبة هذه القبيلة كانت تحتل مكانة محظوظة في التل ، فبعد تسمية "سليمان بن قدور" * (1) ، تدل التقارير على أن :- "هذه التسمية كانت مقبولة من طرف "حميان" الذين كانوا يطلبون بالحاح رئيسا من الصحراء ، يعرف عاداتهم وحاجاتهم ، ويخيم معهم بقطيعه وعائلته ، يهتم بأمنهم الذى هو أمنه في نفس الوقت ، يقتسم معهم الأخطار ، ويعرف أعداءهم والطرق التي يجب أتباعها للمقاومة ، وينتمي الى أصل "مهم" ، أو يكون شخصية مهمة تتجاوز طموحهم ، وتساعدهم في كل الظروف .. ورغم الحرب "البروسية" فإن "حميان" لم يتحركوا ، وهذا بفضل جمع "سي سليمان" لشملهم ، ولولاه لانقض عليهم "سي قدور بن حمزة" . و خروجهم عن طاعة فرنسا كاد يؤدى الى أتباع كل بدو الشرق لهم ، وبذلك تصل الانتفاضة للتل ، ولكن نتيجة لبعض التجاوزات من طرف "سي سليمان بن قدور" ، فقد أنشقت ثلاثون خيمة لعكرمة "حميان" "الشافعة" ، وأولاد سيدى أحمد المجدوب (سبتمبر 1871م * (2) ، وقد جابه "سي سليمان بن قدور" هذه القبيلة المنشقة ، وأراد اخضاعها بحد السيف ، وكان

.../...

* (1) هذا قرار الحاكم العام في 1870/07/28 ، وهذه القيادة تشمل : حميان الغرابة (الشافعة) ، الجنبة ، وأولاد سيدى أحمد المجدوب ، والمهاية الذين التجؤوا الى أرضنا والذين كانوا مرتبطين بقطاع البيض، قصور عسلة ، تيوت ، عين الصفراء ، مقرار "الفوقاني" مقرار التحتاني وعصون صفيصيفة "الزوى" ، وأولاد سيدى الشيخ والشرائح المهاجرة أو القاطنة ، الطرافى ، الزريقات ، والاغواط - كسال الرزاينة .
In:- "Documents......" op.citée P211.

(2) LAMARTINIERE, LACROIX:- " Documents...... " op.citée PP212, 213.

هنـاك اتفـاق عـام بـين شرائـح القبيلـة لمواجهتـه ، ومناجرتـه وكـان دائـم المتابعـة لهم . وقـد عاشـت القبيلـة ظروفـا قاسيـة مـن هـذه المتابعـة ، وألتجـؤوا الـى قبيلـة "الكرارمـة" بجـوار "قـوورارة" ، وقـد طالـب "سـي سليمـان" شيـخ الكرارمـة بتسليـم "المجادبـة" له ، لكنـه رفـض ذلك وأعلـن حمايتـه لاخوالـه "المجادبـة" (صلـة القرابـة "القبليـة" وليسـت المباشـرة) واعلنـت القبيلـة موعـدا لمقارعتـه . الـى أن كسـروا شوكتـه ، وبذلـك كسـروا الـدرع الذى يحمـي السلطـة الفرنسيـة ، وبذلك عـزل بقرار فـي "1871/12/19" . وكـان هـذا أهـم سبـب فـي عزلـه بالاضافة الـى طموحـه اللامحـدود ، و"شراسـة" طباعـه كما تذكـر التقاريـر.

وكانـت نخبـة هـذه القبيلـة تحتـل مكانـة محظوظـة في التل ، فقـد ولـى علـى مكتـب "تـلاغ" ، و"سبـدو" **قيـاد** من شرائـح هاته القبيلـة يتولـون أمـور قسـم من سكـان "التـل" الوهراني ، والجنـوب الوهرانـي ، حيث لايخفـى على سكـان المنطقـة اسمـاء مثـل :ـ القائـد "بوعمامـة" الذى كـان في تـلاغ ، و"محمـد بن بوبكـر" الـذى خلفـه ، ولهـذا أطلـق سكـان التـل العبـارة الـتي تشبـه المثل :ـ القائـد على جملـه ، والخليفـة عـلى ناقتـه :ـ والذى يـراد منـه العصبيـة القبليـة ومحابـاة الاقـارب .. اذن ، فقـد ترك القيـادة لابـن أخيـه لكبر سنـه ، وقـد تولـى عـلى المجادبـة قيـادا مثـل الميلـود "الشقـة" ، و"السي قدور بن الميلود" الذى أسقطتـه فرنسا ، لأنـه لم يخـدم مصالحهـا الحيويـة ، وكـان حسـن السلـوك مع "الرعايا" ، ففرنسـا هـي التي كانـت تقوم بتعيينهـم وعزلهـم .. وقـد قسـم أولاد سيـدى أحمـد المجـدوب الـى الشراقـة والغرابـة طبقـا لمعاهدة 1845م.

وهذا قصد تشتيت قوة هذه القبيلة ، والسيطرة عليها ورغم اختيار فرنسا لهؤلاء القادة الا أنهم كانوا يتمتعون باعتبار اجتماعي ممتاز لدى رعاياهم وذلك لرجاحة عقولهم ، وعدلهم في تصريف شؤون محكوميهم ، وقد شذ من هذا السلوك "أحمد ابن الطيب" الذى كان سيء الحكم واشتهر بالرشوة والسمسرة وبعده تولى القيادة "امحمد بن بوبكر" الذى كان قائدا على المجادبة حتى وكير وعمي ، وبعد هاته المرحلة ونتيجة لظروف سياسية واستراتيجية معينة انتهجها الاحتلال ،أصبح "المجادبة" تابعين لآغا "تيوت" ، حيث كانت عائلة أبناء بلعيلود ، الذين ينتمون الى الاشراف المنحدرين من الرسول -ص- عن طريق ابنته فاطمة ، ويدعى جدهم "بسيدى احمد بن يوسف" الذى يوجد ضريحه بمليانة ، ويروى أن أولهم "الباشا آغا" الخلادى الذى تولى السلطة على المجادبة والعمور، وهو في السابعة عشر من عمره ثم تولى أخوه عبدالرحمن وتلاه "المصطفى" وأخيرا "رضوان" الذى أدركته الثورة التحريرية وانضم اليها .. وبذلك الغي نظام "القيادة" ونظام "الاغوات" .. أما بالنسبة الى شريحة "أولاد سيدى محمد" ، فالسلطة والنخبة فيها لم تخرج تاريخيا عن اطارها ، أو تشاركها فيها شريحة " أولاد سيدى بوبكر" .. وكانت ذات نفوذ قبل الاحتلال ، وذلك لشرف نسبها بين الفصائل الاخرى ، فكان الوجهاء ، والاشخاص الذين يحسنون الفصل في القضايا التي تعرض للبدو في حلهم وترحالهم ، كذلك امتازوا بمكانة اقتصادية مرموقة بين الفصائل الاخرى ، بل أن أغلبية الاشخاص الذين كانوا يقومون "بضيافة" "القياد" و"الباشاغوات" هم من هاته الشريحة ، التي ينسب الى سلفها كرامات لا حصر لها .

.../...

وبمشاركة هؤلاء الزعماء ، الذين كانوا يقودون القبيلة ويوجهونها ، أمكن لحركة "بوعمامة" أن تجد الميدان الخصب (الحيوى) لنشاطها واتساعها ، فما مدى مشاركتها في الانتفاضة ؟ .

دورها في انتفاضة الشيخ "بوعمامة" :ـ "1881م" .

ـ من هو "بوعمامة" ؟ هو "محمد بن العربي" ، ولد بقصر "حمام الفوقاني" بجوار مدينة "فقيق" في 1840 ، وحسب معاهدة "1840" م فهو ("مغربي") ينتمي الى قبيلة "أولاد سيدى التاج" المنتمية الى أولاد "سيدى الشيخ الغرابة" ، تعلم القرآن الكريم في صغره ، وبعض "الطقوس" الخاصة بشيوخ "الزوايا" التي هي مفتاح الاستلهام ، وقدم مع أسرته حوالي 1874م الى الاقامة في "مقرار التحتاني" بقرب ضريح جده "ابراهيم بن سيدى التاج" المتوفي في آخر القرن 17م ، وذلك للعمل على احياء "الشيخية" القائمة على الورع والتقوى ، وهؤلاء الاجداد كانوا يحصلون على "الصدقات" و"الزيارة" من قبائل التل الجزائرى .. اذن فهذه المكانة المتوارثة من آجداده جعلت منه قطبا يجمع حوله كثيرا من القبائل الجزائرية في الجنوب الوهراني للقيام بهذه الانتفاضة * (1) .

تعتبر ثورة بوعمامة من أطول الثورات الجزائرية دامت ربع قرن (1881م ـ 1908) وهذا اذا جمعنا بين جانبيها العسكرى والسياسي ـ

.../...

* (1) عبدالحميد زوزو:ـ "ثورة بوعمامة" "1881 ـ 1908" الجزء الاول المركز الوطني للدراسات التاريخية ، ش. و. ن. ت. الجزائر 1981 ص: 37 ـ 38 .

لكن ماهي المصالح الحيوية لفرنسا في هاته المنطقة ، والتي ذكرنا بعضا منها - ؟ ثم ما أسباب وبواعث الانتفاضة ؟ وأخيرا أحداثها ونتائجها .

1) - المصالح الحيوية لفرنسا :-

بالاضافة الى أستيلاء الاحتلال على أخصب الأراضي بواسطة الشركات ، والوكالات الفرنسية ، حيث توصل الى ضم حوالي 24 ألف هكتار * (1) ، فانّنا نلاحظ أن الاستغلال المباشر للمصادر الاساسية للسهوب من قطيع ، وحلفاء ، هو نتيجة لمتطلبات جديدة أنشأتها الصناعة الاوروبية ، وقد وجدت الصناعة الاوروبية ان الفرق في إسعار " مردود الحلفاء" يتباين بين عجينة "الحلفاء" وعجينة "التبن" ، وبذلك احتد التنافس بين فرنسا وبريطانيا .

ونتيجة لهذه المنافسة ارتات فرنسا تكثيف استغلالها للسهوب الوهرانية ، وادى القطاع الوهراني دوره في هذا النشاط * (2) والحلفاء و زراعة تلقائية لاتتطلب جهدا ، ونشط كلا من مينائي وهران ، وآرزيو ولم يكن ذلك ممكنا الا بتهيئة الخط الحديدى ، والذى أنجز بين 1879 - 1887 م على طول 483 كلم من آرزيو الى عين الصفراء "قلب" الجنوب الوهراني ، وقد اشترط على الوكالة الالتزام بأنجاز هذا الخط الحديدى مقابل السماح لها بأستغلال 300 ألف هكتار في مقاطعة معسكر * (3) .

.../...

(1) D. SARI:- l'Insurrection de 1881 - 1882 , S.N.E.D ALGER 1981 .PP52-53 .

* (2) ويضيف "ح /الصديق" أنه بمجرد ظهور الحلفاء" ، فقد تكثف استغلالها ، واستطاع بعض الاشخاص جمع المال ووصل عدد قطعانهم من "500 - الى 1000 رأس"

(3) D.SARI:- "L'Insurrection...."op.citée,PP 55-56.

وأدى الغاء قانون 1851 م ، الذى كان ينص على حرية الرعي ، واستعمال المياه والسماح بالصيد ، والحراثة بل حتى الاستعمالات المختلفة للحلفاء وخاصة حق استعمالها للرعي أو بنزعها للحاجة في الخيمة أو للحيوانات .

لذلك فهذا الاستغلال المكثف سوف يؤدى الى سوء تكديح اليد العاملة المحلية ، وبذلك تضرب في العمق الاقتصاد المعتمد على المعاش الجهوى والعائلي ، ويؤدى الى استئصال الانسان من جذوره والاختلال الاجتماعي الذى يصاحبه .

من ثم ، فاندماج السهب في الاقتصاد الرأسمالي تولدت عنه مقاومة اشعلتها القبائل المعنية ، وامتدت جذورها لتصل الى العملاء نتيجة لتسلطهم واستبدادهم * (1).

2) بواعث ومحركات الانتفاضة :ـ

ان الاضطرابات التي ظهرت في مرحلة ماقبل ـ الانتفاضة ، كانت نتيجة للاستبداد والاذلال الذى عاناه الجزائريون (من القبائل المنتفضة) من عاملي "العمالات" ، وبعض الاغاوات الذين ولتهم فرنسا ، ولذلك نجد تشجيعا من طرف السلطة الفرنسية لبعض التجاوزات والمبالغات التي يقوم بها هؤلاء ، وقد منحتهم أوسمة الشرف تقديرا لمجهوداتهم .

أما انتزاع أملاك الحبوس ، فلم يكن ذلك الا خطة للقضاء على الثقافة الأصلية شأنه شأن متابعة رجال الدين والعلم .

.../...

(1) D.SARI:- " l'Insurrection..." op.citée P.59

من جهة أخرى أصبح "دليل الأهالي" ، بمثابة الموطر القانوني لهذه التجاوزات حيث ينص في إحدى بنوده على معاقبة من يتحدى على تقصير الحكومة حتى ولو كان خارج مهامه ، كما يمنع من الخروج عن "المشتى" أو "الدوار" .

نوع آخر من التجاوزات يتمثل في الأعباء الضريبية والمغارم ، حيث بلغت في مدة خمس سنوات أي من 1879/1874 حوالي الضعف * (1) وحالة واحدة فقط تبين هذا القهر حيث كان آغا الأحرار يمتلك قطيعا كبيرا من الغنم (800 ألف رأس) ، وثلاثة آلاف بعير ... وكان يتحكم في كل القبائل التابعة وفي رقاب البشر ، ويفرض على السكان ضرائب ومصاريف تفوق قدراتهم خاصة في سنوات الجفاف وكان يستولي على الأراضي والخيرات بواسطة القهر والعسف ، وحاول تربية أبنائه على ذلك مدعيا انحداره من أصل شريف * (2).

لا يمكن عزل الانتفاضة عن هاته المؤثرات ، لأن هذه الظواهر والملابسات كانت بمثابة المحرك ، والمثبط لهذه الجذوة التي إشعلها "بوعمامة" في القرن "14 هـ" ، والتي دعمتها القبائل الموالية له ، وساهم فيها السكان ، وتجندوا لها بسرعة فائقة .

3) — أحداث الانتفاضة وانعكاساتها :—

لتقييم الانتفاضة ، لابد من وضعها في اطار الحركة العامة التي شملت العالم الاسلامي ، فهناك دعوة "جمال الدين الافغاني"

.../...

(1) D.SARI:- "L'Insurrection..." op.citée P66.

(2) Ibid PP66 - 73 .

ونشاط الحركة السنوسية ، كما أن المجال الجغرافي كان متسعا لتقبل هذه الدعوات ، ومثل ذلك حدث لحركة "بوعمامة" التي انطلقت من جبال "القصور" لتصل الى أقصى الشمال الوهراني ، والجنوب الصحراوى ، وقد استغل "بوعمامة" ، وأنصاره حركة التذمر التي سادت القبائل نتيجة لسياسة الضرائب والتجويع ، ومنع البدو الرحل من التوجه للتل ، والحركة المستمرة للجواسيس والمخبرين ليعلن الجهاد المقدس .

وعن الجانب السياسي والدبلوماسي ، فان بوعمامة يمتاز في محيطه بالتواضع ، وعدم قبول التجاوزات التي تطال بعض الاشخاص الذين لم يكونوا على اتصال مباشر بالاحتلال الفرنسي، مثل تأنيبه لاتباعه على قتل بعض المسيرين "الاسبان" في الوكالة الفرنسية - الجزائرية . وفي ملاسلاته السياسية الى الحكام الفرنسيين ، فانه كان يحاول استغلال الوقت لجمع قوته من جديد بعدما أنهكتها الانتفاضة ، وهذا ماجعل "كورجيه" يصفه كالتالي :- " ان مايجعله خطرا كونه قد ورث امتياز "سيدى الشيخ" ويخفى وراء كونه انسانا خيرا تحصبا أعمى انه خبيث ماهر ، والذى يصل خبثه الى تقديم النصيحة لرفاقه بألا يأذوا أحدا حتى ولو كان مسيحيا اذا لم يغزهم ، ومن ثم فان الله هو الذى ينتقم للمسحوقين ، وقد عاتب اصدقاءه على أحداث القتل التي جرت بسعيدة ، و في مراسلاته مع السلطات الفرنسية فانه جعل نفسه شخصا بسيطا لا يقوم الا بجمع الصدقات من "الموالي" ، ولا يهتم بزهو الدنيا الزائف" * (1) .

.../...

(1) F.GOURGEOT:-"Situation politique de l'Algerie" op.citée P15.

ويذكر لنا المخبر الحاج/ الصديق أن ظروف الهجرة والأحوال القاسية التي مرت بها قبيلة "المجادبة" أدت الى ترك عادة "نصب الخيام" وتعويضها بزرائب في كل مكان يحلون به ، هاته "الهجرة" كما يسميها أهل المنطقة كانت طويلة وشاقة ، وتذكر بالحروب الطويلة التي خاضتها اوروبا ، وما أعقبها من مجاعة وخراب ودمار .. اذن ، من نتائج هذه الانتفاضة القضاء على الأسس الاقتصادية لمجتمع الرحل من خلال الوسائل الكبيرة التي جددوها لها ، والامل في أنتصار نهائي ومصيرى .

أزمة 1945 وانعكاساتها :ـ

في بلد مستعمر كالجزائر ، ليس هناك طبقات اجتماعية ، ولكن فئتين من الناس الأولى ، تلك التي تسكن التجمعات الحضرية ، وفيها البطال الذى لايجد مايعمله ، والبقال الصغير الذى يتاجر ويبيع (بعض المواد الغذائية)، و "الشاوش" في الأدارة الاستعمارية ، وبعض المحامين ، و القضاة والصيادلة .

الثانية : التي تعمر قراننا : وهي تتشكل من الرجل البدوى دون قطيع والفلاح دون محراث أو قطعة أرض ... هذا مايذكره لنا "مالك بن نبي" في شروط النهضة" * (1).

ثم يضيف :ـ "الأول : هو المالك الصغير .... minushabens : والذى هو صغير في كل شيء ، الثاني : هو الرجل الطبيعي "........homonatura " فقير في كل شيء .. ولكن في أغلب الأحيان فإن الفقر هو أكثر سلامة ونبلا من كل الصغائر .. فالقاطن قد قبل بوضعه كمالك صغير ، وبذلك فقد ضم الى طبيعته كل عوامل

.../...

(1) M.BENNABI :- " les Conditions de la renaissance" problémes d'une civilisation . ALGER1948. PP99-100.

الانحطاط التي أدت الى اضمحلال الحضارات والتي تتابعت على أرض بلده منذ المرحلة القرطاجية ، انه يحمل اذن روح التقهقر ، وقد عاش اخفاق كل حضارة كانت في منتصف الطريق سواء بالنسبة للاشياء أو المراحل أو الفكر أو التطور .

انه لايستطيع أن يصل الى هدفه ، لأنه ليس نقطة الانطلاق في التاريخ ، كالرجل الطبيعي ، أو النقطة النهائية كرجل الحضارة ، فهو علامة أستفهام في التاريخ والحضارة .. هذا هو ، وضع التشكيلة الاجتماعية الجزائرية فيما بعد 1945 ،
وما ذكره "مالك بن نبي" عن البدوى أو الرجل الطبيعي ينطبق على بدويينا .. فقد ضاع البدوى في متاهات الصحراء والسهوب واستثمرت حركة الهجرة نحو قورارة حتى في إزمة 1945 واغلب السكان يحتفظون بذكرى هاته السنة ، وأصبحت "سنة مرجعية" يسميها بعض السكان بعام "البون" (le"bon" de..) ، لأن توزيع بعض المواد الغذائية كان يخضع لبعض الاجراءات الادارية : أى التوزيع مقابل "القسيمة" ، لقد أصابت أزمة 1945م ، البدو ونصف البدو ، وسكان القصر على حد سواء ، وهذا مايؤكده لنا بعض المخبرين في المنطقة ، لكن بما أنهم تعودوا على ظروف قاسية ، فان وقع هاته الازمة كان أقل وطأة من وقعها على القبائل الفلاحية ، لقد كانت المنتجات الاساسية في تلك الفترة هي : "التمور" ، و"الصوف" ، و"منتجات الماشية" (لحوم ، ومشتقات الحليب) ... وهذا هو رصيد البدوى اذاك ...

اذن فلكون مستوى نمط الحياة كان متوسطا ، فانها لم تزعزع كثيرا المستوى الاقتصادى للبدوى ، وكما قال أحد المخبرين :— "لانه لايمكن انتقاء الغنى من الفقير ، ولم تمس المجاعة المنطقة كما مست القبائل الفلاحية التي تعتمد على الفلاحة " * (1) ويوضح لنا بعض المخبرين أيضا في المنطقة أن أزمة 1929م كان تأثيرها أقوى ، حيث كانت سنة قحط لم ير مثله ، بالنسبة لقبيلة "المجادبة" فان رحلة الشتاء الى "قورارة" كانت أكثر فائدة ، ومردوديتها أكبر :— بينما رحلة الصيف الى التل لم تكن ذات تأثير في تحسين الظروف المعيشية لهؤلاء السكان ، فالسكان في هذه "المنطقة" كانوا يقطعون حوالي 70 كلم للحصول على التموين من " عين الصفراء" ، حيث كانت القسيمة مقابل 5 كلغ من السميد ، وكان يصاحب هذا "الحق" ضغط من طرف الممون .

أصبحت المجاعة هي الخطر الاكبر الذى يهدد السكان ، وأصبح البدوى يبحث عن لقمة "العيش" لكي يسد رمقه ورمق عائلته ، ويحكى أن بعض القبائل البدوية وصلت الى حد تطليق النساء مقابل رغيف الخبز وقد شمل ذلك بعض الخيام ... وأصبحت الرحلة نحو التل ضرورية ، وشملت عدة "دواوير" ، وعدة "خيام" ، وكثرت الوفاة في "المنطقة" وقد يفسر هذا نزوح بعض "الدواوير" الى التل ، وانتشارهم في التل الجزائرى ، وكأننا في هذا العهد نحضر لما حضرله " ابن خلدون" مع فارق الزمان والمكان والاحوال ... وهذه المرحلة كانت تمثل البحث ، والبحث الدائم عن "الاستقرار" :

.../...

* (1) حديث أدلى به "الشيخ والحاج" من سكان القصر.

وعن لقمة العيش ، فكان بعض هؤلاء البدو يقطعون التل مشيا على الاقدام .. انه التحرك الدائم الذى جبلوا عليه في سبيل تامين عيشهم مهما كانت قساوة الظروف التي يمرون بها ، وهو الذى يجعلهم يتحدون كل الاخطار والمصاعب ، هذا بالاضافة الى القضاء على الممارسات التجارية التي كانت قائمة قبل 1945 م ، فقد كانت التجارة نشيطة مع منطقة "ميزاب" ، حيث تطورت المبادلات التجارية ، حتى أن بعض العائلات وصلت ثروتها من الماشية الى عدد كبير من رؤوس الاغنام كما ذكر سابقا ، لكن أزمة 1945م ، قضت على هذا الرأس مال السهبي ، لكن أمكن للمربين أسترداد جزء من هذا القطيع الضائع ، وتوضح "غورد ى" ذلك :— "يوجد أختلاف كبير في الاحصائيات ، والتي تبين الوفاة العالية التي اصابت القطيع بين 1945/1946 م — بعد الجفاف ويمكن ان تصل الخسائر الى ضياع 80% من القطيع في 1945 م ، فبعض أغنياء البدو قد ضاعت جميع قطعان أغنامهم ، وخربت قبائل بأكملها ، ولحسن الحظ فان " ثروة المربي " يمكن استرجاعها بسرعة ..

ويقدر "المربون" بأن اعادة تشكيل القطيع يتطلب " خمس سنين" ، وفي نهاية 1949م ، فان وضعية القطيع تحسنت بشكل ملحوظ حيث غطت 50% من الخسائر ، وذلك للظروف المناخية الجيدة والموسم الزراعي الجيد * (1) ، ويذكر بوخبزة أيضا هذا الحدث (أزمة 1945) لم يساعد على الرفع من نسبة التوطين بالمقارنة مع الفترة الممتدة بين 1910/1940 ويبين في جدول آخر أن عدد العائلات التي وطنت بين 1941/1953 في ولاية سعيدة هي حوالي 173 عائلة * (2) .

.../...

(1) M.GAUDRY:- "la société féminine..."op.citée P34.

(2) M' BOUKHOBZA:- " L' Agropastoralisme".. op.citée P304.

هذه المعطيات التي قدمت من طرف "غوردى" ، و"بوخبزة" تبين لنا الظروف التي مرت بها السهوب الجزائرية (الجنوب الغربي) بعد هاته السنة ـ المرجعية (1945م) ، سواء من ناحية ضياع رأس المال السهبي (الماشية) ، أو من حيث اجبار بعض العائلات على الهجرة نحو المناطق الحضرية ، وهذا ماوقع لمجموعتنا التي تقوم بتتبع تطورها والأطوار ، التي مرت بها منذ هذه الفترة ، فعلا ، فقد أضاع الاشخاص عددا من قطيعهم بل وصل الأمر ببعضهم الى فقد القطيع كلية ، سواء نتيجة للجدب الذى أصاب المنطقة أو المجاعة التي مزقت الانسان ، والحيوان على حد سواء ، وهذا دفع بالناس الى الهجرة نحو التل كما ذكرنا أو الى المدن المجاورة ، وانتقلوا من حال الى حال : أى من البداوة او نصف البداوة ، الى التوطن ، لاينبغي أن نؤكد على أن هاته الهجرة كانت مباشرة ، أى انها تمت على مرحلة واحدة ، ولكن يحتمل أن أغلب العائلات مرت على مراحل عديدة لتستقر استقرارا نهائيا ، أى أن نقطة الانطلاق واحدة ، لكن نقاط الوصول متعددة .. اذن ، هذه المراحل كانت ضرورية لهذا التحول الجذرى من البداوة الى التحضر ، وسوف نبين فيما بعد أن هذا التحويل ليس بالأمر اليسير .

بعد هذه السنة (1945م) نشطت الأحزاب السياسية ؛ وخاصة حزب الشعب الجزائرى ، الذى وجد الميدان خصبا في هاته الناحية ، وأصبح البدوى الذى كان مبتورا عن السلطة ، لأنها استأصلت قيمه السياسية التي اعتاد عليها ، يهتم بما يجرى حوله ، وكأنه شعر بأن فترة التغيير الجذرى لأوضاعه الاجتماعية قد حانت ، كذلك فإن فئة من الشباب المتنورين الذين عادوا من

.../...

حرب الهند الصينية ، والبعض الذى رجع بعد نهاية الحرب العالمية الثانية — عددهم قليل — والذين آطلعوا على عالم كانوا يجهلون كل شيء عنه ، وفتح أعينهم على حق الشعوب في تقرير مصيرها ، والكفاح الذى تخوضه في سبيل أنعتاقها ، أو البعض الذى أدهشته الهوة السحيقة التي تفصل بين الغرب المتحضر ، والشرق (الجزائر) المتخلف. فبدأت بوادر ثورة عقلية على الأوضاع دعمتها ممارستهم في فن حمل السلاح ، فكان منهم زعماء الثورة التحريرية في هاته المنطقة

5) — الثورة التحريرية بين التجميع والتشتيت :—

أ) — بين البداوة والتوطين :—

ظهر نوع من التراجع النسبي في نسبة التوطين في مرحلة الثورة التحريرية وهذا التقلص يعود الى تسارع عملية التفقير، وعدم تكيف المربي مع قيم التوطين ، كما أبيد نصف القطيع تقريبا في ولاية "سعيدة" خلال الثورة التحريرية * (1) ، لذلك قامت ثورة حقيقية ترجمت باعادة توزيع الارث الذى يشكله القطيع في السهب والذى كان تحت ملكية البدو . ولذلك فان عملية التفقير التي اصابت المربي جعلت امكانية اعادة تشكيل القطيع مستحيلة :— وهذا أدى الى تحرير يد عاملة بدوية مهمة حيث أصبح الحضر والموالين القاطنين ، يستغلونها ويستعملونها : وهذا أدى الى تقوية تربية الماشية التي لم يصبح لها الطابع البدوى وانما طابع المضاربة * (2) .

.../...

(1) M' Boukhobza:- " l'Agropastoralisme" ...op; citée PP305- 307.

* (2) يذكر "بورديو" أن عدد القطيع قد تقلص في 1954 الى حوالي "6 ملايين رأس" على المستوى الوطني .

كذلك فإن مهنة "الرعي" أصبحت في أدنى السلم الاجتماعي ، وأصبح "الراعي" هو الشخص الحفوى ،،دون عائلة أعزب ، والذى يقدم له السكن طبقا لخدماته ، وهو الوحيد الذى يقبل مهنة محتقرة ، وخوفا من احتيال الابناء في الهروب من هاته المهنة . فإن المسنين يذكرونهم ، "لقد كنت راعيا .. وقد كلفني أبي بالماعز" * (1) .. وهذا صعد من أزمة البداوة ، حيث تركت بداوة "الراعي" مكانها لبداوة الحمل والبوءس — وهذا أدى الى انتزاع الانسان من جماعته الأصلية ، وأدى ذلك الى تفتيت القبائل ، وتراخي العلاقات داخل القبيلة وأصبحت مجرد مرجع شكلي ، وانعزلت الشرائح عن بعضها البعض ، وهذا ما صعب من توحيد العائلات التي أخذت تميل الى الفردية * (2) ، هذه العوامل مجتمعة أدت الى ارتفاع نسبة التوطين فيما بعد ، ساهم فيها أيضا عدم وجود امكانية للاستقرار . ويعود ذلك الى سياسة مراكز التجمع أيضا .. هاته المراكز التي أدت دورا هاما في انتزاع البدو من روابطهم القديمة ، وأجبرتهم على ظروف جديدة .

ب) — اقامة مراكز التجمع:—

لقد أدى الاضطراب الذى سببه الاستعمار الى انتزاع الأراضي وطرد السكان ، وتجميعهم في أمكنة محدودة ، وهذا اثر بشدة على نمط حياة السكان * (3) .. أدت هذه المراكز الى تقليص روءوس الماشية ، وتفريق الشعب وتجزئته حتى يبدو الانسجام مستحيلا ، وتكاثرات مراكز التجمع بشكل مريع * (4) .

.../...

(1) P.BOURDIEU:- " le déracinement..." ED/ Minuits FRANCE 1977, P98.

* (2) عدى الهواري: "الاستعمار الفرنسي في الجزائر" سياسة التفكيك الاجتماعي والاقتصادى ترجمة: جوزيف عبدالله دار الحداثة 1983 ص 109.

* (3) عدى الهواري: "الاستعمار الفرنسي في الجزائر" مرجع مذكور ص: 96.

(4) F.FANON :- "Sociologie d'une révolution" ...Maspéro, FRANCE 1978 P105.

وفي الجنوب الوهراني بدأ تجميع البدو منذ شهر جويلية 1958 ، وتنجز هذه المراكز اما في فترة هدوء دون تسرع ، أو في فترة اضطراب تحضيرا لعملية تمشيط ، وقد عانت ولاية سعيدة أكثر من غيرها من هاته السياسة .. ففي "عين الصفراء" مثلا مركز انتشار الجماعة البدوية التي تقوم بدراستها أنشيء ثلاثة عشر مركزا للتجمع تضم 8428 شخصا .. ومن النتائج المباشرة هو اختفاء الحلفاء نتيجة لارتياد الكلأ في مناطق محدودة ، وخراب البدو ، وضياع الماشية ، وأصبح الرعي مستحيلا نتيجة لنيران الطيران .. ولتطويق "الفلاقة" فقد سن الاستعمار بعض الاجراءات الادارية التي تزعمها اداريو الاحتلال (S.A.S..) وكذلك أحدثت مراكز التجمع "اختلالا" أقتصاديا يتمثل في انقطاع أرتياد الكلأ نحو الشمال أو حماية القطيع في الجنوب من برد الشتاء، بالاضافة الى الاختلال الصحي الذى شمل الحيوان والانسان على حد سواء ، فالبدوى تعود على تغيير المكان للمحافظة على التوازن الصحي ، عوض الاستحمام ، وكذا أحدثت هاته التجمعات اختلالا عقليا لأن البدوى يتألم لكونه قاطنا "مجبرا" (مكرها) ، وعم السخط ، والاشمئزاز ، ووجدت جبهة التحرير ميدانا خصبا لتحركها في هاته الأوساط * (1) ، من هنا كان دور مربي الماشية اساسيا في الثورة التحريرية ، فهم الذين يقومون بدور "الاتصال" ، وهم "المسبلين" الذين يقومون بتبليغ الرسائل والأوامر ، وكان الاتصال مهم في الثورة التحريرية ، فالدليل (المسبل) هو الذى يقوم بقيادة المجاهدين الى مراكز القيادة .

.../...

(1) M.Cornaton:- " les regroupements de la décolonisation ". ED/ ouvrieres PARIS 1967. PP103-107.

والاعتبار الاجتماعي يقاس بالمشاركة في الحرب التحريرية : فهناك تمييز اجتماعي مازال أثره لحد الآن قائما : أن تكون "جنديا" أو "عميلا" (حركي) * (1) .

لذلك تعتبر المشاركة في الثورة التحريرية ولحد الآن رصيد اجتماعي ثمين يقدمه أي شخص في المرحلة التي يلقى فيها بعض المضايقات ، أو أثناء الصراعات سواء كانت حزبية أو بلدية .

حـ) — الاختلال الاجتماعي :—

حاول المفكرون الاستعماريون من ساسة ، واداريون، وأطباء .. وغيرهم ، محاولة فهم نفسية الجزائري مثلما فعل أسلافهم : لكن وجه البحث نحو التحليل النفسي Psychanalyse مثلا :— هل يمكن اعتبار الجريمة ظاهرة مرضية ؟ ما الذى يدفع الجزائري الى القتل ؟ ولماذا يتميز بالطابع الاندفاعي حتى "المبالغة" ؟ وقد سودت تلال من الورق كما يقال : لكن "فانون" يفسر ذلك بالروح الوطنية ، والرومية الجديدة لمجتمع أفضل يتخلص من العبودية والسيطرة والإذلال * (2) .

اما بالنسبة للعائلة فقد اختفت القيم "البدوية" والتي كان يدين بها المجتمع الريفي ، والمجتمع الحضرى الى حد ما .. ونتيجة لممارسة التعذيب من طرف الاحتلال ، فانه ساهم في اختراق كثير من القيم الاجتماعية ، فصار الأب يعذب أمام ابنه ، والأخ يعرى ويعذب أمام أخته ، الخ أما الثورة التحريرية فغيرت العلاقة التي كانت تربط بين الابن والأب :—

..../...

* (1) أحاديث أدلى لنا بها مخبرين :ـ الحاج/الصديق والطيب بن الأخضر.

(2) F.FANON :- " les Damnés de la terre" chap:-5 , Maspero PARIS 1979.

فصعوده الى الجبل دون علم أبيه لا يثير أعتراضه المعهود ، وأصبحت سلطة رئيس التنظيم تفوق سلطة الاب .. وتحررت المرأة والبنت من بعض الارتباطات للمساهمة في الثورة التحريرية .. وأصبح الاخ "الاكبر" الذى كان يعتبر خليفة الاب ، يستمع ، ويطيع أوامر أخيه "الاصغر" اذا كان مسوءولا عنه في التنظيم العسكرى ، أو السياسي * (1) .. وهذا لا يمنع وجود بعض الاخطاء "العفوية" من المسوءولين ، في عدم الاهتمام بالهرم الاجتماعي ، والقيم المألوفة في المجتمع "البدوى" مثلا : فلم يراعوا المكانة الاجتماعية التي كان يتمتع بها شيوخ القبائل ، والدور الاساسي "للاخوان" من مختلف الطرائف الصوفية .. بل وصل عدم وعي بعض الشباب الحضرى الى الامعان في التهكم ، بهم ، وهذا أثار اشكالا للثورة * (2).

المهم أن الثورة وضعت تنظيما سياسيا واداريا آخر تتميز به عن الاحتلال ، (مثلا :- دفع "الاشتراك" عوض الضريبة) كانت نتائجه واضحة بعد الاستقلال .

---

(1) F.FANON:- " Sociologie d'une révolution" chap:3 , Maspero , PARIS 1978.

(2) F.FANON:- " les Damnés de la terre " chap: 2 , op.citée..

.../...

1) — الاطار المنهجي العام :—

المسألة المنهجية تشغل الباحثين في العلوم الاجتماعية ، وعلم الاجتماع والانثربولوجيا بصفة خاصة ، وبما أن الاهتمام بالبداوة ، وبالواقع الخاص بالسهوب لايخرج عن هذين الاطارين رأينا ضرورة تقديم طريقة للبحث لعلها تسعف في وضع شبكة منهجية تتسم بالتناسق والتنظيم .

المحاولة المنهجية الحالية تخرج عن الدائرة التقليدية ، وتتأثر بالتيار المعاصر الى حدما ، وفي البداية لابد من تحديد الموقف المنهجي تجاه أبحاث علماء الانثربولوجيا ، أو الرحالة، أو أولئك الذين سمحت لهم وظائفهم القيادية والعسكرية في الجزائر أن يطرقوا هذا المجال .

في البداية ينطلق هذا الموقف من موقع الرفض ، في اعتبار هذه الكتابات والوثائق والملاحظات "قاعدة" للدراسة التي تتناول البداوة ، أو تركيبتها الاجتماعية ، والاتجاه يتمثل فيمايلي :— من أين نبدأ ؟ كيف نسير ؟ الى ماذا نهدف ؟ .

يقول "رايت ميلز" :— "الكتابة تهيء الآخرين للاستماع ، ذلك قانون كل أسلوب ، وهذا يوءدى الى المطالبة بوضعية مقبولة تسمح للغير بالقراءة " * (1) ، كأغلب البحوث الجامعية ، فأن هذا الطرح قد واجه أزمة "الكتابة" التي ترتبط بها مشكلة السماع والقراءة .. وفي المجتمع الجزائرى ، يمر السماع والنظر بمرحلة غموض ، وهناك اقترابات ، ومناهج سوسيولوجية جديدة تفرض نفسها ، وهذا مايبرز مصيرها النظرى . * (2)

.../...

(1) C.W.MILLS:-"l'Imagination Sociologique" - traduit par: Clinquart ,ED/ Maspero PARIS1977. P222.

(2) W.BOUZAR:- "La Mouvance et la pause" T:1 ; ED/ S.N.E.D - ALGER1983 P22.

لابد من التنبيه الى الوضعية التي تمر بها البحوث السوسيولوجية في الجزائر ، سواء من حيث التكوين العلمي ، أو الظروف العلمية ، أو العلاقة بين الاطار الجامعي والحياة الخاصة ، والبرنامج الجامعي .. الخ .

هذه الاشكالات لابد من تحديدها للانطلاق بصورة واضحة وسهلة ، وهذه الانطلاقة لاتدعي التجرد العلمي الزائف أو العقلنة المطلقة نتيجة لما ذكر ، وانما هي متأثرة الى حد ما بهذه المعوقات ، ولا نهمل أيضا دور الحوار أو النقاش ، أى مايسمى بالمناخ العلمي ، وماله من دور على صعيد تنشيط أو تجميد الابتكار ، وفي هذا المجال يذكر "ميلز" بأنه رغم عدم وجود معرفة عامة بكل الشروط الاجتماعية الضرورية للعمل الثقافي الجيد ، فانه يجد في الاشخاص الذين يقبلون على السماع والمناقشة شرطا أساسيا ، ويرى بأن ابتكارهم يحوض عدم حضورهم * (1) .

يمكننا من خلال ذلك ، اقامة حوار مع أنفسنا ، أو أن نختار أشخاصا آخرين — يبتغيهم خيالنا — لنقيم معهم هذا الحوار أو النقاش ، وهذا ما يفترض أنسجاما وتكاملا بين الحياة الثقافية والحياة الخاصة ، لذلك فعالم الاجتماع أو عالم الانثربولوجيا قريب في اطار هذا المفهوم من الكاتب الذى يقوم بتسجيل هذا الحوار أو النقاش في مقالة أو كتاب ، حوار ذاتي مع الآخرين .

الرؤيا السوسيولوجية لاينبغي أن تغرق في النظرية المتعالية عن الواقع المعاش ، ومهمة عالم الاجتماع هو معرفة هذا الواقع ثم تسجيله بصدق وبيسر ، وذلك بأختراق المجتمع من الداخل ، في كليته ، ومن خلال أجزائه ، وهذا يفترض اختيار الطريقة المدعمة

.../...

(1) C.W.MILLS:- "L'Imagination Sociologique" op.citée P205.

بالحجة والتحليل وهذا ماجعل "ميلز" يقول : " في الجامعة اليوم ، فإن من يكتب أشياء يفهمها كل الناس، يحاملونه كأديب أو كصحفي " * (1) .

ويضيف بعض النصائح التي تطلق عليها ، الحذر المنهجي : ومنها عدم التورط في صنمية (Fétishe...) المنهج والتقنية ، وليقم كل منهجيته الخاصة به ، ونظريته الخاصة ، وليبسط الباحث مفاهيمه ولايعمقها الا للضرورة ، وليلجأ الى التاريخ لتوسيع أفقه ، وليدرس البنية الاجتماعية التي تحتوى الوسط الاجتماعي ، وذلك بربطها بالتأريخ ، ثم ليكن هدفه المقارنة بين موضوعه والموضوعات المتشابهة التي تصبح جزءا منه وله ، وليهتم بالانسان وبأفقه التاريخي ، وأخيرا لاينبغي أن يخدع الباحث بالمؤثرات الخارجية ، وانما ينبغي أن يؤثر فيها * (2).

المنهجية المتبعة هي "السماع" وذلك باعطاء امكانية "للكلمة" بالنسبة للمجموعات والافراد ، هذا الاختيار أقتضته الضرورة المنهجية ، فالمرحلة التي تمر بها العلوم الاجتماعية ، ومنها "علم الاجتماع" ، والانثربولوجيا هي مرحلة العجز المنهجي ، حتى أصبح يسيطر عليها "التفكير المحبب" ، وأصبحت لاتطرح فرضياتها الا بالشكل الذى يريد الباحث أن يصل اليها ، وأنها تصل الى النتائج المرسومة سلفا * (3) .

هذا العجز أصبح واضحا حينما أخذت تتجه أغلبية الدراسات الى التحليل الكيفي ، وتبتعد عن التحليل الكمي . بل حتى المصطلحات الانثربولوجية أصبحت مجالا للنقاش بين علماء الانثربولوجيا لعدم دقتها و وفرتها .

.../...

(1) C.W.MILLS:- "l'Imagination Sociologique" op.citée P221.

(2) Ibid P221 et suites ...

* (3) قباري اسماعيل : الانثربولوجيا العامة ـ دار المعارف مصر ـ 1971 الفصل

الخبرة المنهجية ، جعلت بعض علماء الانثربولوجيا أيضا يتخلون عن القوانين العامة ، ويتجهون الى المنهج المقارن الذى هو اعادة للتركيب التاريخي للمجتمعات من خلال ثقافتها وقيمها الاجتماعية ، وفي المنهج المقارن لا نحاول فقط الشرح والتفسير وانما ينبغي فهم الظاهرة التي هي جزء من الكل "البناء الاجتماعي" بالاضافة الى ذلك برزت الصعوبة في تعددية المناهج واختلاف مواضيعها * (1) .

المدارس الانثربولوجية وتعدد طرائقها :ـ

مر تطور المدارس الانثربولوجية بمرحلتين أساسيتين :ـ

* المرحلة الأولى :ـ تتميز بسيادة المدرسة التطورية ، في تتبع التطور الحضارى للمجتمعات ، وأرتبط هذا الاتجاه بما عرف بالانتشار الحضارى ". بمعنى أن أى نظام أجتماعي أو أى سلوك اجتماعي نشأ في مكان معين ، وفي زمان معين ثم انتقل بعد ذلك من مركز نشأته الى أماكن آخرى ، وهذه النواحي الثلاث :ـ النشأة ، والتطور ، والانتشار ". هي أهم ما أهتم به علماء الانثربولوجيا في القرن "19" .. ومن ثم أمكن التمييز بين المدرسة التطورية والمدرسة الانتشارية ، وانضم الى كل منهما عدد من العلماء الذين قاموا بدراسات هي في الواقع الأساس الذى قام عليه علم الانثربولوجيا الاجتماعية .

* المرحلة الثانية :ـ تتميز بدراسة المجتمعات في الحاضر ، أى تحديد وظائفها و وظائف أجزائها ، وصلة هذا بالحضارة السائدة في المجتمع المدروس دون التركيز على أى جانب من جوانب النشأة أو التطور أو الاستعارة "الحضارية" ؟ ومن هنا ظهر هذا الاتجاه الذى يطلق عليه " الاتجاه الوظيفي" في القرن العشرين" * (2).

.../...

* (1) نفس المرجع ـ "قبلي اسماعيل".

* (2) عبدالحميد لطفي :ـ "الانثربولوجيا الاجتماعية "دار المعارف بمصر "1971" " ص ص 85 ـ 86".

وقد كان دور أحد الانثربولوجيين البارزين كبيرا في توجيه المدرسة الوظيفية ، الى ماوصلت اليه الآن وهو "راد كليف براون"، فهو يدرس المجتمع دراسة مباشرة ، من خلال تحديد وظيفة أى نشاط اجتماعي ، وملاحظة آثارهما على الأفراد وهذا يؤدى الى دراسة التماسك الوظيفي أو النسق الاجتماعي كوحدة كلية، وحسب أتجاه "راد كليف براون" فلا يوجد تعارض بين الفرضية الوظيفية، وبين النظرة الى الحضارة أو النسق الاجتماعي كنتيجة للأحداث التاريخية * (1) ، وكذلك فان بعض المدارس الانثربولوجية اتجهت اتجاها تخمينيا ، حيث كانت تقيم أسسها على تخمينات لم يبرهن عنها علميا ، وانما هي مجموعة أحتمالات يستحيل الفصل فيها ؛ الى جانب بعض المدارس الانثربولوجية التي أعتمدت على التاريخ كمصدر وحيد للتحليل الانثربولوجي، وهي ماتسمى بالتاريخانية .....HISTORICISME.

بالفعل ؛ فان الاختلافات بين وجهات المدرسة التطورية ، والانتشارية والمدرسة الوظيفية ، ترجع الى موقع المدارس الانثربولوجية وانتماءاتها الجغرافية (فرنسا ،ألمانيا ،أنجلترا ،أمريكا ... الخ) والى طبيعة التكوين الذى تلقاه عالم الانثربولوجيا ،وقد أصبح مايسمى بتقليد "مالينوفسكي" . سائدا في اتجاهات المدرسة الوظيفية ومنهجه يتمثل في طرح ثلاث أسئلة ، " هل أن أمرا ما سارى المفعول ؟ كيف ؟ ولماذا ؟ " .

ويستبعد منهج الدراسة الانثربولجية المقارنة ، فالمجتمعات مختلفة فيما بينها من حيث الزمان والمكان ، ولذلك لايمكن مقارنة ماتستحيل مقارنته ،لذلك فعلماء الانثربولوجيا يرغبون في البحث الميداني، وفي الكشف عن أشياء جديدة * (2) .

.../...

* (1) أنظر عبدالحميد لطفي :ـ الانثربولوجيا الاجتماعية ص 176 ـ 178

(2)M.GRAWITZ:- "les Méthodes des Sciences Sociales" ED/DALLOZ PARIS1972 P179.

ويميل بعض الانثربولوجيين الى الدراسات المركزة حول المجتمع الواحد ؛ وهو يعرف كما قلنا بتقليد " مالينوفسكي" وذلك بهدف التوصل الى عمق ثقافة مجتمع ما ؛ وحاول "بريتشارد" أن يعمم هذه الدراسات "المركزة" لكن بشروط :

منها استنتاج النتائج الخاصة بالمجتمع الواحد ثم التحقق من صحة وواقعية تلك النتائج بالنسبة لمجتمعات أخرى * (1) .

ضرورة الدراسة الاثنوغرافية والمونوغرافية :—

يلاحظ أن مجالات الأنثربولوجيا كما هي عليه الآن ، لم تبرز الا في القرن "19"م حينما ظهرت الاثنوغرافيا ، ويعتقد بأن مجال الاثنولوجيا لايمكن فصله عن مجال الانثربولوجيا ، حيث يهدفان لنفس الهدف ؛ بمعرفة جيدة لمعطيات الانثربولوجيا يمكن حل مشاكل الاثنولوجيا * (2) .

بعض المدارس أعتمدت على الاتنوغرافيا التقليدية في تحليل المجتمعات البدوية ، أو شبه البدوية ؛ فالقاء نظرة قصيرة على الارث الخاص بأنثربولوجية الجزائر يوضح ذلك .. فقد أكد بعضها على عامل "الزمان" ، وعامل "المكان" في البداوة الرعوية، ومنهما يتأتى مصدر الخبر ، وتقترح المدرسة الاتنوغرافية تقنيات لتسجيل المعلومات ، وترتيبها على أساس الوسط الاجتماعي، والتنظيم الاجتماعي .. الخ ، أو على أساس جغرافي أو تأريخي (زمني) .. والمنهج في الدراسات المونوغرافية يتمثل في دراسة الموضوع من خلال ، عدة محاور للبحث ، وهو أكثر مرونة ويخضع للشروط المادية للعمل الاتنوغرافي ، ويسمح بعمليات "التقطيع" الفعالة : وتوسيع العمل الميداني ضروري.

.../...

* (1) عاطف وصفي :— "الانثربولوجيا الثقافية" دار النهضة العربية بيروت 1971 ص 291 — 294 .

(2)A.BRIMO/ "Méthodes des Sciences Sociales" ED/ Montchrestien PARIS1972.

المعلومات المأخوذة في أغلبها "مهمة" ، لكن ينبغي الاحتياط لاعادة دمجها في اطارها الاجتماعي ، وأن تختبر دلالتها الايديولوجية ، وكذا ينبغي أخذها في الحوار أو الأحداث الكبرى أو الصغرى في الحياة اليومية .

يلاحظ بعض علماء الاتنوغرافيا ، وجوب استعمال أدوات بحث متعددة ، لتقوية شبكة المعلومات ، وتدوينها في فترات منتظمة ومقرونة بنظام البطاقة اليومي ، وينبغي أن تشمل الاتنوغرافيا مراكز التجمع ، والأسواق الجهوية ، وعلاقات "الجوار" ، والعلاقات القرابية ، ودوائر التبادل ، والعلاقات السياسية ... الخ * (1) .

فيما يتعلق بالجزائر ؟ لانتوقف عند التحدث عن رغبة الادارات الاستعمارية في معرفة "القطر" لكي نتحدث عن الاتنولوجيا ، ولكن تتبعها يقظة ايديولوجية ، حيث أن الاتنولوجيا كتلة مذهبية ، بقدر ماهي مرحلة بين البحث "الكلي" ، وبين الأطر الخاصة بسير المجتمعات التاريخية وانتاجها الثقافي ، والاقتصادى ، والسياسي .

أما "المونوغرافيا" فهي ضرورية بالنسبة لدراسة القرى ، خاصة أن الخطأ الذى ينبغي تجنبه هو تحديد منهجية البحث بموضوعات متشابهة في فصولها ، وان تكون موءشرات معينة هي عناوين فصول بعينها ، ثم تستعمل مصطلحات "العصرى" و "التقليدى" مفصولتين عن اطارهما المرجعي - لأنهما مفهومين نسبيين .

.../...

(1) J.P.DIGARD:-"Recherche Ethnographique sur le Pastoralisme en milieu Nomade" In:-GODELIER; CRESSWELL: "Outils d'enquête et d'analyse Anthropologique - ED/ F.Maspero PARIS 1976 PP 171-173.

وفي مجال المونوغرافيا يتمحور البحث حول ثلاث عوامل منها :ـ عامل التاريخ الاجتماعي ـ والعامل الاقتصادى (العقلانيات الاقتصادية ، وأنماط التنمية) ، والعامل الخاص بالمبادلات (أنظمة التعاون ، والتعاضد) * (1) .

تتمثل أهمية الدراسة المونوغرافية في فتح المجال أمام عدة دراسات أنثربولوجية ناضجة ، وحتى الأبحاث الانثربولوجية يمكن أن تتخطى الاشكالية لتتمكن من جمع عدد من المعارف حول المجتمع المدروس وهذه المعلومات تجمع في حيز "المونوغرافيا" ، ومن ثم فليست هناك أى ظاهرة مهيأة للضبط ولكن الدراسة المونوغرافية أيضا ، تلتزم بإطار نظرى محدد تدخل الباحث في التأويل ، تدخل كلي أكثر من تدخله أثناء جمع المعلومات .

كل حدث ليس في حد ذاته مهما ، وانما استخدام هذا الحدث في التحليل هو ما يفسر خصوصية البحث الانثرلولوجي ، ودلالة بعض الظواهر أو عدم دلالتها يرتبط بالاطار التصورى للباحث ، ولكن وصف العناصر المختارة لابد من تماثلها بالنسبة للأنثربولوجي الواحد ، أو مجموعة علماء الانثربولوجيا .

تجيب الأبحاث المونوغرافية عن متطلبات عقلية ـ استقرائية ، حيث ان الباحث الذى يحدد اطار البحث في مجال ضيق يخشى أن يصل الى عقم في التفسير أخطر من "المونوغرافيا" المكتبية ، لاتثمر الجدلية بين فرضيات البحث ، والملاحظة ـ أى بين الاصل الاستنتاجي ، والبحث الاستقرائي ـ الا اذا كانت

.../...

(1) N. MAAROUF:- "La relation Ville- Compagne" ED/O.P.U 1981PP58-67.

متمركزة على عدة مواضيع ، واذا كانت الملاحظة مونوغرافية ... فمن الضروري ، أن نعرف ماذا نبحث ، وأن نبحث أكثر مما يوجد بين أيدينا . ولكي لايصل البحث الى عمومية تافهة ، ينبغي تحديد مركز الاهتمام ، وطرح الاشكالية * (1).

جدوى استعمال أدوات البحث:-

من الاخطاء المنهجية ، هو وضع الأسباب مكان النتائج . مثلا يميل البعض الى أعتبار الأسباب الموضوعية هي نفسها النتائج لهذا الضعف الاقتصادي ، والثقافي للمجموعات البدوية من خلال تصرفها .

ولكي يكون هناك تحليل لأصل بنية النظام الذي يلم بالسهب ، فان ذلك يفترض تشكيلا منهجيا لمجموعة من النصوص، والأرشيف والمقابلات التي يمكن أن تصبح بمثابة علم الآثار الخاص بمعرفة السهب .

من الناحية المنهجية يبرز من خلال تفوق نوع من أدوات البحث ، وبعض الانماط السوسيولوجية المتضمنة لعدد من المبادئ ان نتائج البحث لاتلبث لا تأكيد الافكار التي طرحت في منهجية البحث .. ونادرا ، ما نجد مصدر الخبر هم "الرعاة" انفسهم ونادرا ما نعثر على بعض الاعمال ذات الطابع الانثربولوجي التي تهتم بتحليل المجموعات العائلية ، وشبكة العلاقات الاجتماعية التي تربط بين المجموعات العائلية والمجموعات الاجتماعية الأوسع . والتي تجنبنا التورط في الوصف الانطباعي الذي يتميز به الأدب الاستعماري ذي التحليل الاتنولوجي .. فعلم الاجتماع أو الانثربولوجيا لايلزم اقتصارهما على التكميم الساذج ، أو الكلي ،أو تتخذ اتجاها اتنوغرافيا مغلقا * (2).

.../...

(1) R.CRESSWELL:- "Problématique Anthropologique"In:_ CRESSWELL,GODELIER: - Outils d'enquête ...op.citée.

(2) H.HADDAB:-"Element de Problématique..." In:- "Méthodes d'Approche du Monde rural" Colloques des chércheurs Maghrebins- PARIS 1976 ED/O.P.U ALGER1984.

لذلك ترتبط أدوات البحث بالمستوى الحضارى للجماعة المبحوثة ، وعملية التدقيق في حد ذاتها مظهر حضارى ، وكثيرا من البيئات غير مستعدة حضاريا لتفهمها أو تقبلها ، ومن ثم كانت الموضوعية نسبية في جميع أدوات البحث الاجتماعية ، أو الانثربولوجية ، ولا يمكن اعدادها واستخدامها بمناجاة عن التحيز ، والمعادلة الشخصية في أكثر من موضع .

يلاحظ مثلا في البحوث حول المجتمع "الريفي" : ان الريفي يقدم انواع الاستجابات التي يظن انها ترضي الباحث ، كأنما يقرأ هذا "الريفي" ، قيم الباحث نفسه ، و "البدوى" يماثل "الريفي" في ذلك ، بل ان البدوى يمتاز "بالفراسة" .

كما يلاحظ تدخل الذاتية في صياغة الأسئلة ، سواء كان مصدر الذاتية هو واضع الاسئلة ، أو كان مصدرها الوسط أو الجو الحضارى الذى ينتمي اليه ، كما أن دلالة اللفظ تختلف بين مجتمع وآخر ، فللمجتمع "البدوى" مثلا بعض الالفاظ أو العبارات ، التي لها دلالة مغايرة في المجتمع الحضرى * (1).

نحن بصدد اختيار منهجية تختلف عما ألفناه .. وحاولنا الافلات من القدسية التي تحظى بها أدوات المنهج التجريبي (مثلا الاستمارة ، والمقابلة بتصاميمها ، وتفرعها ، وطريقتها في التبويب والترميز ، والتفريغ والجدولة ، واستخدام الاحصاء ، والمقاييس للتدقيق في النتائج المقدمة (معامل الارتباط ، كا^2 ، X^2 ، ... الخ) .

سوف نستعرض بعض أدوات البحث لتبيين حدودها وجدواها في البحث الانثربولوجي .

.../...

* (1) حامد عمار :ـ "المنهج العلمي في دراسة المجتمع" دار المعرفة ـ مصر 1964 ص 29 ـ 31 .

1) – الاستمـــارة :–

اذا أخذت الاستمارة ، فيلاحظ أن البدوى لايتكيف مع هذا النوع من أدوات البحث ، فهي تستلزم قدرا معينا من التعليم، كما أن سلوكه يتغير بمجرد أن يرى "الورقة" التي يطلب منه ملأها ، أو تملأ أمامه ، كما أن المنهجية المتبعة في تهيئة الاستمارة تتمثل في التمييز بين أنواع الأسئلة :– المفتوحة ، نصف المفتوحة ، المغلقة ، ومحتواها (أسئلة بسيطة ، وأسئلة مركبة) ، وطبيعتها (أسئلة رأى وأسئلة واقع) .. ولكن الاشكال يبرز في كيفية تصور واستعمال هاته الاسئلة في التحليل . فالامر هنا لايتعلق بتقنيات جمع المعلومات ، بقدرمايتعلق بالشروط المنهجية التي تستجيب لها هذه المعلومات ، ومن ذلك ، تحديد الاطار المرجعي الاجتماعي والاطار المرجعي الزماني ، وهذا اذا أردنا التأكد من مصداقية المعلومة المعطاة .

اذا طرح الباحث سؤالا ليس معناه الحصول على جواب، ولكن باعتبار أن المبحوث قد طرح أو يطرح على نفسه سؤالا ، واذا حددنا " مسبقا " اجابات عن سؤال مطروح فاننا نتعامل مع الاختلاف في الاجابات على انها تغطي الاحتمالات التي تصورها الباحث . وهذا يغطي المجموعة المبحوثة بعض السمات التي ليست لها ، واهمال السمات الخاصة بها في اطار الاشكالية المطروحة على عالم الاجتماع وعالم الانثربولوجيا أن يتساءل عن هدف السؤال ، وظروف المستجوب ، وفرضيات البحث ، بالاضافة الى ذلك ، فان محتوى الأسئلة يؤدى دورا معتبرا في درجة .

.../...

مصداقية المعلومة ، لذلك ينبغي الحصول على المعلومات القاعدية قبل طرح الأسئلة ، ونستطيع دائما أن نحصل على أعداد ، وأن نعطي بعض أنواع القياس ، ومؤشرات للظواهر الاجتماعية : لكن المسألة تكمن في القيمة من حيث المصداقية الواقعية والاجتماعية والموضوعية ؛ والأدوات التي تسجل الأحداث المدروسة ، وخاصة تلك التي تتعلق بطبيعة وكثافة الارتباطات بين المتغيرات والتي بواسطتها يحدد الهدف من الدراسة .

كذلك ، لابد من تنظيم ، وترتيب المعلومات المأخوذة في آختيار الوقت والمكان ، بواسطة مناهج لاتخضع للتلقائية ؛ وأن يتم التوافق بين اللغة المكتوبة مع الطريقة التي يتحدث بها المبحوث المهم هو تحويل النصائح والملاحظات والتقنيات الى منهجية مندمجة ومفتوحة تعتني بالمعلومات المتراكمة * (1) .

2) — المقابلة :—

اما المقابلة ، فقد تكون أجدى من الاستمارة ، بأعتبار الباحث يواجه وجها لوجه المبحوث ، ويلاحظ خلجاته وسكناته ، وتصرفه ، ومقدار اهتمامه ، لكن لها حدودها أيضا ، فالى جانب عيوبها التي تستخلص من المراجع المنهجية ، فانها غير صالحة وفعالة في الوسط البدوى أو شبه البدوى ، حيث أن رد الفعل من استخدامها بشكلها المعروف ، هو الحذر والحيطة والخوف ... الخ ، وهذا يؤدى بالباحث الى الوقوع في أخطاء كثيرة ، والى الحصول على معلومات قد تكون مشوهة ومضللة وغير صحيحة خاصة اذا لم يكن الباحث على دراية واسعة بمجال البحث .

.../...

(1) M' BOUKHOBZA:- " Quelques problémes Méthodologiques..." In:-" Méthodes d'Approche du Monde Rural" Actes du Colloque des chercheurs Maghrébins "PARIS 1976 - ED/O.P.U 1984.

كذلك ينبغي مراقبة المقابلة ، فالباحث المبتدىء قد يترك للمبحوث حرية الحديث ثم يأخذ آخر جملة في شكل سؤال، في حين أن المرونة هي المطلوبة في الواقع * (1) .

البحث الميداني "الجيد" هو ذلك البحث الذى يتبع تزامنا منطقيا ، واستراتيجيا وتقنيات البحث الميداني ترتبط بطبيعة المعلومات المطروحة ، ومقابلة ؛ "المخبر المفضل" *. تتضمن اكتساب ثقة المبحوثين ،والتي تطرح فيها أسئلة مفتوحة دون قطع حديث المبحوث — ويجب الحذر من اثارة شكوك المبحوث في التدوين .

هناك تقنية اخرى في الانثربولوجيا تسمى بالتاريخ الشخصي للمبحوث"Life history "وذلك بتدوين أهم الاحداث التي تمر بالمبحوث، وعلى المبلغ (المخبر) أن يخبر الباحث بتاريخ حياته حتى اللحظة التي يتحدث فيها ، ولاشك أن الثقة المتبادلة بين الباحث والمبحوث هي التي تعطي صفة "الصدق" للمعلومات المقدمة، وعدم اخفائها . * (2) .

وقد استعملت هذه التقنية بطريقة استثنائية أى في الحالات التي يكون فيها نمط الحياة الشخصية للمبحوث دلالة خاصة.

3) — الاحصاء الاجتماعي :—

استعمال الاحصاء كأداة أساسية للبحث لم يعد ذى فعالية في تحليل المجال البدوى — فالمجال البدوى له أدواته الخاصة *. أما الجداول الاحصائية ، وما تحويه من ارتباطات ومستويات وشخصيات وأرقام الخ ،لن تفيد بأى حال من الاحوال البحث في المجال الانثربولوجي للبداوة ، والمجتمعات المستحدثة ،اننا نحتاج في بعض

.../...

(1) R.CRESSWELL:- "le térrain Anthropologique" In:- GODELIER, CRESSWELL : " Outils d'Enquête ...." op. citée.

* (2) عاطف وصفي :— "الانثربولوجيا الثقافية" مرجع مذكور "الفصل الثامن"

الاحيان "اللاحصاء المحلي" (قرية أو منطقة محددة) لغرض التحليل أو الحجة ... لكن هذا لاينفي وجود تعليقات رقمية عن وقائع وأحداث تقتضي التحليل الكيفي كقاعدة ... وهنا تظهر الصعوبة ، وهنا يظهر العجز الفعلي لأداة الاحصاء أما امكانية الاعتماد على الاحصاء ، فانها تبدو محدودة ، لم تختز الا بعض الاحصائيات التي تفي بالغرض المطلوب ، فالموقف واضح ، هو اختيار الطرائق الكيفية والابتعاد عن قدسية "الاحصاء" الذى يستعمل وكأنه منزل من السماء ، فلا تراجع الارقام ، او النسب المئوية ، وليست لدينا القدرة على مراجعة صحتها ، وغالبا ماتقتصد هذه المعطيات من تفكيرنا وتحليلنا ، ويصبح همنا هو القراءة والتعليق على المعطيات الاحصائية التي انتجت من طرف هيئة ما اختارت لوحدها فئات الترتيب ، وانماط الترتيب .

هناك احتياطات معينة في حالة استخدام الاحصاء الاجتماعي منها :ـ

1) في العلوم الاجتماعية ينبغي الحذر من أن يؤدى استعمال الاحصاء الى عملية تضليل في توظيف بعض المصطلحات .

2) لا يربط الاحصاء الا بين متغيرين في بعض الأحيان ، وبذلك يهمل المتغيرات الاخرى التي قد تكون لها دلالة .

3) الارتباطات الاحصائية تعتمد على الاحتمالات أكثر من اعتمادها على نتائج يقينية ، خاصة اذا عرفنا سرعة الوتيرة ، والتتابع ، والظرف الزماني والمكاني ـ الخ ، الذى يؤثر على الظاهرة الاجتماعية .

.../...

4) يتبنى الاحصاء غالبا ، أنماطا تسببية ، ولكن هاته الانماط السببية غير ثابتة اذ كثيرا مايصيبها التغيير ، نتيجة للمتغيرات في الوسط الاجتماعي الذى يرتبط بالحرية الوجودية للانسان ، والتأويل الذى يقدمه الاشخاص لظاهرة ما * (1).

4) الملاحظة بالمشاركة :ـ

مهما حاولنا فصل الظاهرة الاجتماعية عن عالم الاجتماع أو عالم الانثربولوجيا ، فاننا لانتمكن من ذلك ، حيث أن الظاهرة الاجتماعية ليست كالظاهرة الطبيعية قابلة للعزل والضبط ، بل تتأثر الى حد ما بذاتية الباحث مهما حاول أى متخصص في العلوم الاجتماعية أن يحذر الباحث من ذلك * (2).

والملاحظة بالمشاركة أحسن دليل على ذلك ، اذ أن عالم الانثربولوجيا يتأثر بأنماط وسلوك المجتمع المستقبل .. ويمكن اعتبارها أنسب أداة لتناول البحث الميداني ، وأكثرها فعالية ، لكنها تطرح بعض الصعوبات الميدانية للباحث ، فالمدة الزمنية للبحث طويلة (عدة سنوات) ، وعمل الباحث الجامعي في الجزائر لا يوفر له هذه الفرصة ، كذلك فان هذه الاداة تقتضي أن يكون الباحث على معرفة واسعة بالمنطقة قيد الدراسة ، بمجالها الجغرافي .. والتاريخي ، والانثربولوجي ، وهذا لا يتيسر لبعض الباحثين.

كما أن نتائج البحث بأستعمال هذه الاداة لا تظهر الا في فترة متأخرة : بالنسبة للملاحظ بالمشاركة ، فان الاقتناع والتحكم في مجال بحثه أجدى من توضيح الطرائق ـ طرائق البحث ـ ، والاجبار المسلط على المبحوث ـ فالسلوك اهم من

.../...

(1) A.BRIMO :- " Les Méthodes des Sciences Sociales " ..op. citée PP353- 354.

* (2) قبارى اسماعيل : الانثربولوجيا العامة مرجع مذكور الفصل الخامس.

استخدام تقنيات البحث ، ولابد من تجديد الاتجاه قبل اقتراح النصائح الإجرائية .

في المجال الانثربولوجي ، فإن كل تجربة ميدانية ترتكز على أساسيين :- بحث يساهم في الاثراء العلمي ، وبحث يساهم في الاثراء الشخصي (...) . اذا كان هدف الاثراء العلمي هو المسيطر ، فمعنى ذلك أننا بصدد الانثربولوجيا ، أما حين يصبح البحث عن الاثراء الشخصي هو المحرك الأساسي فإن الامر يتعلق هنا بنمط آخر من المعلومات ، فلا ينبغي أستعمال مؤشرات هذا الالغاء مناهج وأهداف الآخر .. في الملاحظة بالمشاركة لسنا بصدد المفاضلة وانما بصدد موقف منهجي .

تحوي الملاحظة بالمشاركة عددا من التقنيات ، حيث أن كل مجتمع يحدد أشكال المساهمة التي يقيمها مع عالم الانثربولوجيا فقد يساهم في الأعمال اليدوية بالنسبة للبعض ، وبالنسبة للبعض الآخر ، فإن ذلك من قبيل الاستحالة ..

وكذلك لابد من التحدث بلغة المجتمع المبحوث ، وينبغي أن نفهم هؤلاء ويفهمونا ، والابتعاد عن التمحور حول الذات .. والخطر الوحيد الذى يواجه عالم الانثربولوجيا هو الخوف من أن تكون مشاركته أكثر من ملاحظته . فالحياة اليومية ، والأحداث تصبح مألوفة بالنسبة للباحث - كذلك ، لانتصور بأن أى سؤال أو جواب هو برئ - حتى اذا كانت الأسئلة حيادية ، فإن الأجوبة تعبر عن الخصائص النفسية للمبحوث * (1).

تقترب الملاحظة بالمشاركة من التحقيق الصحفي ، لكنها تتميز عنه في كونها تعتمد على آستقصاء منظم ومحضر من طرف الباحث أو من طرف مجموعة باحثين ، فالباحث بالمشاركة لا يعزل أعضاءه وانما ينخرط في نشاطاتهم ، ويشارك في بعض الحالات التي تبرز فيها اتجاهات لها دلالة ، وهناك من الخبراء من يميزون بين الملاحظ بالمشاركة ، والمشارك بالملاحظة ، فالاول خارج الجماعة ينخرط فيها

.../...

(1) R.CRESSWELL:- " Le terrain Anthropologique " op.citée.

لملاحظتها ، بينما الآخر هو عضو في الجماعة التي يريد أن يكون ملاحظا لها .

ومن بين شروط الملاحظة بالمشاركة ، هو قبول الجماعة للملاحظ بالمشاركة ، ولا ينبغي تغيير المجموعة الملاحظة ،كما تطبق على مجموعات محددة لأن الملاحظة الكيفية تتطلب تحديد العلاقة (المسافة ،البعد) بين الملاحظ والملاحظ وهي تعتمد على عدة تقنيات :ـ التحليل التاريخي ،والتحليل الوثائقي ، والا ُيكولوجي ومقابلات وتحليل تصرف الجماعة ... الخ . * (1).

على الباحث ،أيضا أن يتعلم أسلوب الحياة الجديدة ،ويدون معلوماته في هيئة تقارير يومية .. وأفضل الظروف هو تدوين الحادثة في وقتها ، ويترتب على ذلك ابعاد عامل التحيز في الاختبار ، أى التحيز في تسجيل معلومات معينة ، واهمال معلومات اخرى ، وكذا ابعاد عامل "ضعف الذاكرة الا ُنسانية"، لكن تدوين الملاحظات في وقتها يثير عددا من الا ُشكالات والانقطاع في الملاحظة ، والحيطة والخوف أى (المبحوث من الباحث) ، تشويه الصورة الطبيعية للظاهرة الملاحظة ، ويجب على الباحث أن يصنف مذكراته حسب فهرس يتكون من الموضوعات الأساسية التي يدرسها ،وهكذا يسجل المعلومات الخاصة بالموضوع الواحد في مكان واحد * (2).

<u>الابعاد المنهجية للدراسة الميدانية :ـ</u>

تعتبر الدراسة الحالية من قبيل الدراسات المونوغرافية ،التي تعتمد على مسح للواقع السوسيولوجي لقرية من القرى الجزائرية " عسلة" في جبال "القصور" الجزائرية ، ومن خلال ذلك حاولنا الإلمام بالإشعاع البدوى الذى يحيط بمجالها الجغرافي والبيئي .

.../...

(1) A.BRIMO :- " les Méthodes des Sciences Sociales" voir: obsérvation participante.

* (2) <u>عاطف وصفي</u> :ـ الانثربولوجيا الثقافية ص 284.

لقد حاولنا أن نحدد الدراسة والمواضيع التي تطرحها ، والهدف من هذه الدراسات وأخترنا تقنيات بحث كما سيتبين : ثم أفرزنا المعطيات لنقوم بالتحليل ، وهذه المعطيات لم تكن بالضرورة مستقاة من الميدان ، وانما هي معطيات وثائقية ترتبط بالوضع التاريخي والاجتماعي للمنطقة ، أو للمناطق المجاورة لها ، أو المشابهة لها ، بعد أن ذكرنا بأننا نعرف مسبقا هذه المنطقة ونعرف تقاليد أهلها وأعرافهم ونشاطاتهم .. الخ .

بعد ذلك كان لابد من الرجوع الى العمل الميداني ، وذلك بواسطة أنتقاء المخبرين (تجاوز عدد المخبرين العشرين — بأستثناء الحوار الجماعي) : لكي نستطيع التثبت من بعض الأمور التي يشك فيها ، أو النقائص التي اعترضت البحث ، وأخيرا ، الخطوة الأخيرة التي تتمثل في تقديم ماحصلنا عليه من النتائج المستخلصة .

تعتبر هذه الدراسة محاولة للتوضيح والتعريف بالواقع السوسيو — انثربولوجي والتراثي للبداوة الجزائرية من خلال منطقة معينة تتمثل حسب بعض المحللين أنقى وأصفى مكان للبداوة العربية في الجزائر والتي تمثل قيما راسخة منذ قرون وأجيال حاولنا الابتعاد عن الاسلوب الانشائي — الوصفي الذى لايفي بغرض البحث الانثربولوجي ، وحاولنا استعمال اللغة السوسيولوجية والانثربولوجية قدر الامكان .

كان من الضرورى أن تسبق هذه الدراسة "لوحة تاريخية" تتعرض للمجال الانثربولوجي ، والسلالي للقبيلة موضوع الدراسة ، ولتفرعاتها ، وتحالفها ، وعلاقة ذلك بالبنية العضوية للمجتمع البدوى ، ونصف البدوى على العموم ، وخاصة في العصر الحالي .

.../...

بحثنا هذا عانى أيضا من الأزمة المنهجية ، بأعتباره يتجنب التحليل الكمي ، ويعتبره محدودا في دراسة "الواقع الحسي" حيث يفقره من مدلولاته التاريخية والثقافية .

بالفعل ، لابد من اللجوء الى التحليل الكيفي . لكن السؤال يتمحور حول مايلي :ـ

من أين يبدأ تحليل هذا "الواقع" من التاريخ ؟ أم من الدراسة المونوغرافية للقرية ؟ أم من البدو "الرحل" في حلهم وترحالهم ، ومعيشتهم ونمط حياتهم ؟ هل تحليل النخبة المحلية أهم أم تحليل الوضعية الاجتماعية للمريسي أو البدوى ؟ أم تتوجه الى التعليم ؟

أستعملت منهجية "السماع" ، و "النظر" من جديد في المجتمع المحلي ، ورفض مالايتلاءم مع الواقع المحلي ـ تجنب عملية الإسقاط ـ: والوصول الى ملاحظة علمية مستمدة من الواقع ، والاعتماد على "الاستكشاف" ، فالحياة المعاشة بالنسبة للمجموعة المدروسة مكشوفة بآعتبار الباحث يعرف مسبقا مجال بحثه : انه من هذا المجتمع ، نشأ فيه ، وبقي على آتصال به بطريقة أو بأخرى .

لايخفي الباحث في هذا الطرح "ذاتيته" ، ولا يدعي التجرد الزائف ، نحن في مجال العلوم الاجتماعية أمام صور واشكال تتراءى لنا ، نحس بها ولا نستطيع تجاهلها :ـ هناك درجات "للتحيز" لعل أقربها الى الموضوعية هو التحيز "الحضارى" ، نحن ننتمي الى حضارة عريقة بزغت في شبه "الجزيرة العربية" ، ووصل اتساع نطاقها الى أوروبا فهل بإسم الموضوعية نتجاهل هذا الانتماء ؟

.../...

لكن في مجال تحليل البداوة ،أبتعدنا عن الاتجاه "الرومانطيقي" الذى يلاحظ "الاشياء" ، و"الناس" من وجهة نظر الحنين ، والهيام ، والنكوص في بعض الأحيان ، لم تعلق على أزمة البداوة بقولنا أنها في طور الاضمحلال والزوال ، وانما حاولنا رؤيتها من خلال الجرح الحضارى الذى تتعرض له الشعوب التي لم يتيسر لها بعد انشاء حضارة تتجاوز وضعها الحالي .

كما لم تمدح البداوة ، ولم تعتبر سمات البدوى أزلية أو غير قابلة للتكيف الحضارى ، وانما نميز شخصية البدوى ونمط سلوكه عن باقي الفئات الاجتماعية ، ومن جهة أخرى ، تجنب البحث قدح السمات البدوية ، واعتبارها معرقلة للحضارة . وهذا خطأ آخر يقع فيه بعض المهتمين بمجال البداوة باسم "التحضر" و"العصرية" ، و"التخريب" ـ الخ . وانما عرضت البداوة دون اصدار أحكام قيمية ، حتى يستنى لنا ، فيما بعد الا ننساق وراء العاطفة وانما وراء العقل الفعال .. فهو اذن ، تكيف ايجابي بالماضي ، وثقة في المستقبل بما يحمله من تغير حضارى ، وخلاصة تفكير أمم بعلمائها وتكنولوجيتها وجهدها الانساني ـ وهذا لا يمنع من الابتكار الحضارى ، ومقاومة الفكر المسيطر بالحجة والقوة ، يقول الله تعالى ، " وأعدوا لهم ما أستطعتم من قوة" .

خطوات الدراسة ومراحلها :ـ

تبدأ هذه الدراسة من "القرية" من خلال النشاطات المختلفة ، من رعوية ، وزراعية ، وحرفية ، وتعليمية ، وأخيرا سياسية ، وهي تعتمد على مايسمى بالكلية المتعاضدة بين مختلف النشاطات . وبأعتبار أن

.../...

كل صعيد يؤثر على الاصعدة الاخرى ، وأن كل حادث الا ويرتبط بشبكة من العلاقات مع الاحداث الاخرى ذات الدلالة.

من وجهة النظر الكيفية ، نعتبر النشاط الرعوى محور دراستنا الا أن هذا لم يمنعنا من اعتباره أيضا بمثابة البؤرة التي تتركز فيها عادات البدو الأصلية ، وأعرافهم ، ونظمهم ، وعقائدهم ، وممارستهم الدينية والسياسية وذلك من خلال استقصاء الحاضر.

وحاولنا أتباع الطرائق المستعملة في ميدان علم الاجتماع والانثربولوجيا ، أو مايدعى بتعديل الطريقة الانثربولوجية والتي نتلخص فيمايلي :-

أولا - ضم الطرائق المستخدمة في مجال الانثربولوجيا الى تلك المستخدمة في علم الاجتماع ، حيث لم يحجب عنا كون الأدوات المعمول هي الأدوات المعمول بها عالميا ، وأنها ملك للانسانية ، أننا نقوم بالتجديد كلما رأينا ضرورة لذلك .

ويمكن للمتتبع لتطور هذه الاذوات والتقنيات ان يكتشف ذلك - وذلك لفهم المجتمع "المحلي" .

ثانيا : الاستفادة من الملاحظة المباشرة ، والاعتماد على المخبرين كبار السن ليعوضوا النقص الذى تشكو منه المادة التاريخية .

التجأ الباحث الى "المخبرين" ، الذين تعرف عنهم الخبرة والتجربة ، وحادثهم واخذ عنهم ، وأخذوا عنه ، فهم يحتفظون بذاكرة شفوية تؤرخ دون أن تجد من يكتسب ؛ وتعرض الواقع المعاش بصدق دون تحريف وحذف طبقا للتلقائية والفطرة التي يتسم بها "البدوى" و"رجل السهب" ، وحاول "الباحث" أن ينسجم مع

.../...

اهتمامات هؤلاء الأشخاص وعاداتهم ، وطبائعهم بأستعمال اللهجة المحلية ، والقيام بنفس السلوك والتصرف واحترام العادات والمألوف ـ فهو لم يشاركهم ، وانما كان منهم وانخرط فيهم من جديد .

<u>ثالثا</u> : أستخدام الاثنوغرافيا التي أوضحنا حدودها سابقا استخداما يتفق مع أهداف البحث ، خصوصا اذا كان الهدف هو المقارنة ، فليس الغرض هنا هو تقديم "كل" التفاصيل المتعلقة بالحياة الاجتماعية ، وانما هو تحقيق بعض الفرضيات ذات الفائدة العلمية * (1).

ثم اتبعنا طريقة السؤال الشخصي ، ومعه أحيانا السؤال القائم على الحوار الجماعي ، حيث يطلب من كل فرد الاجابة على سؤال مطروح ، وقد تم ذلك في اطار عفوي لااستنطاقي ـ أسئلة متنوعة ترتبط بالسؤال المطروح = .

وكذا التحقيق الشخصي المباشر ، واجراء الملاحظة الشخصية، فأبناء البادية ، وأبناء القرية ، وشيوخ القرية تربط الباحث واياهم علاقات قرابة ، وصداقة . وحتى المساعدون فانهم من نفس القرية ودور هذه الطريقة ، كان بارزا ، ومن ايجابياتها أنها تتجاوز مايسميه الباحثون (تخوف المبحوث وحذره من أجهزة الدولة والعاملين فيها) .

بعد ذلك ، جمعت المعلومات من موظفي البلدية ، ومن قادة القرية الذين لهم خبرة ومعرفة دقيقة بحياة البادية أو القصر، وكذا جمع الاحصائيات البلدية ـ الضرورية . .

.../...

* (1) أنظر <u>محمد عاطف غيث</u> :ـ "دراسات في علم الاجتماع القروى دار المعارف القاهرة مصر 1967 ـ ص ص" 29 ـ 30" .

ثم تحليل البيانات التي تتفق مع أهداف الدراسة ، والتي تبعتها مرحلة التركيب ، ولكن ظهرت بعض النقائص في المعلومات حاولنا معالجتها من خلال بعض المراجع والوثائق والملتقيات الخاصة بالسهوب والرعي التي لها قاعدة ميدانية ، وانطلقت من قضايا لها علاقة بمنطقة البحث .

مجال الدراسة :—

ان دراستنا لهذه القرية (القصر "سابقا") ومحيطها البدوى جعلنا نعتبرها خلية أساسية من خلايا المجتمع الكبير ، وقد أخترنا منطقة تتسم بالانسجام الجغرافي ، والرعوى ، والديني— وتمثل الى حد بعيد العلاقة الوطيدة التي كانت قائمة بين القصر والبادية ، كما انهما وحدة ادارية منسجمة منذ أمد بعيد ، رغم اختلاف تبعيتها الادارية من عهد لآخر ، ففي بدايات الاحتلال كانت تابعة "للسبدو" ، ثم تحولت الى "البيض" ، وأخيرا الى "عين الصفراء" .. الخ ، وهي بذلك تحذو حذو بعض المناطق في الجنوب الوهراني ، تعتبر هذه الطائفة ممثلة للبدو ، وسكان القصر ؛ وذلك من خلال الموروثات والعقائد والاعراف والعادات القبلية والعشائرية والقيم والاعتبار الاجتماعي الخ ، انها مجموعة نستدل من خلالها على النظم القبلية في الاطلس وجبال "القصور" ، ولكي نعرف مجتمع "الجيل" هذا ، علينا بدراسة احدى قراه ومناطقه من وجهة نظر اجتماعية وانثربولوجية ؛ مما يساعدنا على معرفة تاريخ هذا القطر ، والعلاقات التركيبية التي تجمع بين أعضائه بعيدا عن الاطر النظرية المطورة في مجتمعات تختلف عن المجتمع الجزائرى ، والبدوى على الخصوص .

شملت هذه الدراسة الميدانية القطاعات التالية :ـ

* من حيث الجانب الاثنوغرافي ، تتبعنا فيه تطور القبيلة، وتاريخها ، وهجرتها الى الجنوب الوهراني ، وعلاقاتها ، وأحلافها مع القبائل الأخرى .

* ثم الجانب الاجتماعي والبيئي للمنطقة والقرية على الخصوص.

* القطاعات التعليمية ، والزراعية ، والحرفية ، والسياسية .. الخ .

.../...

الباب الثاني

المجال الاجتماعي والبيئي

.../...

معطيات سوسيولوجية وديمغرافيـــة :ــ

1)ــ معطيات سوسيو ــ اقتصادية حول "سعيدة" :ــ

أ) المهجـــرة الداخليـــة :ــ

اذا أخـذت بعـض الاحصائيـات التي نشرتهـا A.A.R.D.E.S (1) * والخاصة بسعيـدة ، فيمكـن انتقـاء الاحصائيـات الخاصـة بتوزيـع المهاجرين طبقـــا للأصـل الجغرافـي فـي مرحلـة الانطـلاق (1976م) .. وأخـرى تخــص توزيـع هـؤلاء المهاجريـن طبقـا للفئـات المهنيـة فـي مرحلـة الانطـلاق والوصـــول (1976م) ..

الجـدول رقـم (1)

توزيع المهاجرين طبقا للأصل الجغرافي في مرحلة الانطلاق (1976)

الأصل الجغرافي	سعيـــدة	٪
ريفـــي	6239	92.3
حضـــرى	522	7.7
المجمـــوع:	6815	.100

ان نسبـة 92.3٪ تبين أهميـة الأصـل الجغرافـي الذى يدعـم الهجـرة الداخليـة فـي هاتـه الناحيـة ، ويبيـن مـن جهـة أخـرى أن الحـراك الجغرافـي له طابعـه المميز ، اذن ، فمدينـة سعيـــدة تعتبر مركـزا للتجمعـات الريفيـة ، وذلك للموقـع الجغرافـي الذى تحتلـه

.../...

(1) A.A.R.D.E.S:- "Etude Nationale sur les Migrations " PP136 , 165; et172 ALGER 1979.

بين المدن الشمالية القريبة من السهول والشواطيء ، والسهوب التي تحفها من جهة الجنوب ، وكذا لعدم وجود مدن تمتاز بعمران حضرى حقيقي :ـ فعين الصفراء والمشرية والبيض مثلا ، لا تتوفر فيها شروط العمارة الحديثة ، حتى تكون مناطق جذب للسكان بينما "سعيدة" يتوفر فيها ذلك ، وكذلك فان أستفادة مدينة سعيدة من المشاريع التنموية وخاصة الصناعية ،. جعلها قطبا جذابا لليد العاملة ..

والجدول التالي يبين توزيع المهاجرين تبعا للفئات المهنية سواء من حيث الانطلاق أو الوصول (1976م).. وهو يبين أيضا بشكل مباشر ، الحجم الكبير للفئة المهنية الأصلية للأشخاص الذين يهاجرون من سعيدة الى مناطق أخرى (المدن الساحلية طبعا ..) في الشمال .

.....

.../...

الجدول رقم: (2)

توزيع المهاجرين تبعا للفئات المهنية

الانطلاق والوصول (1976)

انطلاق ووصول / الفئة المهنية	الانطلاق (1976)		الوصول (1976)	
	سحيدة %	المجموع الكلي %	سحيدة %	المجموع الكلي %
مزارع ، خماس، موسمي ، دائم	45.48	33	3.88	1.90
عامل يدوي ، عامل متخصص، عامل مهني	1.92	5.97	32.91	27.49
مشتغل في التجارة والادارة، مستخدم	1،44	4،55	32،40	33،36
أشخاص غير نشطين دون مهنة	10.53	16.82	14.90	15.40
متنقلون ، متقاعدون	38.66	33.19	/	/
الباقي	1.97	6.47	15.91	21.85
المجموع	%100	%100	%100	%100

.../...

بالنسبة للانطلاق يمكن تسجيل الملاحظات التالية :-

يلاحظ أن الفئة الاكثر هجرة هي فئة المزارعين ، والخماسة والموسميين ، والدائمين ، سواء أتعلق الامر بأولئك الذين ينطلقون من سعيدة ، أو من باقي جهات الوطن ؛ فانهما - النسبتان - متقاربتين ؛ فالاشخاص الذين انطلقوا من سعيدة ويقعون ضمن الفئة المهنية السابقة الذكر يشكلون حوالي (45.48% (-أنظر الجدول من مجموع الفئات المنطلقة من سعيدة .. وكذلك بالنسبة لباقي جهات الوطن ، فاننا نلاحظ أن الفئات المهاجرة التي تقع ضمن الفئة المهنية - المزارعة - (خماسة .. الخ) يشكلون 33% .

- أنظر الجدول السابق - .

الفئة الثانية هي فئة المتنقلين والمتقاعدين والذين يصعب تحديد مهنهم السابقة ؟ فنسبة هجرتها عالية سواء من سعيدة) ، أو من باقي جهات الوطن - أنظر الجدول السابق -

وهذا مؤشر هام لعدم الاستقرار في العمل ، والتغيير المستمر والسريع له .. أما المتقاعدون فيرجح أن هدف هجرتهم هو الرجوع الى مناطقهم الاصلية لكن يقضوا بقية حياتهم .. وهذا ينطبق على المجموعة التي إخضعناها للبحث .

وهذا ينطبق على الاشخاص غير النشطين او بدون مهنة ؛ وهذه الفئات لم تمارس أى عمل سابق ، أى انها فئات ريفية ، أو شبه - ريفية والتي استقرت في مدينة سعيدة في مرحلة قريبة نسبيا - 10.53% - أما بالنسبة للوصول ، فيمكن تسجيل الملاحظات الآتية :-

.../...

ـ الفئة الاكثر تمثيلا للمهاجرين الى منطقة سعيدة ، هم العمال اليدويون والمتخصصون .. وهذا يوضح بدرجة أو بأخرى قوة الجذب التي يمارسها النشاط الصناعي على السكان ، ويرجح أن تكون هذه الفئة من أصول جغرافية متباينة ، ومركز تنقلها الفئات التي إنطلقت من جنوب الولاية ، وهي على التوالي (32.91٪) مقابل (27.49 ٪) ، على المستوى الآخر ، فان الفئة التي تليها تنتمي الى القطاع الثالث (المستخدمون في التجارة والادارة والخدمات) حيث وصل عددهم الى الثلث من المجموع ، أي بنسبة (32.40 ٪) ، واهميتها تبقى هامشية اذا حاولنا ربطها بفرضيتنا وطريقة الطرح التي ناقشناها ..

أما باقي الاشخاص غيرالنشطين، وما وضعناه في خانة "الباقي" ، فنسبتها معتبرة (حوالي 30,8٪) ، ويرجح أن تكون هذه الفئة من البدو ، وأنصاف البدو والذين تردت أحوالهم بفعل الجفاف ، أو البطالة ...

الحراك الجيلي في ولاية سعيدة

الجدول رقم: (3)

عملية التفقير التي مست أحفاد المربين الكبار * (1)

الاجداد / الاحفاد	أجداد مربون كبار غير مزارعين ٪	أجداد مربون ـ مزارعون كبار ٪
نصيب المربين الصغار (أقل من 100 رأس لدى ـ الأحفاد ـ	٪21	٪5.9

.../...

(1) M' BOUKHOBZA :- " L'Agropastoralisme" op. citée PP 212-213.

ان التحولات الاجتماعية التي شهدها السهسب توضح بأن الزراعة قد أدت الى انخفاض عملية التفقير للمربين ، ذلك أن دراسة الفئات الاجتماعية للبدو تبين بالنسبة للأجيال ،او بالنسبة لممارسة العمل الزراعي أو عدم ممارسته : أن 21٪ من المربين الصغار غير المزارعين (اقل من 100 راس من الغنم) كان اجدادهم يمتلكون أكثر من 400 رأس من الغنم ، مقابل 5.9٪ فقط ، من المربين -المزارعين الذين كان يمتلك أجدادهم أكثر من 400 راس من الغنم.

الجدول رقم: (4)

عملية التفقير التي مست "احفاد" المربين المتوسطين * (1)

الاجداد / الاحفاد	اجداد مربون متوسطون غير مزارعين % 250 — 400 راس	اجداد مربون — مزارعون متوسطون % 250 — 400 راس
نصيب المربين الصغار (الاحفاد)	٪26.1	٪14.7

ونفس الامر بالنسبة للاحفاد (الذين يمتلكون اقل من 100 راس) ، والذين كان اجدادهم مربين متوسطين (يمتلكون من 200 راس- 400 رأس من الغنم) حيث أن القسم الذى يمتلكه الاحفاد من المربين الذين لايمارسون النشاط الزراعي أكبر من الاحفاد المربين - المزارعين (26.1٪ مقابل 14.7٪) ، وهذا يبرهن على أن عملية التفقير تمس اكثر البدو الذين يعتمدون على الرعي.

.../...

(1)M' BOUKHOBZA:- " l'Agropastoralisme..." op.citée PP212 -213.

نظام القطيع ونمط الامتلاك :ـ

الجدول " 5 "

تمركز القطيع في "السهب" * (1) (1968)

فئات القطيع الممتلك	%	
	المالك	القطيع
أقل من 10 رؤوس	64.4	7.6
من 10 الى 50 رأس	15.1	8.7
من 50 الى 100رأس	9.8	15.2
من 100الى 300رأس	6.9	25.4
أكثر من 300 رأس	3.8	43.1
المجموع	%100	%100

من المفارقات أن إغلبية القطيع (أكثر من 300 رأس) ترتكز عند فئة قليلة عدديا (3.8%) بينما عدد قليل من القطيع (أقل من 10 رؤوس) يتوزع على (64.4%) من الملاك وهذا يعكس بشكل واضح البنية الاجتماعية في السهب.

ويمكن اضافة معلومات أكثر دقة طبقا للاستقصاء الذى تحقق في 1971م في ولاية سعيدة ، وذلك مع المربين الرحل :ـ

.../...

(1) M.A.R.A:- "Enquête - Nomadisme" 1968

(1)
الجـــدول " 6 " *

نسبـة المربـين ـ المزارعـين ، من الرعـاة ـ البـدو

طبقـا لفـئة القطيـع مـن "غـنم وماعـز" ممتلك (1971م)

القطيع	1 ـ 20	21 ـ 50	100/51	200/101	400/201	+400	م
ـــن ـــين رعين	55.8	(2)* 80.0	57.2	79.5	83.3	86.2	75.8

ويظهـر مـن خـلال الاستقصـاء الـذى أقيـم عـلى البـدو فـي ولايـة سعيـدة (1971) بأن المربـين الاكـثر ثـراء هـم الذين يوجـد بينهـم عـدد كبـير مـن المزارعـين .

وتظهـر أيضـا النسبـة الكبـيرة للمربـين المزارعـين ، ضمـن البـدو الرحـل فـي كل الفـئات تقريبـا ، اذا ما استثنيـنا الفئـة الاولـى ، والـتي توجـد أيضـا عـليها بعـض التحفظـات كمـا نلاحـظ مـن الهامـش (الملحوظـة (* 2)).

---

(1) M' BOUKHOBZA :- " L'Agropastoralisme .." op.citée P193.

* (2) تفسير هذه النسبة القوية (80%) يرجع الى عدم التصريح بالقطيع الممتلك بالنسبة للمربين غير المزارعين ، والذين لهم أقل من 20 رأسا ، وهـذا يؤدى الى نقل بعض المربين من المجموعة الاولى الى الثانيـة..

الجـــدول رقــم: (7)

(النسبــة ٪ لأربــاب العائــلات الذيــن يمارســـون نشاطات)* (1)
اضافيــة طبقـــا لفئـــة القطيـــــع الممتلـــــك).

القطيـــع الممتلـــــك	مـربـــــون ٪	مربـون ــ مزارعـون ٪
20 غـنـم ، ماعــــــز	88.9	20
50 " ، "	33.3	15.4
100 " ، "	10 .5	2.9
200/1 " ، "	—	1.9
400/2 " ، "	—	—
فأكثر " ، "	—	—
المجمــــــوع:	٪ 19.8	٪ 4.8

تعتبر النشاطـات الاضافيـــة ، هـي نشاطـات مستقلـة ، ومرحليـة (مثل: التجـارة .. الخ) ، وتبـدو النسبـة العاليـة للمربـين الصغـــار الذيـن يمارسـون نشاطـات اضافيـــة (88.9 ٪) أمـا المربـون ـــ المزارعـون، فلا تتعـدى نسبتهـم (20 ٪) .. ذلك أن اللجــوء الـى هاتـه النشاطـات قـد تكـون لاعالــة الأسـرة وسـد حاجتهـا .

ويلاحـظ بخصـوص العائلـة ، أن فئـة المزارعـين ــ المربـين هـي أكثر حفاظـا علـى العائلـة ذات النمط التقليـدى مـن المربـــين دون أرض : وذلك لأنها مازالت مرتبطـة بالأرض ، بينمـا فئـة المربــين دون أرض ، فقـد انقطعـت علاقتهـا بالأرض وهـذا اثـر عـلى نمـط العائلــة ،

.../...

(1) M'BOUKHOBZA:- "L'Agropastoralisme..." op. citée P 214 .

حيث أصبحت أكثر ميلا للعائلة المحدودة (أو مايسميها البحث "بالنووية") ؛ وترتفع نسبة المربين — الصغار (فئة المزارعين— المربين) الذين مازالوا يحتفظون بالنمط التقليدى (أنظر الملحق رقم "1")..

د) التوطين وعلاقته بالنشاط المهني :—

يطرح سؤال في هذا المجال وهو:— "هل يظهر تناقض أساسي بين دلالة أنصاف — البدو (المربون — المزارعون) التي يبرز " تقدما " في اتجاه التوطين ، وضعف في الطابع التقليدى لنمط حياتهم ؟

ان وزن "العادات" في اختيار مناطق الكلأ بالنسبة للمربين دون أرض متماثل سواء كانت السنة جيدة أو سيئة .

بينما يتحرك المربون — المزارعون في السنة السيئة خاصة ، فالحراك الجغرافي "بين" الفئتين يبرز أقل لدى المربين — المزارعين ؛ بينما يبرز "داخل" الفئتين بشكل أقل لدى المربين دون أرض (أنظر الملحق رقم: 2) .

واذا ركزنا على التوطين ، واستثنينا الأشخاص الذين يشتغلون في مهن نبيلة ، والذين استوطن أغلبهم المدن.. فإن البطالة والحياة البدوية متناقضتين مبدئيا ، وبدرجة أقل النشاطات الحرة المأجورة أو الزراعية حين لاتكون سوى ركائز بسيطة لتربية الماشية..

اذن فالنشاط الزراعي ، هو وضعية خاطئة حين يحرم المربي من ماشيته ، فحين يمتلك قطعا أرضية صغيرة فإنه يهتم بها

.../...

مؤقتا ليجد مهنة أخرى أكثر استقرارا .. وبالنسبة للبدو المزارعين فإن التنقل ليس له هدف سوى متابعة النشاطات المأجورة كرعاة لدى الملاك الرحل ، وخاصة لدى المستقرين (..) بأختصار كلما كانت فئة القطيع كبيرة ، كلما كانت نسبة التوطين أضعف هاته النسب هي بالفعل 25 ٪ بالنسبة للاشخاص الذين يملكون أقل من 20 رأسا ، و 16.3٪ بالنسبة للأشخاص الذين يملكون قطيعا بين 20 — 100 رأس ، و 6.5٪ بالنسبة للمربين الذين يملكون أكثر من 100 رأس — (أنظر الملحق رقم "3").

أما بالنسبة للعائلات التي توطنت في ولاية سعيدة بين 1963 — 1970 ، فقد وصلت الى 1492 عائلة أى حوالي 16 ضعف عن الفترة بين 1910 — 1940 :— ويلاحظ أن الفئات التي مسها التوطين هي الفئات التي تقيم في الأماكن الرئيسية للبلديات ، وخاصة المستقرون بأستثناء البدو — المزارعين ، الذين يستقرون بمناطق كثيفة السكان .. اذن فنتيجة لتطور الاتجاه نحو العائلة النووية ، ولتجربة العمل الاجير للبدو ، المستقربين (60.4 ٪ من العائلات في 1970 كانت ذات نمط نووى ...) ، فإن انتشار الحاجات وعدواها المنظمة داخل المجموعات الاجتماعية ، أدت الى تقوية انفجار هذه العائلات .. (أنظر الملحق رقم 5) .

2) سكان منطقة عسلة :—

أ — السكان :— يشكل سكان بلدية عسلة اذا أخذنا الاحصائيات البلدية (1982) حوالي 15٪ من سكان دائرة عين الصفراء ، وحوالي 1.2٪ من مجموع سكان الولاية ، أستنادا الى نفس الاحصائيات .

.../...

هذا المعطى يبين أنها تتمتع باهمية ما ، على الأقل على صعيد دائرة عين الصفراء من ناحية حجم السكان .. ويتوزع هؤلاء السكان حول مراكز معينة ، وينقسمون الى بدو رحل ، ونصف بدو ، ومقيمين ويتوزعون حسب الجدول التالي :—

الجدول رقم: (1)

احصاء سكان البلدية حسب مراكز تجمع السكان (1982.06.06.)

…ـكان	المقيمون	بدو رحل ونصف بدو	المجموع
…سلة	264	1306	1570
…طقة الرحل	425	2114	2539
…ـدية	12	69	81
…م	23	102	125
…ين ورقة	69	330	399
…رجيمات	12	77	89
…يلقراد	13	97	110
… الابيض وسيدى أحمد	26	146	172
…مجموع	844	4241	5.085

والملاحظة الجديرة بالتسجيل هي أن عدد المقيمين أقل من البدو ــ الرحل ، ونصف ــ البدو ، حتى في هاته المرحلة التي أنحدرت فيها البداوة كما سنوضح فيما بعد ، فالبدو ، ونصف

.../...

البدو مازالوا يشكلون (83.4٪) من مجموع السكان ، وهذا يبين أن المنطقة لم تعرف سياسة واضحة للتوطين رغم انشاء القرى الرعوية ، ورغم أن التخطيط يهدف الى توطين البدو ـ الرحل ، الا أنه يصطدم بعدد من الحواجز ، أما اذا رجعنا الى الاحصائيات التي تبين تطور عدد المقيمين ، أو البدو الرحل ، وأنصاف ـ البدو (سنوات 1975 ، و1979 و 1982) فهي كمايلي :ـ

الجـــدول رقم: (2)

تطور عدد المقيمين ، والبدو ، وأنصاف ـ البدو * (1)

السنـــة	المقيمـــون	البدو الرحل وأنصاف ـ البدو	المجمـــوع
1975	800	3911	4711
1979	947	3602	4549
1982	844	4241	5085

اذا اعتبرنا السنة القاعدية (1975) ، فاننا نلاحظ أن عدد السكان الكلي قد تقلص بحوالي 3.44٪ في 1979 ، ونما بحوالي 7.93٪ سنة 1982 ، بينما نما عدد السكان بين 1979 ـ 1982 بحوالي 11.78٪ ، والتقلص يرجع الى الهجرة التي حدثت في هاته السنة " المجدبة" لارتياد مناطق الكلأ في دوائر تبتعد عن الدائرة الضيقة المعهودة ، ونتيجة لهذه الظروف القهرية فقد اتجه البعض الى "الاستطانة الموقتة" قبل التوطين النهائي .

.../...

* (1) احصائيات بلدية عسلة .

ب) الثورة الحيوانية للمستفيدين من القرى الرعوية :ــ

كـان يقـدر العـدد الكلـي للمستفيديـن 199 مستفيـد في القرى الرعويـة ، لكـن لم يقبـل منهـم الا "104" مستفيـد (حوالي 52.26 ٪) أمـا المستفيديـن الباقـين فهـم حوالـي 95 مستفيـد (٪47.74) . وهؤلاء المستفيديـن ينقسمـون الـى مستفيديـن دون ماشيـة ومستفيديـن يملكـون الماشيـة والجـدول التالـي يوضـح ذلك :ــ بالاضافـة الـى توزيـع هـؤلاء المستفيديـن طبقـا للفئـات العمريـة .

الجـدول رقـم: (3)

وضعيـة المستفيديـن طبقـا للسـن

السـن	المستفيـدون: دون ماشيـة	المستفيـدون: بالماشيـة	المجمـوع	٪
21 ـ 25	42	12	54	27.14
26 ـ 30	12	19	31	15.58
31 ـ 40	19	43	62	31.15
41 ـ 60	08	44	52	26.13
المجمـوع	81	118	199	100

* الملاحظـة الاولـى هـي أن عـدد المستفيديـن غـير المقبولـين مبدئيـا ، أدمجـوا فـي الاحصائيـات ، وهـذا يعـني مـرونة كبـيرة فـي شـروط "الاستفـادة" .

.../...

* الملاحظة الثانية هي أن العدد المعتبر للشباب بين 21 ــ 30 سنة :ــ حوالي 42.72% .. وهذا يبين أن هاته المهنة (تربية المواشي) ، لايخشى أن تكون فيها اليد العاملة مسنة ، او أن اليد العاملة "الشابة" غير مكترثة بهذا النوع من النشاط .

* الملاحظة الثالثة ، هي أن عدد المستفيدين الذين لديهم قطيع من الغنم خارج الاستفادة معتبر عدديا 59.30 % ، ولا داعي للتذكير بأن عدد الماشية غير محدد .

الجدول رقم: (4)

ترتيب المربين حسب الفئات (1975 ـ 1979)

نوعية الملاك	الفئة	عدد المربين		عدد الماشية	
		1975	1979	1975	1979
ملاك صغار	1 ــ 50	274	449	؟	15.219
ملاك متوسطون	51 ــ 100		249	؟	19.814
	101 ــ 300	152	101		17.568
ملاك كبار	301 ــ 1000	ــ	ــ	ــ	ــ
المجموع	ــ	426	799	41.554	52.601

الملاحظة الأولى ، هي أن عملية الجرد لم تبدأ الا مؤخرا ، مع انشاء القرى الرعوية ، كما أن الجرود "السابقة" أصيبت بفشل ذريع نظرا لتكتم مربي الماشية فيما يتعلق بعدد حيواناتهم خوفا من التأميم والمراقبة وهذا ما أشار اليه بعض البحاثة في المجال السهبي .

.../...

ثانيا : اذا قارنا بين سنتي 1975 ، و 1979 — نلاحظ تطورا ملموسا ، فالملاك الصغار لم يتجاوز عددهم 274 ملاكا ، بينما كان عدد الملاك المتوسطين 152 مالكا : ويبقى الملاك الكبار غائبين عن التملك ، وكان عدد رؤوس الماشية 554 — 41 رأسا ، دون أن نجد تفاصيل توزيعها بين المربين .

لكن اذا أخذت كل سنة على حدة ، فنلاحظ أن نسبة المربين الصغار في المجموع الكلي سنة 1975 هو حوالي :— 64.32٪ ثم أن نسبة الملاك المتوسطين كانت 35.68٪ من المجموع الكلي . أما في سنة 1979 فقد انخفضت نسبة الملاك الصغار الى 56.20٪ وارتفع عدد الملاك المتوسطين الى 43.80٪ ... وهذا يفسر بأنه تحسن عام في نمط حياة مربي الماشية ، ونوع من الحراك التصاعدي "الداخلي" ، وتؤكد النتائج على مرور عدد من المربين الصغار الى فئة المربين المتوسطين نتيجة للتحولات الاجتماعية التي شهدتها القرية .

لماذا نجد غيابا في الملكية الكبيرة التي تتجاوز (300 رأسا) ؟ قد يكون هذا نتيجة لتكتم المربين الكبار في التصريح بالعدد الحقيقي لرؤوس الماشية — وهي فئة قليلة عدديا قد لاتتجاوز "1٪" —

أو لضعف وزنها في هذه المنطقة .. لأن الشريحة الاجتماعية "الملاك المتوسطون" حولت جزءا من أرصدتها الى مشاريع أخرى مثل "البناء" — اصبح السكن "الواسع" بمثابة امتياز اجتماعي — ونضيف أن منطقة المشرية التي يوجد بها "حميان"

.../...

هي التي بلغت سمعة ملاكيها الكبار الى "التل" لكثرة عدد مواشيهم ، وثرواتهم ، حتى أصبحت أعمدة التلفزة تشاهد منصوبة على بعض خيامهم .. والتي تستعمل فيها بطاريات خاصة وهنا نتساءل عن وضع "المهن" الأخرى - التابعة وهذا مايوضحه الجدول التالي :-

الجدول رقم: (5)

تطور التشغيل بين 1975 - 1979 .

نوعية النشاط	1975	1979	+ ، -
الزراعة	160	180	+
الادارة والخدمات	19	21	+
التجارة	13	20	+
النشاط الحرفي	-	150	+
أشغال عمومية	300	06 (؟)	-
المجموع:	492	377	-

لابد من التنبيه الى أن الاحصاءات في هذا الجانب متضاربة وغير دقيقة - وهذا ضعف أساسي في الاحصاءات المتوفرة في البلدية ، بل ان المصطلح المتبني في أنواع المهن غير دقيق وغامض ، مثال على ذلك التدني المفاجيء لعدد الأشخاص الذين يمارسون الأشغال العمومية من "300" الى "06" .

.../...

أما المشتغلون بالزراعة ، فاغلبهم من سكان "القصر" أى "الشلح" المتواجدون في القرية كما سنعرف فيما بعد : أما المزارعون ــ المربون فهم مستثنون من هذا العدد ..

حا ــ الوفيات والمواليد وحالات الزواج :ــ

الجدول رقم: (6)

المقارنة بين الولادات والوفيات والزيجات منذ 1964 الى غاية 1982

الفترة	المواليد	الوفيات	غير المسجلين (المواليد)	الفرق	الزيجات
بين 1970/64	1069	371	450	+ 1148	341
بين 1975/71	1119	496	167	+ 790	474
بين 1982/76	1742	555	131	+ 1318	537

يلاحظ من الجدول أرتفاع عدد الوفيات في المراحل الثلاثة ، وهذا يفسر بضآلة المرافق الصحية (عيادة واحدة في "القرية" ، والتي لها "ملحق" بالقرية الرعوية "الحاسي الأبيض") .. وعدم تلبيتها لمتطلبات المنطقة .. أما عدد الولادات فهو في ارتفاع مستمر ، وخاصة في الفترة الثالثة ، وهذا النمو الديمغرافي ليس قاصرا على هاته المنطقة وانما عم بعض مناطق الجزائر[1]. لكن ينبغي أن نوضح أن الانجاب لايطرح نفس المشكلات التي تبرز في المجتمع الحضرى ، وخاصة بالنسبة للبدو ــ الرحل .. اذ أن الأعباء الاقتصادية والاجتماعية متدنية اذا قيست بتكاليف المعيشة لدى الحضر .

...../...

* (1) أنظر بعض الكتيبات الخاصة بالنمو الديمغرافي .
"L'Algerie en quelques chiffres "

ويلاحظ أيضا العدد المعتبر للأطفال غير المسجلين ، الذين ولدوا في أغلبهم ـ قبل الفترات المذكورة ـ لكن لم يسجلوا ؛ إما لظروف الثورة التحريرية ؛ أو لطبيعة البدو في الترحال المستمر .. اذ لا يهتم البدو بتسجيل أبنائهم طبقا لظروفهم المعيشية ولانتشار الأمية بينهم .

أما فيما يخص "الزيجات" فعددها مرتفع ؛ اذا قارناها بالمعطى الديمغرافي للمنطقة ، وهذا يبين خصوصيتها ؛ فسن الزواج مبكر اذا ماقورن بسن الزواج في المجتمع الحضري ،وكذا فان تكاليف الزواج ، والوسائل اللازمة لتحقيقه (سكن ،أثاث .. الخ) ليست ذات أهمية .. الأثاث الكثير غير مطلوب ، بل يطلب من العروسة "البديل" ؛ وهو أن تمتاز بمعرفة عمل الزرابي والتدبير المنزلي أما "السكن" .. فالخيمة تسع لعدة "أسر" في اطار الأسرة الموسعة ، أو تضاف "عشة" أو سكن "للبناء الذاتي" ...

ـ التعليم وعلاقته بمهنة الآباء :ـ

الجدول رقم: (7)

عدد التلاميذ الجدد منذ الاستقلال الى 1982

وعلاقة ذلك بالفئة المهنية للآباء (5 سنوات مدرسية)

المختارة / المهنية	السنة 64/63	السنة 68/67	السنة 72/71	السنة 76/75	السنة 83/82
...ي أو فـي ...ـح	—	—	08	06	03
...بنـاء	—	01	05	10	14
عـضو ...ـب	08	03	—	—	14
تاجـر	—	04	03	05	08
...ـم	—	—	—	01	—
...لديـة	—	—	02	01	—
...ـي	—	09	02	06	11
أخـرى	12	26	02	10	07
...ـد	01	—	—	01	—
...ـوع	21	43	22	40	57

.../...

ملاحظـــة :ــ

بمـا أن الجـدول الأصلـي كـان يحتـوى عـلى فئـات مهنيــــة كثـيرة فقـد حاولنـا جمـع بعضهـا فـي اطـار واحـد (مـثل :ــ المقـاول والبنـاء مـثلا ، أو العـامـل اليومـي ، والعامـل في المصنـع بمدينـة مجـاورة أو بعيـدة ..) لكـن نفـرق بينهـا حينمـا يتعلـق الأمـر بالنســـب المئويـــة .

يلاحـظ خـلال السنـة الدراسيـة (1963 ــ 1964) : أن أغلب أوليـاء التلاميـذ يعانـون من البطالـة 57.14% : ونفـس الأمـر بالنسبـة للسنـة المختـارة المواليـة لها (1967 ــ 1968) :ــ 51.16% تقريبـا .

* أمـا بالنسبـة للسنـة الدراسيـة (1971 ــ 1972) ، فيلاحـظ أن العمـال اليومـيين يشكلـون 36.36% من المجمـوع العـام .

* ونتيجـة لتطـور قطـاع البنـاء : فقـد ظهـر أن التلاميـــذ الذين يمتهن أباؤهم حرفـة البنـاء هم فـي ازديـاد مضطـرد ففـي السنـة الدراسيـة (1975 ــ 1976) يشكلـون حوالي 25% : وفـي السنة المختـارة المواليـة أخـذوا نفس النسبـة تقريبـا 24.56% .

ــ والجـدول المـوالـي يوضـح المقارنـة بين بلديـة عسلة والباديـات الأخـرى فـي مـيدان التعليـــم :ــ

الجـــدول رقم: (8)

مقارنة بين بلدية عسلـة وبعض البلديات الاخرى (1970)

البلديـة	التلاميذ في سن الدراســة	التلاميذ الذين يتابعون الدراسة	ع/ الأقسام
عسلـة	859	129	05
مقـرار	871	439	15
النعامـة	2135	93	0 5

.../...

الوسط الطبيعي :-

1) - الموقع والبيئة :-

قبل التعرض لموقع "عسلة" وبيئتها ومناخها ، لابد أن نعطي بصفة مختصرة موقع الولاية (سعيدة) ، وبيئتها ، والسهب بصفة عامة .

يحد ولاية سعيدة من الغرب :- " المغرب ، وتلمسان" ؛ ومن الشمال وهران سابقا ، ومستغانم سابقا ، ومن الشرق ولاية تيارت ؛ ومن الجنوب ولاية "بشار" ، مساحتها حوالي 109.952 كم2 ، حيث أن القسم الأكبر يتسم بالنشاط الرعوي ، وقد بلغ مجموع سكان الولاية سنة 1973 حوالي 333 ألف ساكن ؛ منهم 36.3٪ يعيشون تحت الخيام ، و 34.8٪ من السكان الحضر ، والباقي (28.9٪) يتشكلون من سكان الريف "القاطنين" يمارسون النشاط الزراعي ، يعيش السكان البدو ، ويتواجدون في الدوائر الجنوبية للولاية :- البيض (63.676 كم2 أي بكثافة 1.47 ساكن/كم2 ، ثم المشرية (20.472 كم2) - أي بكثافة 2.44 ساكن/كم2 وعين الصفراء (10.362 كم2) ، أي بكثافة 3.47 ساكن/كم2 * (1) .

أما بلدية عسلة فتقع في دائرة عين الصفراء ، ولاية "سعيدة" - ولاية "النعامة" حاليا - تحدها شمالا بلدية النعامة ، غربا بلديتي عين الصفراء ، ومغرار ؛ جنوبا بلدية بني ونيف ؛ وشرقا بلدية بوسمغون ، و"عين العراك" .

مساحة بلدية عسلة "3248 كلم2" تشكل الجبال (38٪) ، والسهول (1.39٪) ، والباقي (60.61٪) أراضي خاصة "بالرعي" ، سهوب وأراضي رملية . الأراضي الرملية لوحدها تأخذ مساحة معتبرة

.../...

(1) voir, M' BOUKHOBZA :- "L'Agropastoralisme ..." op. citée P419 .

324.800 هكتار ، فيما يخص النبات ؛ تأخذ الزراعة 39.1٪ ، وهي استغلالات فلاحية صغيرة ، بينما تأخذ النباتات الجبلية حوالي (30٪) ، في حين تأخذ النباتات في الأراضي الرعوية (50٪) ، أما الحلفاء فتحتل (14.17٪) من المساحة الكلية مناخ البلدية قاري على وجه العموم ، جاف صيفا ، بارد شتاء ، معتدل فصلي الربيع والخريف ، تأخذ الرياح الرملية مدة زمنية تقارب 180 يوما ؛ اما رياح "السروكو" فيصل معدلها "7 أيام" وهاته الرياح ضارة بالنبات لأقصى درجة شأنها شأن الجليد الذى يقدر بحوالي 60 يوما ؛ بينما لايتعدى معدل سقوط الثلج "4 أيام".. أما المطر الذى يعتبر الحاجة التي لاغنى عنها بالنسبة للبدوى ، ومربي الماشية خصوصا ، فلا يتعدى 200 ملم/سنويا ؛ وقد يصل في بعض سنوات الجفاف أقل من هذا المعدل بكثير.

اذن ، طبيعة التضاريس والمناخ ، والموقع ، كانت مجتمعة سببا في تبعية مربي الماشية لما تجود به الطبيعة .. لهذا نجد البدوى مثله مثل الفلاح يتطلع الى ماوراء الطبيعة ، ويتطلع الى السماء مستعينا بها لانزال المطر ، فهذه المنطقة جافة او شبه جافة ، وهي محرومة من المطر بمعنى الكلمة ... كما أن وجود الماء أكثر أهمية من وجود الكلأ الاخضر ، وافتقار المربين الصغار الى وسائل نقل الماشية ، يدفعهم الى تركيز ماشيتهم على الاماكن التي يتوفر فيها الكلأ ، بعيدين عن منافسة كبار المربين الذين يملكون خزانات المياه ويسمح لهم بنقل ماشيتهم الى الاماكن التي يتوفر فيها الكلأ * (1).

ان الجفاف قد مس المنطقة منذ عشرية مضت ، وهذه الوضعية أدت الى القضاء على القطيع .. وبعد مراكز المياه صعب من نقل الماء .. لذلك فإن ممارسة نقل الماء في الخزانات له

...//...

(1) Rapport de la Wilaya des OASIS : In; seminaire International sur le pastoralisme – 22/ 28 Avril 1974.

ميزتـان أساسيتـان :ــ

1) ــ نقـل المـاء يلغـى بالـضرورة أرتيـاد الكـلأ بقـرب المنابـع ، والآبـار والجب .. ويسمـح بالغـاء الترحـال الطويـل والمتعـب والـــذى يـوءدى الـى تقليـص نمو القطيع الفـــتي .

2) ــ يسمـح للمربـي أن يختـار أماكـن المرعـى ــ وهـو آمتيــاز ــ ليـس علـى أسـاس بعـد أو قـرب مكـان المـاء ، ولكـن طبقـا للسمـــات الغذائيـــة ، والوضعيـة الجغرافيـة لهاتـه الأماكـن * (1).

وســوء توزيـع الأمطار يـوءدى الـى آثـار سيئـــة فيمـا يخـــص النباتـات الطبيعيـة .. ففـي المناطـق السهبيـة والجافـة فاءن نمـــو النبـات يتـم طبقـا للأمطار خاصـة فـي الربيـع والخريـف ، وهذا يوءثــــر عـلى القطيـع في "جويليـة" ، و "نوفمبر" ، و "ديسمبر" : حيــــث أن عـدم كفايـة التغذيـة يـوءدى الـى اصابتـه بالمـرض المعـدى ــ أمـــا الحـرارة ، التي تشتهـر بها المنطقـة فـي الصيـف ، فلهـا صلـة بالأمطار ، وهذا يـوءدى الى تغيير كـبير فـي نمـو النبـات المزروع أو الطبيعي .. اذ أن ارتفـاع درجـة الحـرارة أو هبوطهـا يفـرض زرع بعـض النباتـــات مبكـرا أو متأخـــرا * (2) .

من المعـروف تاريخيـا أن هاتـه المنطقـة تحولـت شيئـا فشيئـــا منـذ ماقبـل ــ التاريـخ ، من نبـات سهـبي متوسطـى ثـم غابـــات ذات امـطار بـين 1000/500 ملم ــ الى غابـات من الصنوبـر ، وأراضي خضـــراء وزيتـون ، ثم غابـات ، "السافانـا" الـى أن بـدأ التـدرج فـي التصحـر .. فرذاذ الرمـال تحملـه الريـح ، ويصبـح عـبارة عـن تـلال وعـروق رمليـــة ، أما القســم الصلـب فاءنه يـشكل "السرق والحمادة .. * (3).

.../...

(1) C/ BENAOUM:- "Les obstacles au développement de l'Elevage pastoral " In; Seminaire International sur le Pastoralisme ALGER 22/28 Avril 1974.

(2) C/N.BOUATTOURA:- "Les Cultures Fourragéres en Culture Séche " IN; Seminaire International sur le Pastoralisme - ALGER 22/28 Avril1974.

(3) M.A.R.A:- "Le reboissement et le brise- vent steppique"In; Seminaire Int. sur le Pas. 22/28Avril1974.

وبالاضافة الى التصحر ، فان الانجراف يؤدي الى فقد التوازن ، وهو نوعان :— الانجراف الذي ينجم عن المطر ، والانجراف الذي ينجم عن الريح ، فالاول ، قد يتركز أو يتفرق في مجال معين ، ويؤدي الى نوع من انجراف الطبقة السميكة من الارض .

أما الريح فيؤدي الى انجراف الأجزاء الدقيقة ، والتي يكون المطر قد أدى الى افسادها في الفصول الرطبة * (1).

وحسب بعض التصنيفات فان المنطقة موضوع البحث تمثل "الفئة الرابعة" أي انها ذات مراعي صحراوية ، كما تمثل منطقة الغابات الجافة الاقل من 200/100 ملم ، وتتكون من 25 مليون هكتار في كامل القطر ، والكثافة بالنسبة للقطيع هي 1ماشية —10 مواشي / 20 هكتار ، وتتوفر فيها بعض النباتات من حلفاء ، وشيح ، وسنخة وقطف ، ورتم .. الخ . لكن بفعل الجفاف فانها بدأت تتضاءل *(2)

هذه ، هي البيئة الطبيعية والمناخ ، فهل انسجم التخطيط الرعوي مع هذه الظروف القاسية .

<u>المرحلة الثالثة من الثورة الزراعية واعادة تنظيم السهب:—</u>

يعرف الملحق الخاص بالسهوب (المرحلة الثالثة) "السهب" :— "ان السهب هو المنطقة الشاسعة التي لايمكن نظرا لجفاف مناخها ، اجراء أية زراعة فيها دون ري — غير أن نباتها الدائم يسمح بتربية الغنم ، لذلك فإن منطقة "الخروف" تمتد من جنوب خط التماطر المتوسط 400 مم سنويا ، الى خط التماطر 100 مم حيث بجنوبه تبدأ مباشرة الصحراء الكبرى ، وبهذا التعريف فان السهب ينطي قرابة 20 مليون هكتار : منها 15 (مليون) صالح

.../...

(1) <u>M.A.R.A:</u>- " Le reboissement...." op.citée.

(2) <u>C/ R.CHELLIG:</u>- " Les Patûrages steppiques" In; SEM.INT.sur le PAS.1974.

فصلا لتربيـة الماشيـة ، أو الجزء الشمالـي الواقـع بـين خـطى التماطـر 400 و 300 مم ". وهـو مايستعمـل غـالبا لزراعة الحبـوب القليلـة الانتـاج أضـرارا بالمرعـى " * (1) .

ثـم يضيف نفس الملحـق :ـ "تقـدر قطعـان المناطـق السهبيـة حاليـا من 8 الى 10 ملايـين رأس غـنم عـلى الأقـل ، وهـي تشكـل الطاقـة الرئيسيـة لانتـاج اللحـم والصـوف للبـلاد ، وبالتالـي ينبغـي اعتبارهـا كـثروة وطنيـة هامـة بالرغـم مـن أنها لازالـت بعيـدة عـن بلـوغ مستوى الانتـاج الممكـن تقنيـا ، وهـي معرضـة دوريـا للابـادة بفصـل الجفـاف ويعتـبر القطيـع المـورد الرئيسـي ان لم يكـن الوحيـد لحوالـي 170 ألف أسرة ، ومن ذلك فان تربيـة القطعـان وما شملتهـا من نشاطـات تابعـة لها مباشـرة هـي الانتـاج الهام والوحـيد فـي المناطـق السهبيـة * (2).

ويحـدد الملحـق ثلاثـة إسبـاب رئيسيـة أدى تظافرهـا الـى انحطـاط ظـروف معيشـة وعمـل المنتجـين الرعويـين وهـي :ـ

أ ـ استغلال الانسان للانسان :ـ يعد الاستغلال حـسب الملحـق مستمـرا بعـد الاحتـلال (..) فنصـف القطعـان ملك لاقـل مـن 5% مـن المربـين الكبـار الذيـن يستطعـون مضاعـفة دخلهـم عن طريـق تجـارة المواشـي ... والذيـن يلجـؤون الـى وضـع قطعانهـم تحـت حراسـة رعـاة لا يستطعـون رفـض شروطهـم نظـرا لعـدم توفـر مـصادر أخـرى لهم نتيجـة للعزلـة فـي الحـياة السهبيـة ". ويمتـد هـذا الاستغـلال حـتى لاسـر الرعـاة دون أن يحصلـوا عـلى أجـر مـن ذلك ، ويـزداد بؤسهم بحكم مـدة التنقـل ، ومن حيـث حرمانهم من الخدمـات : التعليم ؛ العـلاج المجانـي ،

.../...

* (1) ميثاق الثورة الزراعية ـ المرحلة الثالثة ـ "الملحق المتعلق بالسهوب" نشر = وزارة الاعلام والثقافة جانفي 1975 ـ ص : "7".

* (2) نفـس الملحق ـ ص 7 ـ

ب) ـ استغلال المراعي :ـ

بعد تأكيد الملحق على الارتباط بين مصالح الاستعمار ، والمربين الكبار في استغلال المراعي ،... يرى أن نتيجة ذلك تمثلت في استعمال السهوب بدون أنتظام من ظرف المربين الصغار والرعاة ، كزراعة بعض الأراضي للاستهلاك الشخصي ، واقتلاع بعض النباتات :ـ الحلفاء للوقود دون احتراس ؛ ومن ثم اصبح الوضع خطيرا ... ومن هنا يشير الملحق الى ضرورة التدخلات "التقنية" التي سوف يكون أثرها محدودا كما سنعرف .

ح) ـ شبكات استغلال المنتجين الرعويين :ـ

يقارن "الملحق" بين المناطق السهبية ؛ وباقي جهات البلاد فيرى بأنها في وضعية "الضعف" حيث أن هياكلها الأساسية ضئيلة جدا ولاسيما المواصلات والخدمات الاجتماعية ، ولازال التأطير التقني والاداري فيها غير كاف .

أما الشبكات التجارية فهي منظمة بصفة تجعلها تمتص ثروات السهب لفائدة المضاربين في الشمال أو المدن * (1).

* أما مشروع "قانون الرعي" فينص "بأختصار" على :ـ

أ ـ تشكل البلدية موءسسة ديمقراطية تضم جميع القوى الاجتماعية النشيطة ؛ ولها دور مزدوج ، فهي مكلفة بوضع الثورة الزراعية حيز التطبيق في الوسط الرعوى بموجب أحكام الأمر رقم: 73/71 ؛ الموءرخ في 8/نوفمبر/1971 ، ومن جهة أخرى فهي مسوءولة

.../...

* (1) نفس الملحق ـ ص 8 ـ

عن متابعة مشاكل الانتاج ؛ وتحسين شروط البقاء في الوسط الرعوى ، ويرجع لها دور السهر على نظام استغلال الوسط والعمل على التطبيق الديمقراطي لقرارات وقاية النباتات ، و دورة المراعي ..

"ب" ـ التعاونيات البلدية المتعددة الخدمات :ـ التي تشكل المحرك الرئيسي للمجالس الشعبية البلدية الموسعة الرعوية ، ولها دور هام في التجهيز لتنمية المناطق الرعوية ، خاصة ، وانها ذات بعد ومدى يتجاوزان امكانية المربي .

"ح" ـ تنظيم التسيير والانتاج :ـ لأن هذه التجربة إظهرت نجاعة التسيير والاستعانة الجماعية بين المراعي ؛ وهي بذلك تمثل نموذجا واقعيا للتسيير المباشر ، وعليه فإن أى نشاط في الوسط السهبي لتحسين شروط البقاء لا يمكن أن يكون ذا فائدة الا اذا كان جماعيا ، أو مرتكزا على تظافر المنتجين ..." .

مصاعب تطبيق المرحلة الثالثة :ـ

لكن ماهي المصاعب التي واجهتها تطبيق "المرحلة الثالثة" في منطقة سعيدة ؟

يبدو أن المخطط أغفل بعض الجوانب ؛ فتقرير السهوب (الملحق) مغرق في التحليل "السياسي" ؛ وهذا ليس نفيا لأهميته بقدر ما هو تنبيه للمسائل الأخرى .. فتخطيط القرى الرعوية على الشكل الذى تم في هذا الميثاق لا يستجيب للوضع الطبيعي للمنطقة .

.../...

ولا يخلو رأى "معروف"من الصحة حين "يقول :- "يبدو أن"قانون" "الرعي" بالاضافة الى "التراجع" المذكور : لايرى السهب الا من خلال مصير الرعاة ، بل "المستفيدون" منهم فقط ، اذن ، فهذا لايعدو انطباعا للتيار "الشعبي" .... " POPULISME" أكثر منه تخطيطا مجاليا واقعيا * (1) فالسهوب ، ليست كالأراضي الزراعية : والسكن السهبي لايخضع لنفس المعطيات التي يخضع لها السكن الفلاحي .. فالفرق واضح بين مهنة تستدعي "الترحال"، وأخرى تستدعي "الاستقرار" .. كما أن المنحة التي يأخذها "المستفيد" يقيمها بطريقة معيارية ، فهو يرى أهميتها أو عدم اهميتها طبقا للعمل المأجور : وهذه من الاشكالات التي أغفلها المخطط .

كذلك فان عدم الاستشارة الديمقراطية والحملات التي سميت بحملات التوعية كانت وراء الكثير من المشكلات المطروحة ، بل ان البرامج المقترحة كانت تأتي من أشخاص ليست لديهم اى خبرة عن الرعي .. هاته المسألة "جوهرية" ولوحظت في كثير من المناقشات والحلقات التي جمعت الباحث والمخبرين .

أغفل "المخطط" عددا من المعطيات الاساسية ترتبط بالواقع السهبي ، نذكر منها :-

1/- يرفض المربي "خفية" طريقة الامتلاك الجماعي للماشية ، فهو يسعى الى الامتلاك الفردى لها ، حتى وان تم ذلك عن طريق التسليف .

---

(1) N.MAAROUF:- "Térroirs et Villages ALGERIENS" ...op.citée. P373.

2) ـ يرتبط البدوي أكثر من غيره بالعلاقات القرابية والقبلية ، والصعوبة تكمن في تحويرها ، اذ أنها راسخة . وقد لاحظ كثير من الكتاب المهتمين بالواقع السهبي أن بعض التعاونيات الرعوية تعاني من عوائق على صعيد العلاقات الانسانية نظرا لانتماء أعضائها الى قبائل وشرائح مختلفة ، فالمربي يرى أن الامتلاك الجماعي اذا أصبح أمرا واقعا ، ينبغي أن يمر من خلال هذا المنظور .

3) ـ عوض أن يكون السكن دعما لنشاط مربي الماشية : أصبحت المشاكل ـ بالعكس ـ تنجم عنه ، فتربية الماشية تتطلب الترحال . وقد يفاجأ المحقق أن ساكني القرى الرعوية هم غير المستفيدين .

أ ـ مصاعب "انسانية" :ـ

مازال "المستفيد" يعتبر "راعيا" وهذا للتقليص من اعتباره الاجتماعي . يقول أحدهم :ـ "لقد قيل بأننا رعاة لدى الحكومة ".. ومضايقته بشتى الوسائل سواء ، الادارية أو المالية ، أو غيرها .. بل وصل الأمر الى الجانب "الديني" حيث اعتبرت الزكاة من ماشية الاستفادة "محرمة" وغير مقبولة "شرعا" وهذه الاشاعات روجت من مركز "البلدية" (قرية عسلة) . التي أصبحت تتحكم في مصير المستفيدين : ويرتبطون بها اقتصاديا، واجتماعيا ..

.../...

فهذه المقاومة كانت خفية لفترة ما ، لكن تحرك "الخواص" واستيلائهم على المراكز الحساسة في البلدية جعلهم يوجهون الأشخاص حسب طريقة محددة تضرب المصالح الحيوية للمستفيدين الجدد في العمق ، هذه الوضعية ضاعفها عدم اقتناع بعض المستفيدين بالاستفادة ؛ في كون طريقة الانخراط تمت بطريقة قسرية — أى دون مشورة المعنيين بالأمر" * (1) .

ويضيف قائلا :— " سبب قبول المستفيدين الاستفادة يرجع أساسا الى علاقة التبعية المطلقة لشيخ البلدية الذى يعتبر في العرف الاجتماعي صاحب الرأى السديد والنافذ ؛ فما دام قد وافق على شروط الاستفادة ، فانه لايريد الا الخير والصلاح لسكان البلدية * (2) .

وهذا الأمر حسب رئيس التعاونية ، كان سببا مركزيا في الحصول على الماشية ؛ أضف الى ذلك أن العدد (105 رأس "ماشية" لكل مستفيد) يعتبر بمثابة "حلم" لم يكن مربي الماشية يصدق بوقوعه ، فكثير من الأشخاص الذين كانوا يعملون بالقطعة في البناء خاصة توجهوا الى "عسلة" وسجلوا أنفسهم في قوائم الاستفادة .. وقد تمت المرحلة الأولى في ظروف جد عادية ، كما يذكر رئيس التعاونية ؛ حيث تجمع "13 مستفيد" في التعاونية الرعوية ، ساد بينهم التفاهم والانسجام ؛ وكانوا يتميزون بمعرفة جيدة لمهنة تربية الماشية ؛ ولما اضيف لهم "13 مستفيدا آخر" ، أغلبهم من الشباب الذين

---

* (1) حديث ط. بالأخضر . رئيس التعاونية للحاسي الأبيض.

* (2) نفس المخبر.

تخلوا عن المدرسة والذين لاتهمهم المحافظة على الماشية ويبدو عدم الاكتراث أثناء مطالبة رئيس التعاونية بحراسة الماشية ، وظهر نوع من التفكك الاجتماعي نتيجة لهاته الوضعية وغياب الروح الجماعية .

لذا ، فلما واجهوا الواقع الاجتماعي وجها لوجه ، أصيبوا بخيبة أمل كبيرة ، والتي ترجع كما ذكرنا سابقا الى سوء فهم لحملة التوعية التي قام بها الطلبة وذلك لسوء شرح الطلبة لمضامين المرحلة الثالثة أو مبالغتهم في الوعود التي إضمحلت نتيجة لاصطدامها بالواقع .. وهذا الامر لم يتوقف على الطلبة فقط بل تعدى الى سوء التفاهم الذى حدث في مضامين المرحلة الثالثة ، أى بنفس الطريقة كما شرحتها اللجنة المكلفة ، وكما أستوعبها المستفيدون .. يقول أحد المستفيدين :— "المسؤولون هم طرف في افلاسي" ، ويذكر آخر أن "التهاون" ظاهرة نتجت عن حملة التوعية المضللة ، وكذلك نقص الخدمات الاجتماعية .

ويضيف آخر :— "كنت أنتظر الحصول على "150 رأس من الغنم"، فخمسون الباقية ، تبقى كذخر استعين به .. وربما يطرح مشكلا يتمثل في وفاة الماشية ، أو الجفاف ، أو مصاريف حفل الزفاف ، أو قد يصل ذلك الى كسب سيارة بالاشتراك مع أخي ، و أبقي "المائة" حفظا للتوازن " .

— مصاعب مادية :—

تعتبر مشكلة الحصول على "العلف" ، وتحديد "كمية" ، والفترة الزمنية المخصصة لتسليمه .. من المشاكل الأساسية التي يعاني منها المستفيد في القرية الرعوية ، فالكمية غير كافية ، حيث تبلغ 2 كلغ/ الزوع شهريا ، و 2/كلغ من النخالة .

.../...

وهـذه الكميـة لاتسـد حاجـة شـاة واحـدة فـي هـذه المدة ؛! فما بالك ، بالباقـي كمـا أن الفـترة الزمنية لتسليم العلـف أيضـا غـير كافيـة ، حـيث يتسلـم المستفيـد العلـف "شهريـا" ؛ ومن المفـروض حسب الخـبرة أن يتـم التمويـن كل "15 يوما" ... أمام هـذه الوضعيـة: ضاعـفت السـوق السـوداء نشاطاتهـا ، واستغلـت هـذا الضعـف : ويمكن أن نضـم هـذا الـى ماذكـره "معـروف" بأن السـوق السـوداء تـؤدى دورا نشيطـا فـي المناطـق ذات الاستغـلال الرعـوى ، أو الرعـوى ـ الزراعـي ، وهـي الـتي تـقوم بعمليـة التمويـن لكـن بأسعـار خياليـة ... ويلجـأ المستفيـد الـى تسديدهـا من مصاريفـه الخاصـة ؛ هاته المصاريف التي لاتسـد حـتى حاجتـه اليوميـة .

بل ان الاقتطـاع الذى تفرضـه الدولـة عـلى المستفيـد (قيمـة المنحـة :ـ 600 دج) ؛ فانـه يصـرف عـلى وسائـل الاستهـلاك المنزليـة (افرشـة ، أوانـي منزليـة ...) ، أو يخصصـه للعلف ؛ ونتيجة لذلك يواجـه المستفيـد مشكلتـين :ـ

1) ـ تقليـص قـدرة الادخـار لديه ، وبالتالـي يزداد دخلـه السنـوى ضعفـا .

2) ـ مضاعـفة المصاريـف ، واثقـال كاهلـه بالديـون الـتي أصبحـت صعبـة التسديـد * (1) .

حـ) ـ مصاعـب خاصـة بالقطيـع:ـ

ان أغلبيـة الماشيـة غـير ولـودة ؛ وذلك نتيجـة لقلـة عـدد الكبـاش ("5" كبـاش ضمـن "105" رأس مـن الماشيـة) ـ وكذلك فان

---

* (1) حديـث .ط. بالاخضر "رئيـس تعاونيـة" .

المنطقة الجغرافية التي جلبت منها الماشية وهي منطقة "التل" لاتتلاءم مع طبيعة السهوب ؛ والاطلس الصحراوى (تغيير المناخ ، وطبيعة الأرض —) .

والخلاف الذى ينشأ بين المستفيد ، والسلطة المحلية في البلدية ، هو تبرير ضياع "الماشية" .. فأغلبية الماشية تعاني من مرض خاص بالكبد ؛ وهو الذى جعل نسبة ضياعها تصل الى حوالي 60% ،وقد خصص طبيب بيطرى عاين هذا المرض، وأصدر "شهادة بيطرية" تثبت ذلك .

رغم ذلك فرض على المستفيدين تعويض الماشية الضائعة ليبقى التوازن في العدد الممنوح (105 رأس من الماشية).. ولما سألوا عن دواء هذا المرض أخبروا بأنه يستورد من الخارج ، ولا يوجد بالجزائر .

و) مصاعب بيئية وطبيعية :—

لتحديد اراضي "الرعي" أحيطت مناطق بأسلاك مغلقة ؛ وهذا كان له رد فعل سيء بالنسبة للمربين أو المستفيدين أو البدو — الرحل على العموم ، فالماشية قد ترتاد الكلأ في منطقة معينة ؛ لكن هاته الأرض قد يصيبها "الجدب" ، لذلك يضطر المربي لأن يغير المنطقة التي يرتاد فيها الكلأ... اذن ، فتحديد المساحة والمكان أمران لايستجيبان لطبيعة وترحال مربي الماشية * (1) .

* (1) رأى ط. الشيخ — رئيس بلدية "سابق" .

.../...

أما الاسلاك فقد أنتزعت وبيعت خفيسة الى بعض البدو الرحل من قبائل "أولاد نائل" لاستعمالها للحاجة — وهذا يبين مصير هاته المناطق نفسها " .

يلاحظ أيضا أن آبار المياه توجد خارج التعاونيات الرعوية (11 بئرا) ؛ بينما داخل التعاونيات الرعوية لا يوجد أى بئر * (1) ، ويضيف مستفيد آخر :— " طبقا لظروف الجفاف ، فقد يكون الخوف حقيقة نتيجة لضياع الماشية ، والمطر ضرورة ملحة للمحافظة على الماشية ، وتربية الماشية التي تعتبر المصدر الوحيد للمال والكسب ، ترتبط بهذا الظرف المناخي .. فقد قيل لنا :— "تترك الماشية للفسحة ويستطيع صاحب الماشية أن يصلي صلواته الخمس .. " لكن في الواقع فان المستفيد يصل منهكا ومتعبا ، وقد يفرط حتى في فرائضه الدينية" فالظروف الطبيعية قاهرة " .

هـ) — مصاعب الرقابة والحقوق المدنية :—

أصبحت الرقابة شبحا يخاف منه المستفيد ؛ فهو يعلن عن خوفه من السلطة القضائية مباشرة مرورا بالبلدية ؛ وهذه الرقابة على عدة مستويات الماشية" "العلف" "السكن" ، "الديون" .. الخ . فالتقليص من عدد الماشية قد يعرض صاحبها الى متابعات قضائية ، والتي قد تكون نتيجة طبيعية "لوفاة" الماشية ، ونفس الامر بالنسبة للعلف ، فلو ضبط مربي الماشية مع أحد الخواص لشراء العلف في السوق السوداء لعرضه ذلك الى العقاب .. ونفس الامر بالنسبة للطرد من السكن .. لكن لانبالغ اذا قلنا بأن أغلبية المحتلين للسكن ؛ ليسوا من المستفيدين أصلا ، وانما ذويهم

* (1) المخطط البلدى للتنمية (1979) .

(أب ، أخ .. الخ) ... أما تسديد الديون فهو مصدر الخوف بالنسبة للمستفيد ؛ فهو يخشى ألا يسدد ديونه نتيجة للصعوبات الايكولوجية ، والمناخية ، والعلفية ، وهذا مايعرضه للسجن مباشرة .. نخلص من هذا الى أن "الرقابة" تأخذ في ذهنية المستفيد حيزا واسعا ، بل ان تصرفه وسلوكه يخضع لها .

أما بالنسبة للحقوق المدنية ؛ فيلاحظ أحد المستفيدين :ـ "ان القانون يمنع المستفيد من بعض الحقوق المدنية مثل الحصول على دكان وغير ذلك ... أو الحصول على مسؤولية ما في البلدية .. والتبرير المقدم هو "الاستفادة" ـ والبلدية هي التي تقوم بسن القوانين * (1) .

ويضيف :ـ "قد ينسحب شخص نتيجة لعذر ما (مرض أو فشل ..) لكن يفرض عليه تولية شخص مكانه .. وهذه المسألة تطال السكن أيضا ، فالانسحاب يقتضي التخلي عن السكن .. فقد يتعرض الابناء للطرد ... ويرمى أثاث البيت " * . (2).

أما أحد المستفيدين فيقول :ـ "قبل صدور القوانين كانت الماشية تعتبر مجانية لفائدة المحرومين ، وأنك تستطيع التسديد لمدة خمس سنوات ، سواء الماشية أو السكن أو التكاليف الاخرى .. وهذا جعل المستفيد يتطلع الى السيارة أو الى الدكان ـ أو الوسائل التي تضمن الترقية الاجتماعية * (3) .

اذا تحدثنا عن الترقية الاجتماعية ؛ فهذا يقودنا الى الحراك الاجتماعي أو الجغرافي .. لكن قبل التعرض لذلك ؛ نورد بعض الاقتراحات .

---

* (1) ، (2) ، (3) :ـ أقوال متفرقة لبعض المستفيدين في القرية الرعوية "الحاسي الابيض" .

.../...

* اقتراحات وآراء :ـ

* فيما يخص العتاد ؛ فقد لوحظ أن الشاحنات الصغيرة (مازدا) منحت لبعض الخواص والتجار ؛ في حين كان ينبغي منحها لمربي الماشية .. وهنا يلعب الوزن الاجتماعي والاعتبار الاجتماعي ، الدور الحاسم" * (1) .

ـ "فيما يخص الماشية ، فالأحسن أن تكون ملكا خاصا ، يتصرف فيها المستفيد ، كيفما شاء ؛ وبذلك يستطيع أن يعوض ماشية الدولة ، وبذلك فإن الربح الصافي يظهر بوضوح" * (2) .

ـ "لو ترك للمربين المبادرة في الحصول على شيكات شخصية من القرض الفلاحي للتموين السنوى من (الزرع ، العلف .. الخ) " ، ثم يسدد هذا القرض بفائدة ، لكان أحسن من الشيكات الجماعية التي يتساوى فيها ـ في تسديدها ـ الرابح والخاسر "*(3).

ـ "فيما يخص العلف ؛ لو تركت الدولة حرية التصرف في الحصول على العلف بسعر "الدولة" ـ السعر الرسمي ـ ، ومهمة المربي تنحصر في تغذية الماشية وتسويقها وبيعها ، ثم يحصل بعد ذلك على الربح الذى يعوض به المصاريف المخصصة للدولة" * (4) .

لكن هذا الاقتراح الأخير يدعم الخواص ؛ وهؤلاء يهيمنون على المنطقة ، ويمتلكون السلطة والقوة .. فهذا القطاع الخاص، يمتلك مالا يستطيع أمتلاكه المستفيد ؛ وهي "الشاحنة" التي تعتبر قوة اقتصادية يتصرف المستفيد ازاءها بالخضوع والتبعية .

---

* (1) "بوحسلة محمد" المسؤول عن الديوان الوطني للتجارة بعسلة .
* (2) أحمد المستفيدين .
* (3) ر ـ عبد السلام يسكن "سعيدة" وله خبرة بشؤون البلدية .
* (4) ط. الشيخ رئيس بلدية سابق .

.../...

ـ "فيما يخص التوطين : فإن سياسة التوطين التي تؤدى الى التجميع ليست حلا صحيحا ، وانما لو ترك لمربي المواشي حرية التنقل عوض التجمع ، وأن يكون لكل شخص "مخيم" يصاحب البدوى أينما حل ، وأرتحل في البحث عن مناطق الكلأ ، وخزان الماء ، والجرار مع العربة .. وهذا يؤدى الى نجاح تام" * (1) .

اذا كان المخطط ، والبدوى ، والمربي ، ورجل السلطة المحلية يهدفون الى ترقية "رجل السهب" على العموم : فهل يؤدى الحراك نفس الدور الذى يؤديه في مجتمع "ريفي" أو "حضرى" ؟ .

حراك اجتماعي وجغرافي :ـ

تحليل الحراك الاجتماعي في المنطقة السهبية : يعتمد على حجم الماشية الذى هو أساس الصعيد الاقتصادى :ـ وعلى نمط المعيشة الذى يعتبر أساس الصعيد الاجتماعي .

كما يتم التوازن الاجتماعي في العلاقات الانتاجية بالسهب حيث يرسخ الاستغلال ، فالمربي الصغير يحدث لديه حراك تنازلي ، ولا تصبح لديه الا قوة عمله للبيع ، ويحدث للمربي الكبير حراك تصاعدى بما أنه مالك مستغل لقوة العمل .

أما "الميراث المادى" ، فله أهميته في السهب ، حيث أن كمية الميراث المتروك ، اذا كانت كبيرة وعدد الوارثين قليل ، فانه يعني أنه يساهم في الحراك الفردى للأشخاص ، لأن الماشية هي رصيد ودخل لا ينضب ، وانما يتسع بأستمرار اذا توفرت الشروط .

* (1) نفس المخبر .

.../...

ومن بين هذه الشروط وجود أسواق مركزية للتسويق ، ويعلق "حواس الكنز" على ذلك :- "تعتبر المشرية المركز النشيط من الناحية التجارية ، وتسوق المنتجات من الصوف نحو تلمسان ، ووهران ، أما "البيض" ، فتربطه علاقات تجارية عديدة مع مدن "التل" :- سعيدة ، تيارت ، سيدى بلعباس ، و"بشار" في الجنوب .

هاته المدن "التلية" تشكل قطبا جاذبا للسكان البدو الفقراء ، أو القاطنين الذين يبحثون ،عن شغل موقت في القطاعات الزراعية ، لكن نزوح هؤلاء السكان يتضاعف في فترات الجدب والجفاف ، لذلك نحن في منطقة لايمكن تقسيمها الى جهات "اقتصادية" ، حيث ليس هناك من تنظيم مركزى لمختلف النشاطات الاقتصادية ، انها منطقة تابعة لمدن التل ، حيث تتبع الشبكة التجارية - الوهرانية ، والارتباط التجارى ليس مباشرا ، لكنه يتم بواسطة شبكة وسيطة :- سعيدة ، وتيارت " * (1) .

من خلال هذه التبعية ، "التجارية" للمدن التلية ، ومن خلال المعطى الايكولوجي "الجفاف" تظهر الهجرة الداخلية قوية ، وهذا يدعم الاطروحة القائلة بوجود علاقة وطيدة بين الحراك الاجتماعي والحراك الجغرافي .

فرغبة هؤلاء في تغيير نمط حياتهم ، والرفع من مستوى معيشتهم ، والهروب من دائرة "الفقر" هو الذى يدفعهم للهجرة نحو المدن التلية اذا كنا نقول ، بأن الأرياف تابعة للمدن المركزية ، فيمكن القول بأن السهوب لاتشذ عن هذه القاعدة .

.../...

(1) H.ELKENZ:- "Elevage et Agriculture" P116 - In:- A.A.R.D.E.S "Etudes Pastoralisme " EL-BAYADH , MECHERIA- MAI1978.

عندما حلل نذير "معروف" "التوازن الجهوى" توصل الى أن :
"عبارة" التوازن الجهوى "لاينبغي أن تأخذ المعنى الحاضر، فهو ليس فقط ادخالا للرساميل ،أو انشاء وحدات صناعية .

حيث أن هذا النمط من الاستثمارات ينبغي أن تصاحبه المحافظة على الأيدى العاملة المتاحة في مكانها ، واذا جلبت اليد العاملة المؤهلة من المكان الذى كانت فيه ، فينبغي تهيئة نظام تكوين جهوى أو بلدى حتى يستفيد منه الأشخاص القادرون على العمل ، واذا ناقشنا طبيعة موضوع التكوين ، فانه ينبغي أن ينطبق مع المعطيات البلدية والجهوية ، طبقا للميول الاقتصادية ، كالاستثمارات الصناعية " أو نصف الصناعية لذلك فان مراقبة الحراك الجغرافي (الأفقي) ،سواء من القرية الى المدينة ، أو من منطقة لأخرى يرتبط داخليا بحراك رفيع (عمودى) : هذا النمط الثاني من المراقبة ينفذ سياسة جهوية للتكوين ،والاستثمارات الزراعية ـ الصناعية" * (1) .

واذا كان "نذير معروف" قد ذكر بأن الحراك الاجتماعي لايلعب نفس الأدوار ، فانه في المنطقة السهبية يؤدى دورا مغايرا بالفعل نظرا لاختلاف ظروف البيئة والنشاط الاقتصادى، والبنية السياسية .

لكن كما يلاحظ "حواس الكنز" فان الرعي يبقى كمصدر أساسي للدخل مع عدم تجاهل الطرائق التي يتكون بها هذا الدخل وتوزيعه ، حيث تبرز النتائج على المستوى ،الاجتماعي ، وذلك من خلال التشغيل والهجرة الريفية ، (الناجمة عن البطالة ، والتوطين الاجبارى ، الذين يرتبطان ببعضهما البعض وخاصة في مراكز التجمع) ، والانتاج النباتي والحيواني * (2) .

---

(1) N.MAAROUF:- "Térroirs et Villages Algériens" ..op.citée PP 382-383.

(2) H.ELKENZ:- "Elevage etAgriculture " op. citée P70.

ويضيف أن شروط العمل لاتشجع التشغيل في ميدان الرعي ، حتى وان كان أعضاء عائلة الراعي يشتغلون في استغلال قطيع صاحب الماشية (وهذه ليست "حالة" بل "قاعدة") . فالراعي لا يأخذ الا منحة ضئيلة ، والمالك يقدم الماشية ، ولا يأخذ مقابل ذلك ربحا ولا يعطي الا خمس الإنتاج للرّاعي ، كما هو في الإستغلالات الفلاحية . فالعقد الذى يربطه بالراعي هو في فائدته فلا يقدم له الا جزءا ضئيلا (على شكل "عيني") .." * (1).

وهذا ما أدى "ببوخبزة" الى التأكيد على أن "التمركز" و "التفقير" عاملين أساسيين ساهما في التركيبة الاجتماعية ـ السهبية .

فكلما كان المربي أكثر رخاء ، كلما كان أكثر مقاومة لسيطرة السوق ، وكلما فقد عقد البيع قيمته ، كلما استطاع أن يجزئ مبيعاته تحت ضغط الحاجات (...) (الأمل في محاكاة أنماط الاستهلاك المهيمنة ، وجود الوسائل المالية ، نسبة عالية في التردد على المدينة والاسواق وبما أن "الموال" ثرى نسبيا (...) فإنه كالمربي المتوسط (الذى هو ابن وحفيد المربي الكبير) يتميز عن المجموعة الفقيرة من المربين الصغار أو أولئك الذين لايملكون قطيعا ، وهذا يظهر باللباس المفقود ، والمصاريف الباهضة في كل سفر الى المدينة . وبما أن "الموال" يعيش مع اخوته ، الذين يصرفون من ميراث مشترك ، ويشترون من السوق ، أو يتولى أحدهم شراء الملابس والأدوات الشخصية ، القبعة ("المظل") ، عمائم ، ساعات جيب ، من بين التناقضات الأساسية التي تشكو منها البداوة هي قساوة شروط الحياة ، واعطاء الاعتبار للاستهلاك الذاتي والاكتفاء الذاتي ...

.../...

(1) H.ELKENZ :- " Elevage et Agriculture" ..op.citée P70- 71.

هذه العوائق الجديدة تترجم بتقلص في الحراك ، وبالتالي تقليص في مجال المراعي أين يرتاد القطيع ، وهذا يؤدي الى تفقير المراعي والتي استعملت سابقا من طرف قطيع ذو حجم كبير ، يتجاوز حجم قدراتها العلفية .. وهناك تناقض آخر للبداوة الحالية :ـ هناك غراقة بالنسبة لمجموعة كبيرة من المربين يجمعون بين الزراعة والرعي ، وهذا يتعلق بحراك ضعيف" * (1) خارج البلديات التي يقيم فيها هؤلاء .

وبين "معروف" كما ذكرنا سابقا ، العلاقة بين البداوة السهبية والزراعة من الناحية الأيكولوجية ، والتي ترتبط بعلاقة السيادة التي تربط بين البدو والمزارعين القاطنين ، ومن ثم تتشكل علاقات تجارية وسياسية معينة ، ففي قرية كعسلة مثلا : هناك تبعية وسيطرة دينية وعقائدية ، وسلطوية يمارسها هؤلاء على أولئك . فالملاحظ يعرف مباشرة لماذا كان الاعتبار الاجتماعي للبدو ، أو نصف البدو المحيطين بقرية "عسلة" يفوق الاعتبار الاجتماعي للشلح ("القصورية") بالتعبير المحلي لذلك فإن أنتقاء الاستعمار لارستقراطية معينة يختارها ، يهدف من ورائها تفتيت الوحدة العضوية للمجموعات الى "فردانيات" ، فالقياد الذين أختارهم ليحكموا منطقة "عين الصفراء" من بين القبائل الأكثر عراقة وشرفا ونبلا .

اذن ، لايمكن أن نعتبر الحراك "الفردي" بالمعنى السوسيولوجي ، حراكا اجتماعيا ، فحراك أحد أعضاء العائلة ليس حراكا لكل العائلة وكثيرا مانلاحظ في العائلة الواحدة أعضاء متمايزين في وضعيتهم الاجتماعية ومستواهم الاقتصادي .

.../...

(1) M'BOUKHOBZA:- " L'Agropastoralisme "op.citée PP282-285.

ويطرح "معروف" مسألة التعليم وعلاقته باليد العاملة قائلا :—
" ان تحرير اليد العاملة المصحوب بالتعليم سيطرح مشكلا أجتماعيا معروفا دوليا وهو: حالة المراهقين الذين أصبحوا بالغين ، والذين حصلوا على شهادة التعليم الابتدائي ، ويريدون العمل وليس لهم تكوين يؤهلهم للحصول على شغل قار بالمدينة ، بأعتبار أن عمل الحقول لا يناسبهم .. من هنا على "القرية" أن تجد وسيلة تشكل اجابة عن كل التناقضات التي تطورت فيها ، وأن تستوعب اليد العاملة المتاحة في المنطقة ، وهذا لتجنب شكل آخر من الترحال نحو المدن" * (1) .

هذا اقتراح عملي لمواجهة مشكلة التسيب لدى الشباب وهنا يطرح مايسمى "بأزمة الحراك" ؛ فالشباب في المنطقة ؛ أخذوا يهربون من تربية الماشية ... فكثيرا مايسمع في منطقة "عسلة" مثلا أن أحد أبناء أسرة معينة قد هرب الى "التل" أو الى "بشار" وتخلى عن تربية الماشية وقد يمتد هذا لفترة طويلة يحصل من خلالها على شغل "غير قار" بالمدينة بل هامشي .. وهو يرضى بهذه الوضعية ويفضلها على حراسة ؛ الماشية ؛ هذا العمل المتعب والذى لافائدة من ورائه .. ان عدم توفر مناصب العمل في السهب نتيجة لعدم وجود مؤسسات ترتبط بالواقع "السهبي" هو الذى خلف مثل هذه التناقضات ... ان الشباب الذى يجبر على "الترحال" نحو المدينة — ولو كان أكثر تطورا الا أن المضمون واحد — وصل الى مرحلة لاتطاق من "الحاجة" ، هذه "الحاجة" تأخذ أشكالا متعددة ، فقد تكون حاجة "مادية" أو قد تكون حاجة "نفسية" أو للاطلاع على عالم آخر لم يعرفه بل وصلته الأخبار المتعلقة به مسبقا ، فيريد أكتشافه ، ويكلف نفسه عناء "المغامرة"—

---

(1) N.MAAROUF:-"Térroirs et Villages Algériens"

ان الأمر هنا لايتعدى كون الريف/ أو حتى /السهب ينبغي أن يخضع لتخطيط أجتماعي يأخذ في الحسبان : التكامل الاقتصادى آمال و واقع السكان : وضع مؤسسات أجتماعية واقتصادية وثقافية ترتبط بالبنية الديمغرافية ، واليد العاملة المتاحة ، كذلك وضع جهاز تعليم يتميز بخصوصيات معينة تخضع في مجملها للاحتياجات الحقيقية للمنطقة — هذا لكي لايتكرر ظهور أحياء قصديرية أخرى ..

أما نظرة "المستفيد" في القرية الرعوية للمصادر الأساسية الى الحراك .. فيعطي "المال" المركز الأول (ومن ورائه : رؤوس الماشية) فهو يعتبر مصدرا أساسيا للحراك ، بل ان الاعتبار الاجتماعي يرتبط به أرتباطا جذريا : أضف الى ذلك أن استفادتهم من الماشية لم تخرج عن اطار هذا التصور : ويفاجأ الملاحظ — كما أشرنا — الى عدم قبول المستفيد للنظام الجماعي ، وميله للامتلاك الفردى وللاستقلال المالي ، هذه الرغبة ترتبط أساسا بما فهم عن توزيع الماشية " أى أن لكل شخص الحرية في التصرف في "105" رأس من الماشية الممنوحة" .

ويبدو كذلك أن الحراك المهني ضعيف في المنطقة ، وذلك لبروز الظاهرة التي أشرنا اليها سابقا وهي أن أغلبية الاشخاص المهاجرين من الأراضي السهبية الى المدن ، يمارسون أعمالا هامشية ، أو يمارسون المهن الممارسة في السهب (مثلا : الذهاب للتل لرعي الماشية عند أحد الموالين الكبار ، الذى يتفق مع المربي على شروط مقابل حراسة ورعي الماشية) .. أو يمارسون أعمال البناء في ورشات بناء خاصة أو حكومية ، "العمل بالقطيعة" التي يوفرون منها نصيبا من "المال" ، اذن : فالدورة تتم بالصورة التالية :— يبدأ من تربية الماشية ("راعي") ليعود في الأخير من حيث بدأ ، كما أن الرغبة في الاستفادة قد ترجع الى الارادة في نزع صفة "الراعي" التي لها دلالة أخلاقية كما ذكرنا سابقا .

وقد أثرت القرى الرعوية سلبيا على التماسك العائلي ، فمن العائلة الموسعة تفرعت العائلة النووية ، المحددة بالزوجين والأطفال .. فأنفصل الابن عن أبيه ، واستقل كل منهم بسكن خاص ، هاته الاستقلالية تدعمها رغبة أكيدة في الحراك الفردي ، فكل شخص يرغب في استقلالية مالية ومنزلية ، ويرغب في منافسة والده وأخيه ، وأنتقلت العلاقة من علاقة تعاونية الى علاقة تنافسية ، وهكذا فإن الحراك "دوري" خاصة المهني منه ، وهذا من خلال تتبعنا لحالتين :-

الحالة الأولى :- شاب يبلغ "34" سنة ابن شهيد ، تابع التعليم الابتدائي في "سعيدة" ، وحصل على الأهلية بسعيدة أو بوهران ثم رجع الى "عسلة" ليصبح "معلما" ثم اتجه الى النشاط الحزبي .. حاليا هو مسؤول الديوان الوطني للتجارة " بالقريبة " .

الحالة الثانية :- شاب يبلغ حوالي "31 سنة" ، يتيم ، عصامي بدأ بتربية الماشية ، مارس بوهران وتموشنت وبشار مهنا غير قارة ، و"هامشية" ، ثم التحق بشرطة الحدود ، وتخلى عنها بعد فتح مقهى بالقريبة عين مسيرا له .. ثم أغلق هذا المقهى ، بعد افلاسه لأن الاشخاص لا يدفعون الثمن بحجة انهم ضيوف وأخيرا أنضم الى عداد "المستفيدين" .. ثم تخلى عنها واشتغل بتجارة الخضر ..

بعد انجاز هذا الفصل الذي يتعلق بالجانب الاجتماعي والبيئي ، سنتطرق الى صلب أزمة البداوة ، وهي جدلية الترحال والاستقرار (التوطين) .

.../...

الفصـــل الثالـــث

"جدليـة الترحـــال والاستقـــرار"

. * * * * * * * * .

.../...

1) – أزمة البداوة :–

ان أزمة البداوة أزمة تاريخية ، وذلك نتيجة للتناقضات التي تعاني منها اشكالية التنمية في السهب . ومن بينها عدم الاندماج بين التل والسهب وهي أهم التناقضات .

ليس من الضروري التذكير بأن الاحتلال الفرنسي عمق هذه الأزمة بقضائه على البداوة الرطبة في الشمال ، وحول النشاط الرعوي الى الهضاب العليا ، لذلك فعملية الحمل السهبية عانت من قطيعة في تاريخها . وينبغي الآن محو آثار هذه القطيعة عن طريق اعادة مد الجسر بين السهول الشمالية وسهوب الأطلس . والبداوة ترتبط في تطورها واستمرارها بهذا المعطى :–

فإذا كانت البشرية كلها قد مرت بمرحلة البداوة ، فإن هذه المرحلة قد ارتبطت بتصور عام عن استغلال الطبيعة ان الثبات (fixation) التدريجي ، للانسان يترسط بعبقريته التي أهدته الى استعمال مساحة من الأرض وحرثها وانتظار موسم انتاجها ، وتموين نفسه في مرحلة الانتظار .

ولكن هذه الثورة لم تتم الا في مجال ايكولوجي مناسب ، لذلك فإن البداوة في المرحلة الحالية تشكل أقدم بقايا الانسانية " * (1) .

اذن ، فنحن أمام أزمة حقيقية ينبغي تجاوزها بمعرفة أسبابها وأعراضها ، حتى نصل الى تحوير نتائجها كيفيا نحو الأحسن .

.../...

(1) N.MAAROUF:-"Térroirs et Villages Algeriens" op.citéeP 213.

ولم يكن أحمد بن نعوم مخطئا حين قال :— " ان البداوة (أو الرعي) تشكل نظام ونمط وحياة ، أثر الاحتلال عليها ، وأخل بتوازنها ، فهل ينبغي القضاء عليها ، أو على العكس من ذلك ينبغي توطيد ماتبقى منها أى تقوية المنطق الخاص بها ، واعطائها الفرصة لكي تتجدد بطريقة مستقلة * (1) ؟ .

ولحد الآن لم تبرز اجراءات في المنطقة المبحوثة وغيرها لكي تدعم الاتجاه الثاني . وهذا ماضاعف من الأزمة على كل الأصعدة فالبدو ، وأنصاف — البدو قطعوا علاقاتهم بالتل وبالصحراء في ذات الوقت وقد أختفى في المنطقة ماكنا نسميه "بالعشابة" ، حيث كان يصل بعض "المجادبة" الى ضواحي مدينة بلعباس، و "تلاغ" ، و "تيارت" و "سعيدة" لجلب الحبوب والزرع للانسان والحيوان . وأختفت "القوافل" التي كانت تجوب الصحراء "قورارة" (تيميمون) لجلب التمور والبقول : وأصبح البدوى في المنطقة لاتتعدى مساحة تحركه الحدود الادارية للبلدية ، ولايشذ عن ذلك الا القليل .

لذلك فالهضاب العليا في الجنوب الوهراني على العموم وقعت في تناقضات أجتماعية تتصاعد يوما بعد يوم بفعل الاستغلال المكثف للتراث الجماعي ، وسوء أستغلال المراعي الذى برز بفعل الهجرات الضعيفة — كما لاحظنا في منطقة " عسلة" — نحو الشمال .. اذن هذه الأزمة ليست حدثا مفاجئا ، وانما تدعمت عناصرها بفعل التراكم الزمني ومن الخارج في بعض الاحيان* .

أنظر . — COUDERC; P 63 —

.../...

(1) C/A.BENAOUM:-"Remarques sur le développement de l'Elevage ovin dans la Wilaya de SAIDA-In:- Seminaire National sur le Dèveloppement de la Steppe -SAIDA -ALGERIE - 24,27,28 septembre 1983.

وبفعل قساوة الحياة في الوسط السهبي أضطر الرجال من البدو الى الهجرة نحو المدن للاشتغال كعمال يدويين أو بوابين .. أو الهجرة نحو المراكز شبه الحضرية لممارسة مهن هامشية الى جانب النشاط الزراعي ". أو يقومون بتربية قطيع صغير من الغنم كمركز للمحافظة على الشخصية البدوية أو كحنين للماضي ... وبذلك يتحول "المربي ـ المزارع " ولم يترك الخيمة ، الا بعد أندثار كل الامكانيات الرعوية الزراعية ، أو بعد عدم تمكنه من دفع ثمن خيمة جديدة * (1) .

وما رآه ، ولاحظه أحد الباحثين في قصر "خلاف" في منطقة "بريزينة" التابعة لولاية "البيض" حاليا له دلالة خاصة ويعبر عن هذه الأزمة التي تتيه فيها "البداوة" ؟ فقد تمركز البدو القدماء على طول تقاطع النخيل .. وفي الجانب الأيمن نجد "القصر" الذى هو سكن القاطنين الأوائل ـ المحظوظين غالبا ـ وعلى يساره قصر "خلاف" حيث تتميز سكناه بمنازل تقليدية "الطين غالبا" .

وفي النخيل تتفرق خيام البدو الذين يستغلون "ثلث" الاراضي المروية وفي جانب "الوادى" حزام النخيل .. لاتقتات هذه العائلات الموجودة في الخيام الا من الحطب اليابس * (2).

من هنا ، برز عدم التوازن بين المصادر الزراعية ـ الايكولوجية والحاجات الانسانية والحيوانية المتنامية من جهة أخرى ، وذلك بفعل الخراب المادى الذى أصاب السهب الذى يرتبط أيضا بالظلم

.../...

(1) التكلفة مرتفعة :ـ "جناح الخيمة" يساوى 600 دج ، وتحتاج الخيمة الى ست أو سبع أجنحة .
H.ELKENZ :- Agriculture steppique(Marge71)

(2) H.ELKENZ:- "Elevage et Agriculture " et "Agriculture Stéppique " (Marge71)
In: "Etudes Pastoralisme" A.A.R.D.E.S - ALGER 1978.

الاجتماعي الذى يبرز نتيجة ضغط الحاجات ، ونتيجة لتطور العلاقات التجارية وتقلص مساحة المراعي فترات علاقات التضامن القبلية وبرز الامتلاك الخاص للأراضي المزروعة أو المراعي الخصبة ، فقد كانت القبيلة منسجمة أجتماعيا ، تنظم أستغلال المراعي جماعيا ، ولم تكن هناك فوضى في المنافسة .. وكان الترحال والهجرة ، وتوزيع المراعي ، وحراسة الماشية ، والدفاع الجماعي ، يتم طبقا للعرف * (1) .

أما الآن ، فحتى "الخيمة" فقدت بعض وظائفها التي كانت تؤديها سابقا ، فقد كانت تعبر عن السكن الخفيف والاكثر حركة ، الا انها الآن أصبحت منهكة ببعض الوسائل التي تفوق طاقتها التخزينية عشرات من أكياس الزرع ، والوسائل الصناعية ، وعدة قوارير من الغاز وصناديق تحتوى على بعض المنتجات البيطرية ، وهذه بعض آثار التحديث التي مست المجتمع الرعوى ، اننا لم نحصي بأن البدوى الجزائرى مربي للماشية قبل أن يكون رحالا ، وأن تقنياته قديمة فعلا ، ولكنها تتكيف مع اطار ايكولوجي متوازن ، كما كان الاطار الايكولوجي ماقبل ـ الاحتلال * (2) . بل أن مربي الماشية أصيب في عمق قيمه بعد افلاسه وهو ماضاعف من حدة التناقضات والصراعات القديمة بين البدو والحضر ـ مقولة "ابن خلدون" ـ فالبدوى إصبح "غازيا" للمدينة ، وينعت بشتى الاوصاف السيئة وهذا يعني تكيفه بطريقة جبرية فيبني اطار ايكولوجي واجتماعي واقتصادى متأزم لم يعد نفسه له ـ اذن ، ينبغي معالجة هذا الوضع حتى لا يصبح مربي الماشية مأجورا في "القطاع الثالث"، أو بطالا بصفة نهائية ، وأن يصبح الوسط السهبي عرضة للخراب الايكولوجي والاجتماعي * (3) .

.../...

(1) C/BENAOUM, C/BEDRANI, C/SAHLI :- " In" :-"Seminaire National sur le Developpement de la Steppe"SAIDA, 24.27.28 séptembre 1983.

(2) C/BENAOUM, et C/ SAHLI :- "L'Elevage Pastoral -Téchnologie d'Avenir? " In: Seminaire National sur le Développement de la Stéppe "SAIDA 24.27.28 Sep1983

(3) C/SAHLI, op.citée.

من هنا تحورت البنية الاجتماعية للسكان بالمقارنة مع بداية الاحتلال ، مع تطور رهيب للمراكز الحضرية ، وانقلاب كلي في القيم التقليدية بالمقارنة مع القيم الحديثة .

ان الملاحظة العامة التي تطرح هنا ، هي أن حل مشكلة السهوب ترتبط بحل مسألة التكامل واصلاح الأخطاء المرتكبة والشجاعة في مواجهتها ، ومن بين هذه الأخطاء مرور السد الأخضر ببعض مراكز التجمع البدوية أو القروية ، فقد أبعد هؤلاء دون أن تهتم الدولة بالاجراءات الواجب اتخاذها بعدما أصبحوا محرومين من قسم (أو من كل) مصادرهم ، الأمر الذى أدى الى مضاعفة ضغط هؤلاء على باقي السهوب ، وبالمثل الآثار التي خلفها " منع" حراثة الأراضي — التي لم تطبق لحسن الحظ الا في أجزاء محدودة) من تفقير لفئة المربين — المزارعين ، ودفعهم ذلك الى الهجرة نحو المراكز الحضرية * (1) ، ومنطقة "عسلة" لم تشذ عن هذه القاعدة ، حيث أن منع الحراثة أدى الى احتداد مشكلة التموين رغم المردود الضعيف للأراضي ، وفي خريف هاته السنة (1985) بعد سقوط المطر فان بعض المربين — خاصة القاطنين — أخذوا في حراثة بعض الأراضي .

كما أصاب حركة السكان نوع من الشلل ، نتيجة لاقامة السد الأخضر ، بل ان الماشية (خاصة "الماعز") كانت تسطو على بعض الأشجار ، نتيجة لانفلاتها من الرعاة .

.../...

(1) S.BADRANI:- "La Stéppe Algerienne "In:- "Seminaire National sur le Developpement de la Stéppe" 24.27.28 Sep. 1983.

لكن هناك من يرى بأن مشكلة السهب رقم "واحد" هي مشكلة المياه ، وهذا مايلاحظ في منطقة "عسلة" خاصة . بالاضافة الى الماء "المالح" للوادى ، والذى أصبح مثلا شعبيا يتردد في عبارة :ـ "آه عسلة ووادها المالح" ، فان عدد الآبار الارتوازية قليل جدا ، ولذلك يرى البعض :ـ " ان مشكلة السهب هي قبل كل شيء مشكلة "المياه" مصدر الحياة والتنمية للانسان والحيوان والأرض ، هاته المعطيات الثلاثة ليست متماثلة في أهميتها من منطقة لأخرى ، وهذا طبقا لطبيعة الأرض ، ولاستغلالها ، ولاستعمالها " * (1) .

وهذا يطرح عدة اشكالات ذكرناها سابقا ، سواء تعلق الأمر بسرى الأراضي ، أو المياه الخاصة لأرواء الماشية " (الراوية)".

اذن ، فالقرية لوحدها لاتحل مشكلة السهب ، وانما ينبغي تحضير البنيات خارج القرية نفسها ... ان الأزمة لاتحل بالتوجه الى الزراعة ، ولكن ينبغي تطوير الرعي طبقا لمعارف وقدرات سكان المنطقة ، فهم يذكرون دائما :ـ "انها حرفتي ومعرفتي" .. (أن تحول الأرض المخصصة للرعي (حوالي 40 مليون هكتار) الى مساحة مروية .

ان طبيعة النشاط الاقتصادى (الرعي) تحتم على البدوى التنقل المستمر ، لكنها لا تشابه الهجرة التي لها دلالات أخرى فكلما أنتقل البدوى من منطقة لأخرى شعر بنوع من "الاستقرار" حسب منطقه الخاص .

.../...

(1) BENSAAD:- "L'Enérgie Eolienne ;In:- Seminaire National sur le Developp - ement de la Stéppe - SAIDA , 24.27.28 séptembre 1983.

بل ان الهجرة هي التعبير الامثل عن أزمة الرعي ، والتوطين هو التعبير الصريح عن أزمة البداوة * (1) .

فاءذا كان البدوى بالامس يبحث عن التغذية ، فقد أصبحت تأتيه جاهزة وهذه التغذية باهضة التكاليف في بعض الاحيان ، وهذا يتطابق مع ماذكرناه سابقا عن المصاعب المادية التي يواجهها البدو في منطقة البحث ، وبذلك أضمحلت البداوة شيئا فشيئا ، وأختفت فعالية البداوة والترحال في آن واحد .. وذلك نتيجة لعزل عوامل الانتاج عن بعضها ، ثم التدخل لتغييرها ، والنتيجة هي تنظيم التبذير * (2) .

أما علاقة أزمة البداوة بالمعارف العلمية ، فيتمثل في الاجابة عن هذا السؤال :- هل تستطيع البداوة تجاوز أزمتها من خلال دقة وصحة المعارف المنتجة من طرف المهتمين بالمجال الحيوى للرعي ؟

1) أزمة البداوة والمعارف العلمية :-

تشكو البداوة في الجزائر من قلة المعارف المنتجة لها ، وهذا يصعد من الازمة خاصة اذا أصيبت بالفوضى المنهجية التي تجعل كلا من المقدمات والنتائج تأخذ طابعا تجريبيا محضا .. اذن ، فالمستعجل ليس هو الاكثار من الدراسات الخاصة بالانتاج "الرعوى" ، بقدر ماهو تحديد طرائق البحث ومنهجه ، والتي تحدد من المصاعب التي يواجهها المربي ، والبدوى .. لذلك ، لابد من تبديد الوهم الذى ينفى العلاقة المباشرة بين العلم والسياسة ، حيث أن كل قرار هو في آخر المطاف ذى طابع سياسي* (3) .

(1) H.ELKENZ:-"Etude Pastoralisme" In:Agriculture Stéppique(Marge 71).

(2) A.BENAOUM:-"Les obstacles du développement..."op.citée ,

(3)A.BENAOUM:- " Ibid.."

والجهل بالمعارف الخاصة بالوسط الرعوى من طرف المهندس الرعوى مثلا ، الذى يعرف الاسم اللاتيني للنبات وجهل اسمها "العربي" ، ولا يعرف البدوى الا في الوقت الذى يسأله عن طريق .. او ذلك البيطرى الذى يستورد الادوية من الخارج ، ويتجاهل معارف البدو فيما يخص النباتات الطبية المستعملة منذ قرون عديدة .. وعالم الاجتماع او عالم الانثربولوجيا الذى يحمل البيئة الاجتماعية للبدوى ، والذى يرغب فقط في "التوطين" باى ثمن دون مشورة المعنيين بالامر " (1) .

---

(1) A.BENAOUM:- " Remarque sur le Développement..." op.citée.

.../...

اذن ، فالدراسات قليلة وليست جديدة في معظم الاحيان حيث لاتقدر المصاعب حق قدرها ... ومن بينها ، صعوبة التكيف مع التوطين ، أو التعايش مع نمط أجتماعي غريب عن البدو .

رفض التكيف مع التوطين :ـ أسباب أم بواعث ؟

اذا تعرضنا للتوطين ، فلا ينبغي أن نفصله عن أزمة البداوة ، اذ هو من نتائجها المنطقية ، ولو كنا نحبذ أن نتحدث عن التوطين وكأنه حل لمشكلة المجتمع البدوى .

المسألة الثانية هي ربط التوطين بالفئات الاجتماعية التي يترك عليها آثاره ، فالمربي الصغير قد يضطر الى التوطين نتيجة افلاسه أو قد يحبذ بعض المربين التوطين ، لانهم لم يجدوا وسائل عمل تمكنهم من الاستمرار في الحياة البدوية ، او بسبب البطالة أما الفئة المحظوظة ، فإن توطنها يرجع الى اعتبارات سياسية ، واذا كانت الاغلبية تنحدر من النخبة السياسية المتعاملة مع الاحتلال ، فإنها أبقت علاقاتها مع السكان الحضر ، وتوطنت *(1).

في منطقة البحث ، وفي المناطق الاخرى للسهب الشاسع ، فإن نسبة التوطين أرتفعت بعد الاستقلال ، وأخذت فيما بعد في التسارع وذلك لقوة الجذب الذى تمارسه المناطق التلية على المناطق الاخرى (المشاريع الصناعية ، الادارة والخدمات ، أمتلاك بعض الاراضي الزراعية اذن ، فأغلبية البدو الموطنين حاذوا المدن ، أو سكنوا في الضواحي مع أحتفاظهم بالماشية ، وقطعة الارض التي يحرثونها ، ولكنهم لم ينجوا من قوانين السوق التي فرضت عليهم

---

(1) M.BOUKHOBZA:-"L'Agropastoralisme traditionnél en Algérie" voir:- Partie; D - Chap :4

في البيئة الحضرية ، فمثلا :ـ "ان بعض الأشخاص الذين يحبيهم ذلك يبنون في أحسن الحالات مزرعة صغيرة ، أما اذا كانت الوسائل ضعيفة ، فانهم يبنون مخزنا من (الطوب) خاص بالزرع ، الذى يكون بمثابة ملجأ بالنسبة للاغنام ، أو منزل بالنسبة للضيوف *(1).

يثير التوطين بعض الاشكالات على مستوى القيم ، فالمستقر الجديد يجبر ـ نظرا لاعتبارات معينة ـ على التخلي عن بعض قيمه (الوفاء ، بالوعد ، الضيافة ، والصراحة ، وتفضيل المصلحة الجماعية عن المصالح الخاصة .. الخ) دون أن يندمج في القيم الحضرية ... والسبب يعود الى أن رجل السهب لم يشارك في وضع تصور عن التوطين ، وسبل تحقيقه * (2) .

كما أثر التوطين سلبيا على التماسك العائلي ؛ فمن العائلة الموسعة ، أصبحنا بصدد العائلة النووية المحددة بعدد قليل من الافراد .

فانفصل الابن عن ابيه ، والاخ عن أخيه ، واستقل كل منهم بسكن خاص ، وهذا الاستقلال تدعمه رغبة أكيدة في الحراك "الفردى" ، فكل شخص يرغب في استقلالية مالية ، وفي منافسة والده وأخيه ، وانتقلت العلاقة من علاقة تعاونية الى علاقة تنافسية .

ومن عادات البدو ، وطبقا للعرف الاجتماعي فان رب العائلة هو الذى يقوم بتحضير الغذاء والعشاء لضيوفه ، ونتيجة للانقسام الذى أحدثه التوطين ، فان كل شخص ينفصل عن العائلة الموسعة

.../...

(1) A. BENAOUM :- "Remarque sur le Développement..." op.citée.

(2) M'BOUKHOBZA:-"L'Agropastoralisme.." Partie:D ;chap: 4

بعائلته يقوم بتحضير الغذاء لضيوفه ويذبح الماشية كرمز للكرم *. وعوض ذبح خروف واحد لتقديمه للضيوف تذبح أربعة خراف مثلا ـ بل ان عملية الانقسام أيضا تضاعف من المصاريف الخاصة بكل عائلة .

ماالذي إثاره هذا التوطين فيما يخص الاتصال ؟ لقد أدى هذا التفكك العائلي الى التقليص من حدود الاتّصال السابقة ، فعوض أن كان الاتصال يتم بطريقة مباشرة ، وشبه جماعية :ـ أي أن رب العائلة هو الذى يقوم بتلبية كل الاحتياجات العائلية بأتصاله مع سلطة البلدية *. أصبح كل اخوته الذين تزوجوا وانفصلوا عن عائلتهم يتصلون بها دون مشورته ويمكن أن يكون عن طريق وسطاء آخرين ـ أو يكلفون أنفسهم عناء مجابهة أي مشكل طارئ بصفة شخصية * (1) .

وبالاضافة الى ضعف الاتّصال ، فان دور الاعلام مع تطور التوطين مارس دورا سلبيا ، حيث أن الاعلام أخذ يعلن عن أنماط جديدة ضد ـ سهبية ، وضد ـ بدوية ، وهو الذى أدى الى التخلي عن مهنة الرعي والنزوح نحو المدن ، النتيجة هي تصاعد نسبة البطالين في المدن ، وأزمة في تربية الماشية *(2).

اذن ، فسياسة انشاء "القرى الرعوية" ("الحاسي الابيض"، "الرجيمات" ، "تيورطلت") بمنطقة عسلمة كان الهدف من ورائها هو التوطين ، ليصبح واقعا ايجابيا حدده ميثاق الثورة الزراعية وقانون الرعي ، أي تصبح هاته القرى مراكز يسكن فيها أعضاء التعاونيات الرعوية ، والمربين الفرادى ، ويجدون فيها البنيات التحتية

---

* (1) حديث إدلى به المخبر "ط. بالاخضر" رئيس تعاونية رعوية *.

(2) A:Rybiński :- "La scolarisation des pasteurs Nomades en ALGERIE Indépendante"Réalisations et Insuffisances" Africa-Bulletin-WARZAWA- N°29.

والخدمات المتاحة في المدن (المدارس ، المراكز الصحية ، الحمام ، الديوان التجارى ، المسجد) .. وهذا التوطين العقلاني للبدو رغم كونه مغريا ، أى الحياة السهلة التي تقدم للرعاة _ خاصة اذا عرفنا الظروف القاسية التي يحيونها الآن _ فائته أدى الى الغاء نمط الحياة نهائيا وجذريا ... من جهة إخرى فلم يتبين أية دراسة يبين أيدينا فعاليته التقنية والاقتصادية ، وكما ذكر سابقا فإن سكان السهب لم يشاركوا قط في تحديد هذا النمط من التوطين * (1) .

ومن آثار ذلك ماتبينه احدى الدراسات من أن الحراك المهني ضعيف وكذا عدم الاندماج السكني : وهذا ما لوحظ في القرى الرعوية المذكورة بشكل خاص حيث يبرز أن تقسيم الغرف يخضع لمنطق البداوة ، فغرفة تستعمل لخزن العلف ، وأخرى لاستقبال الضيوف ، وأخرى للنوم والأكل _ الخ .

أو عدم الاندماج المالي الذى يتمثل في "السلفة" طبقا للعمل المأجور الذى لم يمارسه "البدوى" من قبل ، وهذا من خلال زيادة الهجرة نحو المدن ، ومن ثم أصبح البدوى مستهلكا لمنتوج ثقافة لم تصنع له ، ولم يشارك في صنعها" * (2) .

لكن بين التوطين والبداوة ، هناك حلا وسطا يتمثل في نصف _ التوطين : "رجل هنا ، ورجل هناك" ، والتي إطلقت مثلا ، فالبدوى يبني داراً في المدينة يلجأ اليها في مرحلة الحر الشديد أو أثناء الذهاب الى السوق . ولكنها مشغولة

.../...

(1) S.BADRANI:-"Lasteppe Algérienne" op.citée.

(2)M' BOUKHOBZA:- "L'Agropastoralisme..." Partie:D chap:-4 .

دائماً، وهي بمثابة السكن بالنسبة للزوجة الثانية أو سكن بالنسبة للأطفال الذين يتابعون الدراسة "بالداخليات" .. وهذا مالاحظه لدى العدد الكثير من بدو المنطقة الذين يلجؤون الى "عين الصفراء" لقضاء مصالحهم اليومية والحياتية .. ونصف — التوطين هذا أقل كلفة * (1) .

اذن ، القول أن المجموعات العائلية ، ليست مجموعات مستقرة لايحتاج لدليل — حيث لوحظ في المنطقة موضوع الدراسة "عسلة" ،

ان العائلة الموسعة — مع التحفظ السابق — تنقسم على نفسها ، بادخال عامل القرابة ، فأغلبية أرباب العائلات نصف — مستقرين ، في المدن ، أو في القرى الرعوية ، والنصف الآخر مازال لم يتكيف مع التوطين .. وظهور "الخيمة" هنا ، وهناك لنفس العائلة دليل على صحة هذا القول ، ثم أن الانقسام الاقتصادي أو التجمع الاقتصادي يبين بشكل أو بآخر إشكال العلاقات الزوجية الممارسة — وهذا ما لوحظ في الميدان حيث أن انفصال أحد أعضاء العائلة يؤثر في شكل العلاقات الأسرية والزوجية التي كانت سائدة ، ونقول بالتعبير المحلي :— "أصبح كانونه وحده" ، كما أن علاقة الزوج تتغير بغياب الأخوة ، أو الأب ، أو العم .... الخ * (2) وتصبح العلاقة علاقة استقلالية من الناحية المالية ؛ وأصبح الشخص يهتم بعمله أكثر ... لكن الجانب الايجابي ، يتمثل في تقليص روح الاتكالية على رب العائلة ، وأصبحت الرغبة في الترقية أقوى ، ونجح بعض الأشخاص نتيجة لهذا الانفصال * (3) .

.../...

(1) A.BENAOUM:- "Remarque sur le Développement..." op.citée.

* (2) حديث ط . الشيخ رئيس بلدية سابق

* (3) حديث ر . عبد الرحمن .

لكن يبدو أن العرف أخذ في التقهقر على حساب "التحديث" ، فظاهرة الاحترام أخذت تندثر نتيجة للتوطين ، والعائلة التقليدية تختلف عن العائلة الحديثة من حيث هذا العنصر ، فالابن أصبح لايقدر عامل السن ، فلا يحترم أباه بل يعامله بمثابة الند للند ، كذلك يبدو التفكك العائلي واضحا ، حيث إصبح هم الابن الانفصال عن أبيه بأى طريقة *(1).

أما على صعيد التوطين ، وعلاقته بالنظام القبلي ، فمن الواضح أن المربين منذ مدة بقوا في أرض أجدادهم ، ولا ينتسبون الى القبيلة الا اسميا ، أو بالاستناد على الخيال الثقافي .. ولم تبق القبيلة هي الوسيلة أو الهدف لكل الاجراءات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ..

اذن ، فمكانة القبيلة أخذت في التقهقر ، واستطاع الاحتلال أن ينمي الروح الفردية ، دون أن يستطيع تحويل أراضي العرش الى القطاع الخاص ، فالبدو أخذوا في الانتشار ، وفي الاتجاه نحو التوطين .. وهذا مايلاحظ بالنسبة "للقبيلة" موضوع البحث ، حيث اضمحلت العلاقات القبلية التي كانت سائدة من قبل ، وانتشرت في المجال الجغرافي للولاية وخارج الولاية .. وتفككت القبيلة ولم تستطع تطوير نظام جديد ، يمكنهم - أى البدو - من الاندماج ، ويحافظ على فعاليتهم الاقتصادية والتي تنتج خيالا ثقافيا جديدا * (2) .

كما أن التوطين يضاعف أيضا من تحقد البدو تجاه الحضر ، فالابطاء في تنمية السهب يشعر البدو بنوع من التمييز ، ومن الظلم الاجتماعي ..

---

(1) * حديث ط. الشيخ رئيس بلدية سابق . ..../...

(2) A.BENAOUM:- "Remarque sur le Développement" op. citée.

حيث أن التاريخ يعيد نفسه ، ولو بصور وأشكال مختلفة ، اننا نعرف أن القبائل البدوية حين تشعر بالتعسف والظلم الاجتماعي لا تلبث أن تغزو الحضر في عقر دارهم ، فقد غزا البدو الحضر بمشكلاتهم خصوصا في المناطق المحاذية .

هذا التجذر التاريخي للعقلية البدوية لا يمكن محوه بسهولة ، واذا كان البدو قد عوضوا الخيمة بالمنزل ، فلا يعني ذلك أنهم أصبحوا مستقرين أو حضرا بمعنى الكلمة سواء من ناحية الثقافة أو السلوك أو العادات التي يصيبها التشويه في بعض الأحيان لكونهم تخلوا عن البداوة ، أو على الأقل أحسوا بذلك ، ولم يندمجوا في الحياة الحضرية .

اذن ، فسياسة التوطين الخاصة بالبدو الرحل ، أو مربي الماشية التي تحققت في الجزائر ألغت تربية الماشية من حساباتها ، ونحن نعرف أن بلدا مسلما كالجزائر تحظى فيه تربية الماشية بأهمية خاصة نظرا للشروط الطبيعية ، حتى أن عمل المربين ولو في اطار تعاونية رعوية صعب ، وقليل المردودية * (1) .

فالتوطين أو عدم التوطين يحددان مستقبل مربي الماشية ، ونمط حياته في المستقبل ، فهو قد يرى في التوطين كبحا لترقيته الاجتماعية وتحديدا تعسفيا لحريته ، وحركته .. وقد يكون السبب الرئيسي في عدم تقبل النظام نابعا من هاته المسألة .

.../...

(1) A.RYBINSKI :- ""La scolarisation des pasteurs Nomades " op.citée.

ويرى البحث انه اذا كانت عملية التنمية التي مست السهب (السكن ،والصحة ، والاتصال) قد تحسنت ، فائن التقسيم الاداري للسهب لم يجعله تحت السلطة الادارية المعهودة ، وهذا يجعلنا نفكر في توجيه الترقية نحو تحكم أفضل في معوقات التوطين * (1)

يفسر انحسار البداوة في مقابل التوطين التدريجي لسكان السهب بمايلي :-

- ندرة ، وفقر ، وبعد المناطق الخصبة للكلأ ، التي خربت تدريجيا .

- بعد مراكز المياه لسقي الانسان والحيوان .

- نقص الوسائل المادية للنقل الضروري فيما يخص الترحال البعيد .

- رغبة السكان البدو في حياة أفضل تتجاوز الحياة القاسية التي يحيونها ، قد يوفرها "التوطين العقلاني" .

- تقهقر ارتياد الكلأ بين مناطق الجنوب (الأراضي الرعوية - الصحراوية) ومناطق الشمال (مناطق الحبوب لنفس الاسباب) * (2).

وعن "تنظيم الرعي" الذي يصبح ضرورة ملحة بعد تحديد حالة السهب الحالية ، فائننا نعرف بأنه مهمة ملحة في الوقت الحاضر سواء عن طريق توطين الانسان ، أو الماشية ، ولابد من التفكير في بعض الحلول العملية والتي لاينبغي تعقيدها ، بل هي بسيطة بمقدار بساطة الحياة البدوية ، فيمكن أن نضع تقسيما للعمل بين المربين ، مثلا تشكيل فرق لحراسة الغنم بشكل دائم ، وعلى أساس "الورديات" ، وتوجيه البعض الآخر الى العمل الحرفي أو الصناعة الخفيفة أو الزراعة .

.../...

(1) A.KAOUAH:-"Rapport sur la Stéppe"..In: Seminaire National sur la Stéppe SAIDA ; 24, 27, 28 Sep1983.

(2) M.ABBACI:- " Représentation du Projet Agro-pastoral" In: - Seminaire National sur le Développement de la stéppe - SAIDA 24.27.28 Sep 1983.

لابد من توطين القطيع ، اذا أردنا توطين صاحبه ، اقامة مؤسسة تتكفل بالتموين بالماء ، عن طريق الشاحنات التي تحتوى على خزانات مائية .. ولاننسى أن الرعي يتطلب عدم الاستقرار في مكان واحد لذلك نرى البدو يقيمون خيامهم في بعض مناطق الكلأ التي خصصتها الدولة للماشية ، أو بجوار الأراضي الزراعية *(1).

لابد من الاشارة أيضا الى أن التوطين يتطلب وجود قطع صغيرة من الأرض المروية للاستهلاك الذاتي ، وتعتمد على تقنيات أصيلة لا يعرفها الا القليل من البدو (القمون ، الفقارة ، الساقية ، الخ) وهذا ماسيكون موضوع الفصل التالي الخاص "بسكان القصور" .

أما العمل النسوى فلا يتطلب التوطين : فالمرأة تقوم بنشاطات هامة غير قارة ، لذلك فهن أكثر تلاؤما مع الترحال خاصة ، وأنهن يرين بأن طاقتهن تشغل في البادية أحسن لأنهن أكثر تحركا ، رغم الصعوبة التي يتحملنها من جراء هاته الأشغال ... لكنهن لايستطعن مقاومة مفاتن الحياة القروية ، خاصة بعد التحديث الذى مس القرية الرئيسية "عسلة" ، فأصبحت"الفتاة" تفضل السكن بالقرية بعد الزواج مباشرة ، ولاتستثنى فئة "الشباب" من مصاعب التوطين ، فقد أصبح "الفتى" في أغلب عائلات القرية متأرجحا بين تربية الماشية والتعليم .. والتوطين لحد الآن لم يتوصل الى ايجاد توازن بين هذه الجوانب بل زادها تعقيدا .

.../...

(1) N.MAAROUF:- " Térroirs et villages Algériens" ...op.citée P185.

التعليم والنشاط الرعوى :-

من المعروف تاريخيا ان النظام الاستعمارى لم يسمح الا لقسم قليل من أبناء البدو الرحل لتعليمهم رغم أنتشار الامية والتخلف .

لذلك فان الرغبة بعد الاستقلال كانت تتمحور في ادماج هؤلاء أقتصاديا وسياسيا .. وقد ارتبط التعليم بالتوطين الى حدما ، حيث أصبح نجاح التوطين مرتبطا بنجاح التعليم ، الذى يتم بمقتضاه تشجيع التلاميذ الاكفاء ، ومنح تسهيلات وهدايا ، بالاضافة الى توزيع الكتب مجانا .

ولتدعيم نشر التعليم بين البدو ، وتشجيع حياة الاستقرار فقد اتجهت الدولة الى انشاء الداخليات منذ 1967 عبر مختلف المناطق السهبية ، وقد وصل عدد الداخليات في 1973 الى 14 داخلية *' (1) .

الداخليات التي أعدت لابناء البدو ، لايتعلم فيها فقط هؤلاء ، وانما هناك أبناء الفلاحين ، وأبناء الحرفيين ، وأبناء الأشخاص الذين يقومون بمهمة "الدليل" في الصحراء ، ومما يلفت النظر في بعض الاحصائيات هو العدد القليل لابناء الرعاة الذين يعيشون في داخليات ولاية سعيدة ... * (2) .

واذا ضيقنا منطقة البحث ، وأقتصرنا على دائرة "عين الصفراء" فاننا نلاحظ من خلال بعض الاحصائيات التي أوردها الباحث السابق ، بأنها لم تأخذ الا قسما ضئيلا من أبناء البدو - الرحل بالمقارنة مع المشرية والبيض .. أما الملاحظ في المجتمع المبحوث في "عسلة" ، فان هذا الضعف يرجع الى الثنائية "المطروحة" :- التعليم وتربية الماشية ، التي هي في حاجة الى حل ملائم .

---

(1) A. RYBINSKI :- " La Scolarisation des Pasteurs Nomades .." op. citée PP 47-48.

(2) Ibid PP49-50.

فالتساؤل المزمن هو :- اذا كانت المدرسة تعلم القراءة ، والكتابة ، فمن ذا الذى يعلم الاطفال تربية وحراسة الماشية ؟ واذا أصبح الطفل مرتبطا بحراسة الماشية ، فكيف يتعلم في المدرسة ؟ هذا الاشكال لا حل له على حسب مربي الماشية .. لذلك لابد من حل يأتي من "فوق" أى من "السلطة السياسية" .. لكن هاته السلطة ليست لها سياسة خاصة لتعليم أبناء البدو الرحل ، وخاصة السلطات المدرسية الجزائرية ، وقد وصل " آدم ريبنسكي " الى أعتبار أنها تجهل المشاكل الديمغرافية للبلد أو أن المسؤولين الذين يأتون من الشمال ، والذين أتموا دراستهم بالخارج ، لا يعرفون كثيرا عن جزائر -الصحراء ، ولا يعرفون الثقافة الخاصة بالسهوب والصحراء * (1) ... لذلك ، فلابد من اختيار هؤلاء المسؤولين ، والذين لهم صلة وثيقة بالثقافة السهبية .. وحتى البرنامج التعليمي ، ينبغي أن يكون مرتبطا بالواقع السهبي .. لذلك يعتقد أن هذا الحل يشجع كثيرا مربي الماشية على ادخال أبنائهم للتعليم ، ولكن لاينبغي سبق الاحداث حتى يهيأ الاشخاص المعنيون تهيئة كاملة ، .

كما أن الرغبة في السكن القروى (القرية الرعوية يرتبط بالتعليم) ، وهذا مالوحظ في القرية الرعوية "الحاسي الابيض"، حيث أن ساكني القرية هم من الاشخاص الذين لديهم أطفال في سن الدراسة ، من هنا يرى "البدوى" أو مربي الماشية بأن حراك أبنائه يتم من خلال سبيلين :- التعليم (وليس التعليم الرسمي بالضرورة ، فقد يكون التعليم القرآني ، والمعرفة الدقيقة بتربية

.../...

(1) A.RYBINSKI :- " La Scolarisation ...." op.citée P50.

الماشيــة ، هــذان الشرطــان ينبغــي تكاملهمـا ؛ فـلا يغـنى أحدهمـا عـن الآخــر ...

يعطـي البـدوى للتعليـم القرآنـي الأولويـة ويهتـم بـه أشـــد الاهتمـام ، ويتحمس له بتأثير الديـن القـوى فـي المناطـق السهبيـــة ؛ فهـو يـرى أن التعليـم القرآنـي أصـل ، والتعليـم المدرسـي فرع ، وهـذا التصـور يدافـع عـنه بكـل مايملك من خـبرة وقـدرة عـلى الجدال ؛ وبتتبع تاريخ المنطقـة نجـد أن التعليـم القرآنـي مـر بعـدة أطـوار ويتمـيز "الطالـب" أو "العالـم" بمكانـة اجتماعية معـتبرة فـي القريـة ،أما عـند الـبدو ــ الرحـل ، فيوقعـون معـه عـقدا يسمى "الشـرط" مقتضـــاه : مقابـل تعليـم الأطفـال يتكلـف أهـل الباديـة بمعيشتـه ومؤونتـه الـى أجـل محـــدد .

لذلك يلاحظ أحـد المخبريـن * (1) ضـرورة توجـيه التعليـــم الى التعليـم القرآنـي ، وهـذا بهـدف ابقـاء الطفـل فـي حراسة الماشيـة ؛ بل انـه يساعـد عـلى ابقـاء الطفـل بجـوار ذويـه وعـدم ابتعـــاده عنهـم .. وهـذا الابتعـاد قـد يسبب فـي فـصم الروابـط القرابيـــة ، ويقضـي عـلى العائلـة الموسعـة التي تأخـذ لـدى البدوى مكانـــة معتـــبرة .

اذن فالبـدو لا يريـــدون ادخـال أبنائهـم للمدرسـة لاعتقادهـم أنها تبعدهـم عـن الديـن الاسلامـي (...) وهـذا يتعلـق أيضـــا بالحـذر من "الاجانـب" الذيـن يأتـون من المناطـق الشماليـة ،والذين يتصرفـون بطريقـة تتنافـى مـع مقومـات الثقافـة التقليديـة للبـدو (مثـل تعاطـي المكيفـات) .. "فالطالـب" رغـم ضربـه للتلميـذ ، فان هـذا لا يشكـل أيـة حساسيـة ، وهـذا يفـسر بضـرورة التعليـم القرآنـي، وبالدور الذى يؤديـه "الطالـب" فـي هـذه الجماعـات * (2) .

(1) * حديث "المخـبر" :ــ الطيب بالأخضر رئيس تعاونية رعويــة . .../...

(2) A. RYBINSKI:- " la Scolarisation des Pasteurs", op.citée P54.

يتساءل الباحث "ريينسكسي" لماذا نلاحظ حرص هؤلاء الآباء على الحاق إبنائهم بالمدارس القرآنية) ؟.

هناك سببين يفسران ذلك :—

* الاول :— يرجع الى ثقة الآباء بالطالب "معلم القرآن" .

* الثاني :— يرجع الى الاهمية المعتبرة للتعليم القرآني * (*).

بالاضافة الى تعليم الابناء ، فان تعليم البنات ، ولكن في اطار سن محدد (غالبا قبل "12"سنة) المبادئ القرآنية ضرورى بالنسبة لسكان المنطقة ، ويعتبر في نظرهم تربية لهما ، فمن خلالها نستطيع القيام بالصلاة وبالواجبات الدينية الاخرى.

بعد تحليل دور وتأثير وأهمية التعليم القرآني ، فاننا سنحاول معرفة ما أمجز بخصوص التعليم الرسمي ، فهو محدود جدا بالقرية .

والمنطقة المبحوثة على العموم ، توجد مدرسة واحدة للتعليم الابتدائي وداخلية بالقرية الرعوية "الحاسي الابيض" .

واذا أردنا تحديد نسبة التلاميذ الذين التحقوا بالمدرسة من عدد الاطفال الذين هم في سن الدراسة فانها لم تتجاوز 14٪ في 1970 ، ووصلت النسبة الى 20٪ في 1972 ، والاغلبية ذكور * (1) ، وملاحظه "ريينسكسي" نلاحظه في الداخلية الموجودة بعين الصفراء ، أو حتى المدارس الابتدائية الموجودة بمناطق عسلة حيث تتسم بسوء التسيير التربوى ، والتمديد اللاعقلاني للعطلة ، وسوء التبليغ التربوى ، لكن الاختلاف يكمن في أن المعلم أو الممرن هو من أبناء القرية في الغالب ، على عكس ملاحظه الباحث. . وهذا ماخفف من حدة المشاكل في المنطقة ، سواء من ناحية الشروط الاجتماعية ، أو الاتصال بالمحيط أوغير ذلك ، في عسلة ، كغيرها من المناطق السهبية نادرا مانجد الطفل يتجاوز مستوى

* (1) التقرير البلدى الخاص بالتعليم في عسلة 1970 ، و 1972.

الشهادة الابتدائية ، ومنذ سنوات فإن أبناء الرحل الذين يتابعون الدراسة تجاوزوا السن القانوني المحدد من طرف السلطات. والأغلبية التي إنهت التعليم الابتدائي لاتستطيع متابعة التعليم الثانوى لأنها تجاوزت الحد الأقصى للسن المطلوب * (1) .

وهذا ينطبق على فئة الشباب التي تجاوزت حاليا ثلاثون سنة مثلا .. فالاقلية أستطاعت أن تتجاوز هذا ؛ ورغم تجاوزها للسن القانوني ألتحقت بمدرسة "محمد بالكبير" " بأدرار " — في السنوات الأولى للاستقلال ، وبعدها تحصل عدد من أطفال القريبة على الشهادة الابتدائية ؛ واسماؤهم اللامعة في السجل المدرسي ؛ جعلتهم يتصدرون الآن طليعة شباب القريبة ؛ فمنهم من إصبح رئيس بلدية ، ومنهم من التحق بالتعليم الابتدائي ، أو المتوسط أو الثانوى ، وحتى العالي .. فالحراك أخذ قاعدته من القريبة لكن تطور خارجها ؛ وهذا بتظافر مكانتهم الاجتماعية ومستواهم التعليمي ... لذا ، فالبعض كما ذكرنا تلقى التعليم القرآني في البداية ؛ وفي ظروف معينة ألتحق بمدارس التعليم الرسمي ، ثم بالثانوية وأخيرا الجامعة ويمكن ذكر بعض الامثلة لا على سبيل الحصر ، من تخرجوا من جامعة وهران ؛ وحصلوا على منح لمتابعة الدراسات العليا بالخارج ؛ ومنهم من يتابع حاليا تحضير الدكتوراة في ميدان علم الحياة في الجامعة الأمريكية لكن هذه كلها أستثناءات ، فالتلاميذ القدامى للمدارس الابتدائية ، وأولئك الذين تحصلوا على الشهادة الابتدائية ،(Cértificat Primaire)

.../...

(1) A. RYBINSKI :- "La Scolarisation..." op.citée PP 56-58.

يمكن اعتبارهم بمثابة حجة واضحة على أن المدرسة الابتدائية ليست لها غاية ؛ وهم مجبرين على العمل الشاق كعمال يدويين ومهددين بالبطالة ؛ ولا يتجاوز ربحهم مايأخذه باقي أعضاء العائلة الذين لم يذهبوا للمدرسة .. لذلك ، فالتعليم حسب أحد المربين * (1) غير ضروري ؛ فهو يخشى أن يهرب منه أبنه ؛ وليس هناك تقاعد في مهنة تربية الماشية ، ولا وجود للتأمين أو المنحة العائلية ، وليست هناك عطلة .. والتعليم أيضا غير ضروري "للبنت" ، — وهذا للاعتقاد السائد في المنطقة بأن تعليم البنت يتنافى مع الدين ومع العرف الاجتماعي في آن واحد — .. وقد يسمح للابن بالتعليم في حالة واحدة ، وهي تغيير مهنة الأب ، ونجاح الابن في التعليم يسبب في تفتيت الروابط العائلية ، وحتى فشله يكون له نفس التأثير .

ان تحديد السن والمستوى المنخفض للتعليم لافائدة له بالنسبة لأبناء الرحل ، فهم مغتربون عن وسطهم ، ولم يتعودوا على مهنة تربية الماشية ولم يتعودوا على العمل في الشروط الصعبة للسهب والصحراء .. وأضاعوا السنوات العديدة في التعليم دون نتيجة .. فهم لا يستطيعون العودة الى حياتهم الماضية ، وعدم تعلمهم لايجعلهم يشغلون مناصب هامة * (2) ويضيف أحد المخبرين * (3) ان هاته الأجيال اكثر دلالا من الاجيال السابقة ، وهذا باعث هام في ترك الحراسة الماشية ، والاتجاه نحو التعليم بينما الجيل السابق لم يكن مدللا وانما عانى من قساوة تربية الماشية وحراستها وأيضا من ظروف خاصة في ميدان متابعة التعليم .

* (1) حديث ادلى به المخبر "ر.المجدوب" ..

(2) A. RYBINSKI: "La Scolarisation..." op. citée P59.

* (3) المخبر " ر.أحمد" معلم في قرية عسلة .

.../...

وتفسير وجود عدد قليل من أبناء البدو في الداخليات يرجع الى أنه مرتبط بالتوطين أو التوطين ـ الجزئي ... وذلك لانهم يقضون قسما من السنة في بيوتهم ، وحسب أحد المخبرين *(1)، فإن التجربة مع أبناء اخوته الذين كانوا يدرسون في الداخليات أثبتت المصاريف التي تكلفها الداخلية كبيرة بالنسبة لدخل مربي الماشية . وبعد وصولهم الى مرحلة معينة ، فإنهم يتخلون عن التعليم لفشلهم ، ولايعودون الى تربية الماشية لعدم معرفتهم اياها .. لذا فإن البدو ، وأنصاف ـ البدو الأغنياء هم الذين يستطيعون تحمل هاته الأعباء ويضاف الى ذلك بعد مقر الداخليات ، والمدة الطويلة التي يستغرقها التعليم..

للتوفيق بين التعليم والحراسة والماشية ، على المستفيد أن يعلم ابنه وفي ذات الوقت يمرنه على تربية الماشية ، عليه أن يكون خبيرا بها ، يعرف كل أمراضها ، وبالتفصيل : والكيفية التي ينبغي أن يعالجها بها . والعلاج التقليدى يعتبر ناجعا .. وعلى رب العائلة أن يقوم بذلك .. فإنه يخشى أن لا يأخذ الابن من التعليم أمرا يفيده نتيجة للوضع التعليمي في البلدية .. ونتيجة لعدم معرفته للماشية يفشل في تربيتها .

أما بخصوص التكوين الخاص بتربية الماشية ، فهناك اختلاف في وجهات النظر ، وذلك لأن عقل الطفل لايستطيع الا استيعاب موضوع واحد ، جدير بالاهتمام ، اما تربية الماشية وحراستها ، واما التعليم المدرسي ، فهم يعتقدون بأن قطيع أوليائهم كبير ، ولامحدود له ، وهذا يلبي رغباتهم بما أنه لايوجد لديهم قطيع الا حين يبلغون من النضج ،أما اذا توجهوا نحو التعليم ،فهذا يعني أنهم أبعدوا عن ميدان "الرعي" ، وأعطيناهم نمطا من التكوين يتناسب مع حياة جديدة .

.../...

* (1) حديث المخبر ط. عبدالكريم: مستفيد في القرية الرعوية (1)

أما اذا وجهنا التكوين نحو "المسنين" ،فمعنى ذلك أننا نأتي بأقتراحات تقنية ومعرفية لايعترف بجدواها هوءلاء الاشخاص طبقا لعرافة ثقافتهم البدوية وطبقا للعرف والعادات التي ألفوها ، فلا يتغير سلوكهم بين يوم وليلة .. فهوءلاء لايهمهم المال أو الربح – وهنا اتفق مع "دوبيان" – بقدر مايهمهم تنمية قطيعهم بأستمرار ، مثلهم مثل الرأسمالي "الصناعي" الذى يهتم بالاعمال المربحة ولايمكن ايقافه عن الاستثمار في موءسسته الصناعية * (1) .

لذلك فاءن الفئة التي يناسبها هذا النوع من التكوين هي فئة الشباب "بين 15 – 25 سنة" أو أكثر قليلا .
لايخلو من دلالة حسين يقول : "ان تربية المراهقين تسمح بتقليص المدة بين المعارف المكتسبة وبين أستعمالها ، كما أنها تسمح بتحضير الفرد مباشرة لمهنته المقبلة * (2) ".

ثم ،الايعتبر ذلك تهريبهم من مهمة الحراسة ؟ أى حراسة "الماشية" ؟ أى نمط من التعليم ينبغي تبنيه ؟ ماعلاقة التعليم بالترحال والتوطين ؟ يجيب "نذير معروف": في قليل من الحالات تظهر بعض التناقضات ، المدرسة لابنائي ،"نعم" ثم السوءال المخصص لحراسة الماشية : "سأعين أكبر ابنائي ، لهاته المهمة (..) "وفي عدد كثير من الحالات ، فاءن رب العائلة يقترح ضمان حراسة الماشية ،ويتقبل كل التضحيات المنجرة على ذلك ("الابقاء على الخيمة ،"الحراك" ، شروط الحياة الصعبة) * (3) .

فالدافع الذى يجعله مرتبطا بالقرية هو انقاذ ابنائه بواسطة المدرسة لذلك فاءن تعليم الاطفال مثل العوامل الاخرى التي تحدثها ، "القرى الرعوية ".

---

(1) [illegible] * * * * *

(1) DOGNIN:- " Sociologie de la Stéppe" op.citée P18.

(2) SENTILHES:-"Analyse des réformes " In:- DOGNIN:-"Sociologie de la Stéppe" PP 18-19.

(3) N.MAAROUF:-" Térroirs et villages Algériens" ..op. citée P179.

هذا يؤدى الى تحولات جذرية في ميدان تنظيم العمل السهبي — ويطرح "دونيان" سؤالا آخر: "هل نفيد أبناء البدو — اذا تعلموا — لكن بشرط أن يتركوا الوسط الرعوى ؟ (..) ان نمط الحياة الرعوى لايفترض الا نمطا مرنا من التكوين (..) وهذا يرتبط بالثقافات الرعوية ، بوسطها الجغرافي ، وبالوسائل التي تضعها الحكومات قيد التنفيذ فالعنصر المتغير يرتبط بعمق الافكار التي يطرحها المتخصصون ، في الرى ، وفي الزراعة ، وفي الحيوان ، والتي يتفقون عليها (...) والتي قد تؤدى الى تحسين شروط حياة المربين والمحافظة على وسطهم ،* (1).

عدم الالمام بهاته العوامل السابقة ، قد يجعل هذا الشاب غير متعلم ، أما الماشية فيخشى أن يفشل في تربيتها ، وهنا يضيع الامران معا ، كما أسلفنا ، ولذلك فإن أستمرار مهنة تربية الماشية قد تنتهي بوفاة رب العائلة ، فالاجيال اللاحقة نتيجة لتوجهها للتعليم فقط ، سوف يؤدى ذلك الى أختفاء هاته الحرفة. والخطورة هنا واضحة * (2) ولحد الآن لم تفتح أيضا ، مراكز للتكوين المهني ، والذى يكون مرتبطا بالوسط السهبي ، والمنطقة لم تعرف أدنى رقي في المجال المهني —التعليمي — ويضيف أحد المخبرين مخاطبا "الباحث" :— "أعطيك مثالا : لو لم تخرج أنت من عسلة لما وصلت الى هذا المركز التعليمي (التعليم العالي) اذن ، لتنمية السهب ، فلابد من معرفته ، ومعرفة(3) الأرض والانسان وهناك مكسب تقليدى ، سواء تعلق الأمر بانتاج المعرفة أو بنقلها .. العرف الشفوى أو المكتوب :— المدارس

(1) DOGNIN:- "Sociologie de la Stéppe..." op.citéeP17.

* (2) حديث ط. الشيخ ، رئيس بلدية سابق.

* (3) حديث البشير والحاج من سكان القصر "عسلة".

القرآنية ، الجمعيات ، .. الخ ، فالاساس هو ادماج هاته المعارف في برامج تنمية الرعي .. فخارج هذا المكسب الذى يحتاج للاثراء فان المربي يحس بأنه مغترب عن هذه البنية التي ليست لها علاقة بتاريخه . * (1)

هذه المشاكل ناجمة عن الموقف تجاه البداوة ؛ التي أصبحت تعتبر حياة متخلفة ينبغي تجاوزها لا تطويرها ، مناقضة للحياة المعاصرة أو للتطور الاشتراكي ... الخ .. ومحاولة القضاء على البداوة لا تخفى على الملاحظ الاجتماعي ، وذلك في تحويل الرحل الى مستقرين طفرة واحدة .. دون الاهتمام بخصوصيات الثقافة السهبية التي مازالت حية وفعالة .. ، فالمخطط والمبرمج والمنفذ الذين ليس لديهم رصيد علمي عن القطاع البدوى لا شك قد ساهم في عرقلة السياسة التعليمية والتنموية — .

.../...

(1) P.MAURY:- " Les programmes du développement du Pastoralisme" ALGERIE "16"
In:- "Seminaire Intérnational sur le Pastoralisme" - ALGER1974.

الفصل الرابع

سكان القصر

1) تكويــن القصــــور :ــ

يـرى "معـروف"(1) أن بدايـة القـصور وتكوينهـا ، ونشوئهـا : عريــق ترجـع كلمــة "قـصر" الـى التسمية العربيـة الـتى تعـنى تجمعــات سكنيــة تحميهـا بعـض الحصون والقــلاع .

سكانهـا الاوائـل كانـوا ومازالـوا "بـربـرا ، و"قـصر" عسلــة لايشـذ عـن هـذه القاعـدة ــ فالدراسـة السابقـة تبـين أن محـور "توات ، تيد كلـت ، قـورارة" شهـد هجـرات كـثيرة من أقـدم العصـور ، بسـل وغـزوات كـثيرة رواهـا المؤرخـون أيتـداء من "هـورودوت" مـرورا ببتوليمـي "PTOLEMEE ..... ، وابن خلـدون وليـون الافريقـي والتينلانـي ، والتمنطيطي والمغيلـي ... الخ .

يتحـدث بعضهـم عـن فلسطـين التواتيـة (نسبـة الـى توات) التي كانـت مركـز هجـرة بربريــة معتـبرة ، وقـد أطلقـت هاتـه التسميـة لتدعيم الفكـرة القائلـة بأن "البربـر" يعـود أصلهـم الـى "فلسطـين" ــ ولا يخفـى تأثـير الهجـرات المسيحيـة واليهوديـة الـى هاتـه المنطقـة عـبر بعـض المراحـل علـى الجانـب الاجتماعـي والبنـية السكانـية ، وممارسـة الزراعـة .. ومازالـت بعـض المناطـق تحتفـظ بأسمـاء أنبيــاء بـني اسرائيـل مثــل "يوشـع" ، و"نـوح" ... الخ .

أثنـاء الفتـح الاسلامـي ، كانـت هنـاك صراعـات بـين مختلــف الامـارات الحفصيــة والزيانيــة وغيرهـا ــ وقـد انعكـس تأثيرهـا عـلى "الـولاء" الذى كانـت تقيمـه هاتـه القصــور مـع القبائـل المهيمنـة .

.../...

(1) voir N.MAAROUF:- "Lécture de l'Espace OASIEN" Bibliothéque Arabe -SINDBAD PARIS 1980.

أما قبائل "زناتــة" التي استوطنت هاتـه القصـور الصحراويــة الواحيـــة ، قبـل غيرهــا ، فقـد كانـت تقيـم أحلافـا مـع القبائـل العربية الغازيـة (الخلـط ، حيشم ، سفيـان) : وذلك عـلى أساس مـيزان القـوى ، والصـراع التقليـدي بـين البـدو والحضـر .. فقـد تتحالف قبيلـة عربيـة مـع قبيلـة بربريـة ضـد قبيلـة عربيـة أخـرى أو العكس ، لذا كان الصـراع بـين المركـز (السلطـة) ، والمحيـط (القصـور) ــ فقـد كانـت قبيلـة "سفيـان" فـي صـراع دائـم مـع "الخلـط" ، و"حيشـم" ، ضـد "ايحامـد" * (1) .

أ) ــ ارتباط البنيات الاجتماعية في شبكة موحدة :ــ

يبـدو أن الجانـب الديـني والاجتماعـي والسياسـي والزراعي (مـن ورائـه نظـام "السري") مرتبطـة الـى حـد بعيـد ، فالجانـب الديـني (الزوايـا ، المرابطـين ، الشرفـة) مرتبـط بالاعتبـار الاجتماعـي كمـا سنوضـح فـي دراستنـا ..

فالأشـراف لهـم تأثير قـوي عـلى هـذه القصـور ، وهذا ينسحـب عـلى القصـر الذي ندرسـه ، لا مـن حـيث الولاء فقـط ، ولا من حيـث التبعيـة "الطرقيـة" ــ ولكـن من خـلال الخطـوة السياسيـة التي تتمتع بهـا هـذه الفئـة ، وهـذا طبقـا للارث التاريخـي الذي أكتسبتـه مـن سيطرتهـا الدائمـة عـلى سكـان "القصور" سـواء عن طريـق الدول الشهيرة أو الدويـلات المبعـثرة ، التي تظهـر وتختفـي ثـم تعـود للظهـور حسـب تناصرهـا عصبيـة قويـة ، لا تـدوم مـدة زمنيـة طويلـة .

---

* (1) قبائل "الملول" ضد قبائل "المحبوب" ، الملول تعني "آكلي الدريـن" (يحتقـره البدوي) ، أما المحبـوب " آكلـي الحبـوب" .

.../...

أما "نظام الري" ، فيمثل الانقسام الحقيقي للنظام الاجتماعي لسكان القصر ، والمكانة الاجتماعية لكل شخص يملك قطعة مروية (مسقية) ...

واذا كان "النمط الآسيوي للانتاج" قد قام على "نظام الري" ، و"الاستبداد الشرقي" .. ففي حالتنا هذه فان النظام المفصلي * (1) يقوم على نظام الري وعلى الاستبداد القبلي ، حيث تمارس القبائل القوية نوعا من الاستبداد ، والتحكم في مصير سكان القصر ، ولو كان ذلك عن طريق مايسمى "بالمبادلة" .

ب) ـ موقع القصور :ـ

تقع القصور في أغلب الأحيان ، بمحاذاة الوديان أو منابع المياه ، وذلك للضرورة الاقتصادية ، حتى يشتغل سكان القصر بالبساتين دون ضياع الوقت .. وقصر "عسلة" يقع بمحاذاة الوادي ، الذي يدعى بوادي عسلة ، ويوجد بمحاذاة المساكن الطينية بساتين تنتج بعض أنواع الخضر والفواكه ، (التين ، الرمان ، البصل ، الجزر ، البطاطس) وتعتمد على نظام ري متقن ، بحيث يتم تقسيم سواقي المياه بين المنتفعين بشكل لايظهر فيه أي جور .. فتاريخ هذا القصر يرتبط بما سمته "ماثيا غوردي" بغزو الأشراف ، أي بعد الغزو الهلالي :ـ وذلك في القرن "الخامس عشر"الميلادي ، حيث لجأ جد القبيلة ، "سيدي أحمد المجدوب" الى هذا المكان ، واتخذ من بعض "بربر زناتة" خدما له ، لذا نجد بعض ساكني القصر يحتفظون حاليا ببعض الاواني و"الخف " الذي كان يرتديه ،

---

* (1) أنظر د/"خلدون حسن النقيب" :ـ "بناء المجتمع العربي" بعض الفروض البحثية "مجلة المستقبل العربي" 9 : 1985 مركز دراسات الوحدة العربية .

.../...

وينسبون اليها كرامات لاحصر لها .. ويبدو من خلال بعض المخبرين أنه كان كثير الثقة بهؤلاء البربر من "الشلح" مازال كثير من السكان البدو يحتفظون ببعض الذكر لهم .

هذه القصور ، ومنها هذا القصر إصبحت تحت سلطة "المرابط" ، ويتحكم فيها نوعان من السكان :- "البدو ، وساكني القصر ، وكلا منهما يعتمد على الآخر .. وهناك عقود تتناسب مع زراعة الأرض ، والعناية بالقطيع ، ومراقبة المحصول ، والتموينات وكذلك صيانة البساتين * (1) .

ان التجاوز في الأراضي الزراعية المروية ، يخضع لمنطق العائلات أو الطوائف ، فكل طائفة تنحدر من جد لاتربطه أى صلة قرابة مع جد الطائفة الأخرى.. رغم أن الطوائف تنتمي الى قبائل "زناتة" البربرية ، وتختلف من حيث أماكن نزوحها قبل تجمعها بقصر "عسلة" .

أما القصور المجاورة لهذا القصر (الشلالة ، بوسمغون ، صفيصيفة ، مغرار -) فتسكنها أيضا بقايا زناتة ، وهم يتحدثون البربرية ، الزناتية ، ويفهمون العربية (اللهجة المحلية) .

ومن الناحية التاريخية "المحلية" يعتبر "بوسمغون" أهمها ، فهو يعتبر مركزا ثقافيا هاما ، وهو المركز الثاني بعد "فقيق" لتحفيظ القرآن الكريم .. بل انه المرحلة الاساسية للتدرج في التعليم القرآني - فبعض أبناء البدو الذين كانوا يتمتعون بثروة حيوانية معتبرة يوجهون أبنائهم للتعليم في زاوية "بوسمغون" ، قبل أن

.../...

(1) M.GAUDRY:- "La Société féminine" ...op.citée P50.

ينتقلوا الى "فقيق" ، فطلب التعليم يبدأ "ببوسمغون" ، و"قطب" التعليم هو "فقيق" ، ويعتبر هذا النوع من العلاقة ـ العلاقة التعليمية المميزة لهذا القصر ، عن غيره من القصور ـ اذ يمثل المنفذ الذى يستطيع من خلاله البدو وأنصاف ـ البدو ممارسة أنواع أخرى من التبادل .. ويتفتح "السمغوني" الذى كان متحفظا في علاقته بالبدوى على صديقه الجديد ، ويقدم له منتوجاته المحلية ، ويكرم ضيافته .

لكن بأستثناء هذا القصر ، الذى يحتل المكانة "الثانية" ، بعد قصر "عسلة" ، فاءن علاقة البدو ضعيفة مع القصور الاخرى ، أما علاقة البدو ـ المجادبة ـ مع سكان قصر "عسلة" ، فتعتبر قوية جدا ، نظرا للعوامل الجغرافية ، والتاريخية ، والدينية (الزاوية) ، والإقتصادية .

علاقة البدو ، وأنصاف ـ البدو بسكان القصر :ـ

كانت قبيلة "المجادبة" كغيرها من فصائل "أولاد سيدى الشيخ" ، تتعامل بطريقة ثنائية مع سكان قصر "عسلة" ، و"قوراره" في آن واحد ، أما الآن ، فإن هذه المبادلات أنحصرت في قصر "عسلة" ، وهي في طور الاضمحلال أيضا .

بخصوص أشكال التبادل بين البدو ، وأنصاف البدو ، وسكان القصر من جهة أخرى فقد أوضحنا بعضها : حيث يستعمل بيت "القصورى" كمخزن لمنتوجاتهم التي يريدون تخزينها ، أو يدفعون له الصوف لكي ينسج لهم الألبسة من برانيس ، وأغطية ... الخ .

.../...

و"للقصور" أن يستضيفه لعدة أيام اذا رغب في تأدية واجبه نحوه .. مقابل ذلك يدفع له "البدوى" أو نصف ـ البدوى" بعض المنتجات الرعوية (حليب ، صوف ، سمن .. الخ) .. أما الذهاب الى "قورارة" فيختلف كثيرا من حيث التبادل ، فهم يبادلون الماشية ، والصوف ، والسعف والحبوب ، والزبدة ، والجبن والتوابل ، والكليلة ، وذلك مقابل "التمر" ، وحوائج أخرى .. ويقول" أولاد سيدى الشيخ" على سبيل الفكاهة بأنهم يتصرفون في "القوراري" كما يشاؤون حين يعطونه "الكليلة" * (1) (جبن جاف على شكل "الحصى").

واذا كان "الكرم" صفة مشتركة للبدو ، و"الشلح" ، أى سكان جبال الاطلس الصحراوى . فهو يحدث في كل المناسبات نتيجة للالتقاء المستمر ، والعمليات التجارية ، وتردد البدو ، وأنصاف البدو على القصر . وزيارة سكان القصر لهم .. بالاضافة الى الحفلات التي تقام على أضرحة المرابطين ("الوعدة" ـ "الخفارة") ، والتي تتطلب عادات وأعراف محددة يعتبر حسن الضيافة أساسها الجوهرى*(2

ولا يخلو "قصر" عسلة" من مناسبات الضيافة . فكل يوم ـ تقريبا ـ يستقبل السكان مع الصباح ضيوف "بدو" من نفس القبيلة يأتون لقضاء مصالحهم . سواء كان القاطن عربيا أو بربريا طبقا للعلاقة القرابية أو المصلحية التي تربط بينهما ، كذلك فان العرف الاجتماعي يقتضي بأن يجتمع على الطعام البدو . وأنصاف ـ البدو . و"البربر" ، كلما اقيمت مأدبة لقضاء مصلحة ذات أهمية معتبرة تتعلق بانتخاب الجماعة التي تشرف على "الزاوية" مثلا .. أو مايسمى "بالمعروف" وهو التبرك بجد القبيلة بدون مناسبة ، أو بمناسبة .

---

(1) voir M.GAUDRY:-" La Société féminine " ..PP38-39 .

(2) Ibid PP45-47.

اذن ، فمن خلال العلاقة بين "البدو" وسكان "القصر" تظهر شبكة التجمعات السياسية :- "الصف" ، والدينية (الاخوانيات ، والطرق .. ومن هاته التجمعات ، ومن الأشخاص الذين يشكلونها ، تبرز العلاقات الاقتصادية والاجتماعية ، الخاصة ، والادارية .. "فالقصوريـة" يحتاجون للبدو ". والبدو يحتاجون لمنتوج البساتين والنخيل ..

"فخماس البدوى" هو ساكن القصر و "عزال" القاطن هو "البدوى" ساكن القصر يبيع للبدوى الانتاج السنوى :- من نسيج ، وخزف ، وملابس صوفية ، وأفرشة — ومن العادة أن كل بدوى له صديقه المفضل الذى يبيع له هاته المنتوجات المنزلية .. وبين "البدوى" و "ساكن القصر" علاقات مودة أيضا ".ولكن هاتين الفئتين مختلفتين :. يمتلك سكان القصر عددا قليلا من القطيع ، ويعيشون من منتوج نخيلهم وحقولهم ، حتى ولو لم يكن جهده كبيرا ، فانه ثابت ، وكذلك فان وجوده يعني أنه لايمر بالمراحل الصعبة التي تذكره بالبدوى ، وهو في ملجأ حصين من هاته ، الأخطار ". ومهما كانت الأحداث فان منزله ، وحقله يشكلان ضمانا لما يمكن أن يحدث غدا ، وكذلك فان ثبات حياته معناه أستقرار المصادر التي يحصل عليها * (1).

كثير من "البدو" يحبون حياة قاسية ، ولكن القطيع مصدر ثروة ويسمح له بأن يترك حساباته لما يخفيه القدر ، وهو كثير الانفاق على الحفلات والزواج ، والمآدب لحد المبالغة .. اذن ، فهو سريع الافلاس ، ولكنه في نفس الوقت يعتمد على حظه من السماء في الحصول على ثروة من جراء بيع القطيع ، فهو كذلك لايخفي إشمئزازه من ساكن القصر رغم علاقات المودة

---

(1) M.GAUDRY:- "La Société féminine..." PP76-78.

التي تربطه به حين يتعلق الأمر بنشاطه * (1) ـ نوع آخر من النشاط يميز سكان القصور وهو "التجارة" ، ولابد من التذكير أن سكان "القصر" تجار مرموقين ، فأغلب تجار "القصر" من البربر .. وهذه التجارة تقتصر على بيع المواد الغذائية وعلب الكبريت والشمع .. الخ ، أو يشتغل بعضهم في "الجزارة" ، وذلك طبقا للمورد الاقتصادي الأساسي في المنطقة وهو "الماشية" فقد يشترون الماشية من البدو .. ويقومون بذبحها وتسويقها .

ولا يكتفي بعض سكان "القصر" ، بالتجارة فقط ، وانما يمارسون الفلح في البساتين كما ذكرنا ... ونشاط أحد المخبرين * (2) يدل على ذلك ويبدو أن التجارة نشاط يتوارثه الأب عن الأبن ، وبعض التجار وخاصة "الشلح" يؤكدون أن آباءهم كانوا أكثر حركة منهم ، فقد كانوا يصلون حتى "سبدو" (ولاية "تلمسان") والتي كانت عسلة وعين الصفراء تابعتين لها .. وكانوا يذهبون الى "فقيق" وغيرها .. وحتى الى غرداية عند "بني ميزاب" كما يسمونهم . ويبدو أن التجارة في ذلك العهد كانت في مرحلتها الزاهرة .. يخبرنا نفس المخبر أن والده كان على آتصال مع تاجر من الأغواط حيث كانت الزيارة متبادلة بينهما . ولم تقتصر تلك التجارة على الأشياء المألوفة مثل :ـ "الأقمشة ، والألبسة ، والمواد الغذائية ، وانما كان يميل لتجارة الخيل والأنعام .. وقد كان والده مقتنعا بهذه المهنة ، محبا لها * (3) .

هذا المثال يوضح أن طائفة من سكان القصر أنتهجوا هاته الطريقة ، وسلكوا هذا النشاط ، وحين تظهر الأزمة ، يضطر هؤلاء

---

(1) voir, M.GAUGRY:- "La Société féminine..."op. citée P78 .

* (2) حديث المخبر "ب. والحاج"

* (3) المخبر "الهشير والحاج"

الى الهجرة لمناطق مجاورة كوهران ، وسعيدة .. وغيرهما وهذه ضرورة تقتضيها الضغوط الاجتماعية في المنطقة .

في عهد الثورة التحريرية التي رأينا في مجال سابق تأثيرها على البدو ، فان سكان القصر لم يكونوا أحسن حظا ، حيث أصيبت تجارتهم بالافلاس ، وذلك لعمليات التفتيش الاستعمارية المستمرة وللمصادرة التي تعرضت لها خيراتهم وأملاكهم وأموالهم .. ولكن يبدو أن الخسارة لم تكن ذات تأثير عظيم ، وذلك لان عددا قليلا من الاشخاص يستطيعون جمع قدر من المال يتجاوز 30 ألف دينار جزائرى ...

العلاقات الاسرية والادارية:

* نشأت بين "سكان القصر" والبدو علاقات أسرية معينة ، والتي ترتبط بالاعتبار الاجتماعي كما سنعرف .. وحتى مسألة"الحياء" والتي هي عرف من الاعراف القبلية ، فانها أصبحت غير واردة بين أهل عسلة (الشلح) ، وأولاد سيدى أحمد المجدوب ، سواء في الخيام أو في ديار الطين من جراء هذه المخالطة .

ولم تقتصر هذه العلاقات على العلاقات التجارية والعائلية ، بل تتعدى ذلك الى علاقات ادارية وسياسية ، فهناك من أبناء "القصر" من يشتغل كاتبا في البلدية أو في القسمة وغيرهما ، وله آتصال مباشر بالمصالح الحيوية للبدو .. وهذا يظهر نوعا آخر من الاحتكاك .. ومايلاحظ في المدة الاخيرة ـ أختفاء "مركب العظمة" لدى البدو حين يريدون قضاء بعض المصالح الادارية ، فيتوددون "للقصورى" ويحاولون ارضاءه لقضاء حاجتهم بأقصى سرعة ممكنة .. لكن هناك بعض الاستثناءات وسوف نعمق هذا الامر حين نتعرض للتمايز الاجتماعي على ضوء الاعتبار الاجتماعي .

النشـاط الزراعـي وملحقاتـه :ـ

يذكـر لنـا المخـبر (والحـاج) أن عـمل الأرض أصبـح يفتقـد للتـوازن ، أو أصابـه الاهمـال ، وذلك نتيجـة لكـثرة الأراضـي وقلـة المـاء ، و"العـيون " ، التي لم يستفـد منهـا بشكـل "عـقلاني" *، ويضيف هاتـه السنـة مجدبـة (1984) وذلك نتيجـة لعـدم انتظـام السـرى ، وفتـح السواقـي ، وكل هـذا الضيـاع يرجـع الـى عـدم المعرفـة بالاستغلال العقلانـي للرى ونظـام الحفـر ـ اذن ، فهـو غـياب للتقنـيات"الاصيلـة" وعـدم التحكـم فـي التقنـيات الحديثـة *. لذلك تعـرف الزراعـة (خاصـة النخيـل والاشجـار المثمـرة) تقهقـرا كـبيرا فـي هاتـه المرحلـة *. وأخذت اليـد العاملـة فـي التقلـص بأعتـبار شبـاب "الشلـح" أخـذ يبتعـد عـن العمـل الزراعـي بفعـل التعليـم ، والعمـل الاداري ... الخ .

بالاستنـاد الـى المخـطط البلـدى للتنميـة يلاحـظ أن المساحـة الكليـة لوادى عـسلة ومايجـاوره من بساتـين تبلـغ 30 هكتـار ، مقسمـة علـى حوالـي "160" مـلاك من سكـان القـصر *. وبعـض القاطنـين من البـدو ، وأنصاف ـ البـدو .

* فالأرض تعتمـد علـى الـرى بالدرجـة الأولـى ، ويستهلك المنتـوج محليـا أو يستعمـل للتبـادل ، كمـا أوضحنـا سابقـا ، وتطـورت العلاقـة حـتى أصبـح البـدوى يشـترك مناصفـة مـع سكـان القـصر فـي الأرض المرويـة * (1) .

(*) حديـث م. بوحلبـة موظـف فـي الديـوان الوطـني للتجـارة .

لكن الاهمال الذى ذكر سابقا تعود "بعض" أسبابه لمايلي :ـ

ـ قلة المردود ، وانخفاض ثمنه ، وأختفاء العلاقات التقليدية التي كانت قائمة بين سكان "القصر" والبدو وأنصاف ـ البدو (المجاذبة) ـ ولم يعد انتاج "القصوري" يكفي لاستهلاك أسرته المتزايدة المطالب والحاجات .. لذلك تجد كثيرا منهم يلجأ الى حرف مكملة لكي يصل لسد حاجته ، بالاضافة الى ذلك فمازال ساكن "القصر" يعتمد على الادوات "الاصيلة" في الزراعة .. ولم يعط الفرصة لتدخل التقنية الحديثة ، اما نتيجة لغلاء أسعار بعض الالات الزراعية ، أو الكلفة التي يصرفها الفلاح من أجل بعض الاسمدة ـ الى غير ذلك .. لذلك ، كما يقول زيعور: يأتي في طليعة التحسينات الضرورية اذن ارواء الارض ، وأستغلال تلك المياه التي هدرت طيلة أجيال * (1).

لايمكن أن نقول أن قصر "عسلة" يحتوى على ملكيات زراعية هامة ، ولكن وجود ملكيات صغيرة ، وأحيانا صغيرة جدا يعود الى تفتتها بسبب "الميراث" ، حيث تنقسم العائلة الواحدة الى عدة ملاك مستقلين ، ومنفصلين عن بعضهم البعض . فبعض عائلات سكان القصر كانت قليلة الافراد ، لكن بفعل التزايد الديمغرافي تزايد عدد الاشخاص البالغين .. وأصبحت العائلات ذات العدد الكبير تجد صعوبة توزيع اراضيها ، وفي فتح السواقي لتنظيم "الري" ، وفي استعمال بعض التقنيات في توزيع المياه أيضا حسب الحاجة .. وهذا أدى الى اختلال النظام الزراعي في القرية وبالتالي الى اختلال نظام التبادل برمته ، المشكلة ليست في ملكية الارض ، وانما في تفتتها وتباعدها ، وصعوبة تقسيمها بعد أن أصبحت المساحة المزروعة لاتكفي لاعالة الاسرة الموسعة .. وقد لجأ بعض سكان "القصر" الى حل موقت يتمثل في التنازل عن

* (1) أنظر أيضا :ـ علي زيعور:ـ "الدراسة النفسية ـ الاجتماعية بالعينة للذات العربية ـ دار الطليعة بيروت 1978 ص: 74.

الملكية للأطراف الأخرى ، بعوض أو بدون عوض ، مقابل التراضي بين رؤساء العائلات .. وهذا يؤدى الى أستثمار أنجع لهاته الأرض المروية .

أما بخصوص العمل التعاوني ، فنلاحظ أن سكان "القصر" يقومون بمآزرة بعضهم نتيجة لمرض أحدهم ، أو أن يكون عاطلا لسبب آخر ، فكثيرا مايلاحظ أن أحد المزارعين يقوم بفلاحة أرض غيره ، لكنها تعتبر "سنة" يقوم بها سكان "القصر" منذ الأجداد .. الى غير ذلك من الاجراءات التعاونية التي يقومون بها بمعزل عن الأسباب السابقة ، والتي لها جذور في الماضي ، وهي مناقضة لروح الأنانية التي أصبحت ميزة العصر الحاضر .

* الفلاحون في القصر يختلفون عن فلاحي التل ، الذين يقومون بفلاحة الأراضي الجافة الخاصة بالحبوب والزرع .. الخ . فهم في قطاع "الري" أكثر ثقة بالطبيعة ، وبامكانياتهم على زيادة دخلهم .. وهم أقرب الى العقلية الموضوعية التي تقيس وتؤمن بالعمل والكمية والزمن الفعال .

وهذا الدخل يجعله كما نرى أقرب الى العلم ، وأكثر تحررا ، وأسرع الى قبول الجديد والتجريب * (1) .. وفي قصرنا نلاحظ أن هؤلاء يتسمون بالموضوعية في تقدير أسباب الحياة والمعيشة ، يحترمون "الزمن" كبعد أجتماعي له مكانته في حياتهم اليومية .. ليسوا متعصبين يقبلون الجديد الذى يثرى تجربتهم الزراعية ، لايستهينون بالخسارة ، وانما يقدرونها لكي لا يقعوا في الخطأ مرة أخرى . أكثر اندماجا عن غيرهم من البدو الذين يتعاملون معهم في دنيا الحضارة . ويتضح ذلك من علاقاتهم

* (1) علي زيعور :- "الدراسة .." مرجع سابق ص : 78 .

الكثيرة التي يقيمونها مع سكان "القصور" المجاورة ، ومع سكان "المدن" المجاورة ، بل حتى المدن الساحلية كوهران والجزائر العاصمة . انهم عمليون ("براغماتيون" على الطريقة الأمريكية) . ويمتاز سكان القصر بأنهم يقدسون العمل فعلا : ينهضون باكرا ويجدون في عملهم ، ويرفضون التواكل الذى ينجم عن الكسل والقدرية المفرطة ، ويؤمنون بالتوكل على الله الذى يعني توفير الأسباب والشروط .. نظرة قصيرة للملاحظ تبين في قصر "عسلة" الاختلاف الجذرى بين "القصورى" ، و"البدوى" فبينما ينهمك البدوى في قضاء أوقاته في اللهو ، أو المسامرة والأحاديث التي لاطائل وراءها ، نجد "القصورى" في دكانه اذا كان تاجرا ، وفي مقر عمله اذا كان موظفا في البلدية أو القسمة ، وفي بستانه اذا كان مزارعا .

لكن رغم هذا الجهد ، فان الانتاج الزراعي المسوق قليل الأهمية ، وذلك لأنه يوزع على الأقارب ، ولا يباع في الحوانيت القليلة .. ومن عرضه للبيع فانه يقابل بالتهكم من طرف البدو الذين يحصلون عليه مجانا ... وتتعرض أيضا بعض الاشجار المثمرة الى السرقة من طرف الأطفال .. والحوادث كثيرة حول هذه الظاهرة ، حتى أصبحت حديث مسامرة بين شباب القرية وتميل اليوم الى الاختفاء .. و "التين" يتعرض أكثر من غيره للسرقة . فهو يعتبر خبز الصيف وحلاوة الشتاء .. واذا كان أغلب سكان القصر يمتلكون أشجارا للتين ، فانه لايباع، بل يقدم للأقارب والجيران كما ذكرنا ، أو يقدم للسكان البدو الذين يتمتعون بعلاقات مباشرة مع سكان "القصر" ، ويجفف فائضه "للشتاء"*(1).

---

* (1) أنظر أيضا :ـ فرج الله صالح ديب :ـ "القرية وسوسيولوجيا الانتقال الى السوق" ـ دار الحداثة ـ بيروت 1981 ص 14.

.../...

المياه وأثرها في التنظيم الاجتماعي :ـ

لقد أشرنا فيما سبق الى مشكلة المياه ، لكننا طرحناها في اطار عام ، أى في السهب برمته .. لكن الآن سوف تقتصر على مشكلة المياه في "القصر" .. لقد أنشيء "القصر" بجوار مورد الماء مثلما أنشئت المدن العريقة بجوار الانهار .. ومياهه المالحة يعتقد أنها صالحة للزراعة لكن السواقي الجارية قلما تروى الارض ريا منظما ، حيث تضيع في الحواشي والنزع .. وبذلك تتجمع الاتربة والحجارة ، فيقوم "الفلاح" بتنظيفها كلما أتيحت له الفرصة ، أو يقوم جيرانه أو أقاربه بمساعدته فهذه "الواحة" التي تبدو ذات طابع غير انساني ، تحوى أقتصادا غنيا ومتنوعا ، يعتمد على السهر في معالجة النخيل ، وري التربة * (1) .

اذن ، فالقصوري هو رجل البيت الطيني ، والتربة ، يزرع البساتين والقطع الصغيرة في الواحات ، وكل شيء يميزه عن البدوي :ـ فمن جهة قرى ذات منازل طينية ، ومن الحجر الجاف (..) ومن جهة أخرى الخيمة المرتحلة ، والمجالات الواسعة .. هنا نجد العمل المستمر والمضني للارض وا وكل فضائل الفلاح وغلظته .. وهناك ، هيام مربي الماشية وراء قطعانه(..) بالاضافة الى ذلك فلا يمكن للقصوري أن يستغني عن البدوي الذي يقترح بل يفرض عليه حمايته من كل نهب ، ويترك مربي الماشية أثناء رجوعه للقاطن أو الخماس مهمة زراعة وري نخيله ، وحديقته ، ويترك له جزءا من المنتوج (..) وكما لاحظنا فالعلاقة التي تشدهما ليس منطقها الوحيد هو المصالح * (2) .

---

(1) voir: A.R.GOLDZEIGUER:- "Le Royaume Arabe" ..op.citéeP514.

(2) P.BOURDIEU: - "Sociologie de l'ALGERIE" ED/P.U.F - FRANCE 1980; P60.

نعود ءالى المياه وتوزيعها : فنشير الي أن ندرتها جعلها تخضع لنظام "الحصص" في القطع الأرضية الصغيرة (أمتار مربعة ..) ، وهذا يسير من طرف الحرف والثقافة الرعوية المتأثرة بالاسلام ، وخاصة في فن التوزيع والقياس الموحد نسبيا .. نجد في سورة "الرحمن" قوله تعالى :ـ " ألا تطغوا في الميزان" .. وهذا ليس الا وجهة من الصرح القصورى ، وعنصر من النظام المحاسبي والقياسي على العموم ، والمبدأ القاعدى للقياس هو محلي أساسا ، أى "زناتي" ، ويسمى "بخط الزناتي"، ويسميه البعض (بخط الرمل) الذى يحيد تشكيل العمليات الحسابية وتشخيصها ، وهذا يذكرنا بنظرية المجموعات لكن بطريقة أسرع * (1) .

ومع التطور التاريخي بدأ نظام القياس في التحسن .. وبتأثير الاسلام طبقت الشريعة فيما يخص الميراث سواء بالنسبة للذكور أو الاناث أو العصبية ، واذا كان معروف يسهب في تحديد "المكابيل" التي تستعمل لقياس المياه في زاوية "كنته "(أدرار) فاننا نعتقد أنها نفس المكابيل التي تستعمل في قصور "عسلة" ، بل وتبعت نفس التطور .. وكان "الخبير" هو الذى يقوم بتوزيع المياه ، والنقيب أو المقدم هو الذى يساعده بحمله "للزمام" (السجل) .. فالمجال يتمثل فيما يسمى "بالماجن" ، وهو تجميع المياه في "الفوقارة" ثم يعاد توزيعه على شكل جيوب يذهب مقدار من الماء لكل قطعة أرض عن طريق الساقية * (2).

---

(1) N.MAAROUF:-" Lécture de l'Espace OASIEN" ..op. citée PP 125- 127.

(2) Ibid PP127-136.

ولكن لايمكن فصل عامل الري عن العامل العقاري ؛ بل هناك ارتباط جذري بينهما ، فتوزيع الارض يعتمد بشكل أساسي على طريقة توزيع المياه ، وصاحب الارض القريبة من الماء (الفقارة) حظه أوفر من الآخرين .

وكما عرفنا ؛ فان توزيع الاراضي الى عدة حصص في القصور لا يتجاوز ضرورات توزيع العمل العائلي ، والذي فرضته شروط الوسط وعملية الانشاء العقاري .. فالارض المروية عبارة عن مجموعة من "القماسين" (مفرد :ـ قمسون) ؛ وهذا الاسم ينتشر في قرية عسلة التي نحن بصدد دراستها ، والذي يرتبط بالنظام "العرفي" أكثر من ارتباطه بالنظام "الشرعي" (الفقهي).. فتقسيم "القماسين" يرتبط بالعلاقات العائلية الموسعة ؛ فقد يوءجر "القمسون" أو يكترى الى غير ذلك ... (وهنا قد يستعمل بعض سكان "القصر" أحد "البدو الفقراء" الذين اتقنوا الزراعة تحت ضغط الظروف ، وذلك وفق عقد عرفي) .. ويشير "معروف" أن القمسون (الذي هو مربع مروي) لايحدد بمجال معين ، ولكن بالطاقة التي يوفرها للبذر * (1) ، وهذا مايجعل العقد "العرفي" يخضع لنظام عقلاني وموضوعي .

ملحقات النشاط الزراعي :ـ

من بين الموارد التي توفر دخلا محترما لسكان "القصر" تربية البقر ؛ ورعيها ؛ ونحن نعرف في القصر عددا من الاسر تعتني بتربية البقر ، وكأنها تريد منافسة "البدو" الذين يهتمون بتربية الغنم والماعز .. لكن منتجاتها من الحليب

---

(1) N.MAAROUF:- " Lécture de l'Espace OASIIEN " ..op.citée PP138-148.

ومشتقاته (زبدة ، جبن ... الخ) توجه غالبا للاستهلاك الذاتي .. كما أن تربية "البقر" لاتتطلب الترحال والتنقل والبحث عن الكلأ ، وانما على العكس من ذلك تتطلب الاستقرار .. وفي حوش "القصوري" نجد مكانا يستعمل كحظيرة للبقرة يوفر لها العلف فيها .

أما مسألة "الشرب" ، والتي يطلق عليها محليا "بالراوية" فتجمع عدة بقرات من منازل مختلفة يقودها أحد الاطفال أو الرجال ، ويذهب بها الى منبع الماء للارتواء في وقت "الضاحية" ثم يعود بها ، وهذه العادة ممارسة حتى بالنسبة لرعي الاغنام والماعز .

بخصوص النشاط الحرفي :— يستعمل سعف النخيل والدريس الذى يعوض الحلفاء لصنع مختلف الادوات المنزلية مثل الأطباق السعفية ، والقفف ، وكذا الحبال ، يستهلك أغلبها محليا في القصر ، أو قد يهدى قسم منها الى الاصدقاء "البدو" . فكل دار من ديار سكان "القصر" قادرة على اتمام هذا العمل الحرفي — وبالاضافة الى ذلك تبدو صناعة "الزرابي" و"الافرشة" ذات مكانة مرموقة في القرية ، فكثيرا مانسمع النساء على "القصوريات" لانهن يجدن صناعة الزرابي والافرشة التي تأخذ طابعا محليا . ولانستثني هنا البدويات القاطنات اللائي أصبحن يتقن حياكة "الزرابي" أيضا ، بل من مضرب الامثال لكل فتاة تقدم على الزواج ، وذلك بقول الام لابنتها :— "أنظرى ماتصنعه قرينتك بيديها" ، وبالاضافة لهاته الحرفة التي تبدو عليها أشكال ورسوم ورموز مختلفة يوضح دلالتها الخطيبي * (1) .

---

* (1) أنظر :— عبدالكبير الخطيبي :— "الاسم العربي الجريح" دار العودة — بيروت — 1980 .

فانهن يقمن بحرفة الخياطة والحياكة . "فالبرانيس" و"الجلابة" (نوع من اللباس الشتوى يحفظ كل أطراف الجسم من البرد ابتداء بالرأس الى غاية القدمين) هما الانتاج الشائع في المنطقة . وتبرز مهارة القصوريات في النسيج والحياكة بل يتفوقن على البدويات من ناحية الاتقان والاناقة ، لذلك يشترى البدو منهن هذه المنتوجات بالسعر الذى يقترحنه .

وعلى عكس الأواني الخزفية ، والتي تصنع من سعف النخيل ، التي تهدى أو تستهلك ذاتيا ، فان الافرشة والزرابي والبرانيس تسوق مباشرة الى الاشخاص المعنيين أو تذهب للأسواق القريبة (عين الصفراء ، المشرية) .. لكن مازالت وسائل الحياكة والنسيج تقليدية ، وذات نمط "عائلي" ، حيث لم تصبح ذات أهمية وطنية أو حتى جهوية من خلال ضيق عملية التبادل ، بفعل منافسة انتاج الزرابي والافرشة "للبيض" * (1) التي يصل صداها حتى المدن الساحلية (الجزائر ، وهران ..) . وذلك لتطور الانتاج وازدهاره بفعل المؤسسات الاقتصادية التي إنشئت خصيصا للنشاط الحرفي .. ولاتوجد في المنطقة أى مؤسسة حرفية وطنية تأخذ هذا النشاط على عاتقها .. وحتى اذا كانت الارادة حسنة ، فلابد من توفير يد عاملة نسوية . فسكان "القصر" وحتى "البدو" لا يقبلون بدفع بناتهم في هاته المؤسسة الا مقابل ضمانات أكيدة تستجيب للأخلاق البدوية والقروية .. ولا ينبغي الوقوع في خطأ المماثلة وتقديم "حجة" منطقة "البيض" التي شهدت اقبالا كبيرا . وأصبحت تتمتع بوسائل حديثة . وذلك للمرونة الكبيرة للنشاط النسوى هناك .. وكثيرا مايفاجأ المستهلك في الشمال بالسعر

---

* (1) ويبدو أن شهرة "آفلو" تفوق شهرة البيض من ناحية "الافرشة الحمراء" .

المرتفع لهذا المنتوج الحرفي وخاصة في المدن الساحلية ، ونسي بأن "القصور" تعاني من عجز في ميزانها التجاري ، وذلك لانهم يشترون أكثر مما يبيعون ، وحتى تبادلهم مع "البدو" يعتبر "غير عادل" ، فالمجموعات التجارية والقبائل البدوية هي التي تفرض نظام المعادلة بين المنتوجات المتبادلة * (1).

والنقود نفسها لم تحفظ التبادل في "التوازن التجاري" من خطر المضاربة ، وخاصة بعد الاحتلال الاستعماري الذى أخل بالتوازن "النقدى" بادخاله لعملته محل العملة الاصلية .

هناك أيضا ، أسباب إخرى ، ترجع الى ارتفاع كلفة النقل ، والمدة الزمنية التي يستغرقها المنتوج (بالسنة ، أو بالاشهر ، وغير ذلك من العوامل التي لم نحددها بعد ...

تمايز اجتماعي من خلال الاعتبار الاجتماعي :-

لقد تحدثنا سابقا ، عن الاعتبار الاجتماعي لكل من البدوى - المرتحل أو نصف - البدو) ("المرابط" :- شريف النسب) ، والقصورى الذى يتميز بعدم صفائه العرقي ، أو عدم إنتمائه لاصل معروف .

وأوضحنا أن عائلات "القصورية" في عسلة لاتنتمي الى جد واحد ، بالاضافة الى أنه "زناتي" - بربرى - لذا ، فهذه هي قاعدة التمايز الاجتماعي بين "البدو" و"القصورية " - وأنواع التمايز كثيرة لايمكن حصرها - منها التمايز في المكانة ، و في اللغة المستعملة ، وفي الرتبة "السياسية" وفي النشاط الاقتصادى الممارس .. الخ .

---

(1) N.MAAROUF:- " Lécture de l'Espace OASIEN " ..op.citée P157.

البدوى كما نعرف ، يحتقر النشاط الفلاحي لسكان القصور، ويعتبره عملا حقيرا لاقيمة له : وقد اوردنا في أطروحة سابقة * (1) الحديث المنسوب للرسول — ص — حينما رأى "سكة" بدار أحد الأنصار ، فقال :— "مادخلت هذه دار أحد ، الا ذل صاحبها " ، وقد ذكرنا كيف يتندر البدو — القاطنين على "القصورى" حين يرونه حاملا المجرفة والفأس .. فهو ، اذن ، احتقار للنشاط الزراعي برمته بآعتباره يورث الإذلال والخضوع.. بينما يعتبرون النشاط الرعوى جدير بالاهتمام ، نظرا للكسب الذى يأخذه صاحبه لقاء تربية الاغنام ، ولانه عمل شريف لايورث الهيمنة ، ولكن هذا يرتبط بوفرة عدد الاغنام ، و"لامحدودية" القطيع.. بينما "الراعي" يعاني أيضا من سوء تقدير إجتماعي ، وتنسب الاعمال السيئة ، وسوء التصرف اليه أيضا :— "انه يتصرف كالراعي" .. لكن للراعي "المجدوبي" أن يخير مستأجره متى شاء ، وله بعض الحقوق عليه في لباسه ومعاشه وسكناه (فالآجر يوفر له عشة له ولزوجته ولأطفاله) .. كذلك فان مكانة "القصورى" في نظر "البدوى" منخفضة ، فيقول مثلا :— " هذا قصورى" لايصلح أن يكون كذا ، وكذا .." ، أى ان مكانته حسب العرف "القبلي" لابد أن تكون في ادنى السلم الاجتماعي . وهنا تتناقض الرغبة بالواقع ، فالآن نظرا للتغيرات التي شهدتها "القصور" نلاحظ ان "القصورى" أصبح يتمتع بمكانة اجتماعية وافية يحسد عليها من طرف البدوى .. ولان "القصورى" عانى كثيرا من الهيمنة والتمايز ، فانه يعالج بدبلوماسية مشاكل البدوى الذى يخضع له دون أن يشعر ..

---

* (1) أنظر: عبد العزيز راس مال : "الهجرة الداخلية ونظرية الحراك الاجتماعي" دبلوم الدراسات المعمقة جامعة الجزائر 80/1981.

وهذا ما يفسر لجوء البدو الى سكان "القصر" حين يرغبون في اقامة تحالف أو في تحقيق مصلحة ، في المجال السياسي ، كانت أغلب الوظائف البلدية محرمة على "القصوري" ، حين كانت "الجماعة" تحكم قريبة عسلة ، بينما أصبحت الآن ، الوظائف الادارية موزعة على أبناء سكان "القصر" ، وذلك لنشاطهم ، ومتابعة بعضهم للتعليم ، والتحالف السياسي الذى سيوضح فيما بعد :- قلب الموازين ، ففي القديم حسب بعض المخبرين لم يكن هناك تحالف بين "القصوري" و"المجدوبي" ، باعتبار الأول مبعد أصلا من النشاط السياسي ، وخاصة حين يكون نزاع قبلي أو عشائري أو بين الطوائف ، لكن يلاحظ الآن أن المجدوبي يحالف القصوري اذا رأى مصلحة سياسية أكيدة يجنيها من هذا التحالف والانتخابات السياسية من حزبية وبلدية أحسن دليل .

كذلك يبدو أن "الشلحة" (لهجة سكان "القصر") ذات اعتبار اجتماعي متدني .. ففي جمع يضم "المجادبة" ، وسكان "القصر" ، يجبر القصوري على التحدث بالعربية الدارجة ، ولا يسمح له بالتحدث بلهجته الا في اطار ضيق ، وهو اطار عائلته ، أو أصدقائه "الشلح" حين يكون مجتمعا بهم .. و"القصوري" لا يشعر بها كضغط أو اجبار ، بل يعتبرها من قبيل العرف الاجتماعي ، ومن قبيل حسن التصرف تجاه "المجدوبي" أو البدوي على العموم .

وحتى حين يستعمل "المجدوبي" بعض الكلمات البربرية ، فانه يستعملها على سبيل النكتة والفكاهة ، لا على سبيل تأدية غرض معين أو مصلحة ، والملاحظ أن عددا قليلا من المجادبة يحسنون "الشلحة" نطقا ومعنى ، ويتحدثون مع القصورية بها ، واذا كنا

.../...

نلاحظ في الواقع اليومي في العاصمة ، وبلاد القبائل ، أن "البربرية" تعبير عن "الانا المستقل" ؟ وأنها "مركب تفوق" يحاول بعض سكان "القبائل" الظهورية امام الاخرين .. فان "ساكني القصر" يعتبرون أن التحدث باللهجة (الشلحية) هو "مركب نقص" تجاه البدو المجاورين لهم ، فهم يستعملون "اللهجة العربية ـ الجزائرية" كأداة للتخاطب في أغلب أحوالهم مع "اللكنة" التي يشتهرون بها ، عدا الحالات المستثناة التي ذكرناها .

نشأت أيضا منذ القديم ، بين سكان "القصر" ، والبدو علاقات أسرية ، لكنها في أغلب الأحيان احادية ، "فالقصوري" لا يمكن له أن يتزوج "المجدوبية" ، واذا حدث ذلك فهو خرق للعرف القبلي ، وتهبط المكانة الاجتماعية لاسرتها ، وذلك لعلاقة "الشرف والنسب ، والمكانة" التي تجمعها بقبيلتها وعرشها من جهة ، وللمكانة الدينية و "العرقية" التي تحظى بها القبيلة من جهة أخرى.

بينما يمكن "للمجدوبي" أن يتزوج "القصورية" مثلما هي حالة "الشريف" الذى يمكن له أن يتزوج "المجدوبية" بينما العكس ليس بصحيح .. وهذا لا يؤدى الى تقهقر مكانة "المجدوبي" الاجتماعية ، بينما يؤدى ذلك الى زيادة اعتبار القصورية التي تتزوج المجدوبي ، مثل زيادة اعتبار "المجدوبية" التي تتزوج "الشريف" ـ ولا ننسى أن المرأة لها وضعها في المجتمع "الابوى" الذى يقدس الرجل ويعطيه المكانة الاولى .

البـــــاب الثانـــــــــي

.../...

1) - طبيعة السلطة المحلية:-

بعد الاستقلال ، ووسط جو حماسي أنشئت "البلدية"، وعرف معظم سكان القرية ، والبدو الخدمات التي يمكن للبلدية تأديتها ، والمساعدات النافعة التي تأخذها من الدولة لتحقيق الاغراض العامة .

اهم حدث تشهده القرية هو الانتخابات البلدية ، حيث يأخذ التناحر بين الشرائح بعدا لم يسبق له مثيل ". وينتخب المجلس البلدى بالتزكية عقب الاتفاق بين الشرائح تتقاسم بموجبه "السلطة" :- يختار رئيس البلدية من الشريحة الاقوى عددا ، وتتقاسم الشرائح الاخرى بقية المقاعد :- فقوة كل شريحة ترتبط بعدد عائلاتها ، وشدة تماسكها مثلا شريحة أولاد سيدى محمد بلغ عدد عائلاتها "70 عائلة" ". ويليها "أولاد الحسين 66 عائلة .. الخ (1968) .

حسب وثيقة فرنسية * (1) ، فان قوة القبيلة أو ضعفها، يرتبط بالمتغيرات السياسية في السلطة الحاكمة سواء في عهد الاحتلال أو بعده - فهي تبين "المؤامرات" التي كانت تحكيها هذه القبيلة ضد السلطة الفرنسية ، ويعترف محور التقرير بدبلوماسية هؤلاء في مواجهة أى قرار يصدره الحاكم العام ، وبالأساليب التي يستطيعون بها ابطال مفعوله وخاصة بعد اصدار مراسيم تتأرجح بين ضم القبيلة الى عين الصفراء أو البيض .

ويشير نفس التقرير ، أن هؤلاء لا يقبلون حاكما الا منهم ينتمي للقبيلة ، أو على الأقل الاتحادية أولاد سيدى الشيخ مع بعض التحفظ !! لكن حتى تولية القياد منهم لا تخلو من بعض

---

(1) l'Officier Interpréte,-Bunioselly:- Rapport sur la tribu des Ouled Sidi Ahmed El Me[...] Ecrit a Ain Sefra le 21/09/1917.

"المؤامرات" التي كانت تحكيها الشريحة الاكثر قوة "أولاد سيدى محمد" عن طريق مايسمى "الصف" ، اى بالتحالف مع "أولاد أحمد بن بولنسوار" .

في الخلاصة ، يوضح أنهم لايريدون الالتحاق بأى سلطة ، وأن أغلبيتهم فقراء يحبون المسالمة ، ولا يحبون الاجبار . ويحبذون الانتماء الى السلطة الجديدة ، لكي يتحركوا أكثر :– (حين كانوا في البيض كانوا يحبذون عين الصفراء وحين أصبحوا تحت "ادارة" عين الصفراء ، طالبوا بالرجوع الى البيض) ، ولاحظ بانهم يهتمون "بالقيادة" (السلطة) لدرجة المبالغة ، وهذا ما أدى الى صراع مفتوح بينهم وبين السلطة الفرنسية .

وحسب أحد المخبرين * (1) ، فان هذه السلطة لم تخرج عن شريحة "أولاد سيدى محمد" ، الا في حالات قليلة ، وهذه الشريحة كانت ذات نفوذ قبل الاحتلال . وذلك لشرف نسبها ، وكان منهم أصحاب الجاه . والاشخاص الذين يحسنون الفصل في القضايا التي تعرض للبدو في حلهم وترحالهم ، وأمتازوا أيضا بمكانة أقتصادية مرموقة بين الشرائح الأخرى ، ولم يكن هذا كافيا ، بل ان أغلبية الاشخاص الذين كانوا يقومون بحسن ضيافة "القياد" ، والبشاغوات " من هذه الشريحة ... وحتى اذا ولي أحد "القياد" من شريحة أخرى ، فانه يحذر من المس بالمصالح الحيوية لهاته الشريحة . وان فعل ذلك فان الزعامة تنزع عنه بالطريقة الدبلوماسية .

---

* (1) ر. عبدالرحمن :– تاجر بالبلدية . وعضو سابق في المجلس البلدى .

اذن ، فالنسق السياسي في هذا المجتمع المحلي يرتبط بالاعتبار الاجتماعي لماله من قوة فعالة لايمكن تصورها في ترتيب الأشخاص وتمايزهم داخل "الضمير الجمعي" ـ حسب تعبير "دور كهايم" ـ ، والعلاقات الاجتماعية والأحلاف دقيقة جدا لدرجة أن الباحث يعتقد أن هذا النسق متطور جدا ، حتى عن بعض المناطق الحضرية ، فالدعاية هي المصدر الأساسي لحراك الاشخاص فمن كان أكثر تأثيرا على أصوات الناخبين هو ذاك الذى يقيم الولائم الكثيرة ، والذى يجمع حوله عددا من الاشخاص الذين يقومون بالدعاية ، وشراء الأصوات ، كما هو معمول في كثير من البلديات الريفية أو حتى الحضرية ـ هو الذى ينتخب كرئيس بلدية ، أو عضو في لجنة البلدية ، أو في القسمة الخ .

فالاعتبار الاجتماعي ، والمكانة الاجتماعية المرتبطة بالنسق السلالي أو دخل الشخص (قوته المالية) ، هي التي تبوءه احتلال منصب سياسي في المصالح الادارية أو تكون مؤشرا أساسيا أثناء اقدامه على الانتخابات البلدية ، وقد تكون هناك مؤشرات أخرى مثل "السن" (أن يكون كهلا متزن عقليا) أو بعض السمات الشخصية التي يتمتع بها (كأن يكون نافذ الكلمة ، يمتاز بمواقف شجاعة وجريئة ... الخ) * (1) .

1) ـ الانتخابات البلدية :ـ

ككل القرى الجزائرية ، فان الانتخابات البلدية تكتسي طابعا خاصا ، تجند لها الأموال والرجال ، وفي هذه القرية ، كالقرية اللبنانية أيضا * (2) ـ سرعان ماتظهر الانقسامات العائلية الدفينة .

---

* (1) م. برحلة موظف بالديوان الوطني للتجارة .

* (2) علي زيعور :ـ "الدراسة النفسية ..." مرجع مذكور ص 80 ـ 81 .

بفعل الزمن .. والانغماس في أمور الحياة أو لتحسين الوضعية الاقتصادية والمعيشية ... ثم ماتلبث أن تظهر الخصومات الدفينة ، التي تصبح متأججة حين تستأثر الفئة الاكثر تمثيلا ـ في حالتنا شريحة "أولاد سيدى محمد" ـ في المجلس البلدى بالامور الهامة .. وأسباب الصراع تعود الى تصادم بعض المصالح بين الشرائح المتنافسة ؛ لتحيز الفئة المتسلطة أو لاستبدادها ، ولوعي الفئة الاضعف بحقها التي ترى عن قرب بأن مصالحها منهكة ، ولشعورها بأن الخدمات تتولاها الفئة المهيمنة .

نجد في أطروحة جامعية * (1) ، أن الفئة التي تعتقد بأن الانتخابات البلدية ليست نزيهة : مهمة ـ مع أن الباحث لم يشر اليها ـ وتقترب من ثلث العينة ، ولهذا دلالة سوسيولوجية بالغة التأثير ؛ وهي أن "الدعاية" و "التحالفات"، وشراء أصوات الناخبين ؛ تضطر المبحوثين للادلاء بهذا الرأى، دون الجرأة على التصريح بهاته الاسرار .

عدم النزاهة هذا ، هو الواجهة التي تقدمها الاطراف المتصارعة في كل انتخاب بلدي ، وهذا الصراع المستمر يشمل فيما بعد كل الانجازات ، التي كان يريد المجلس البلدى أن يتولاها ، ويتحيز كل فريق الى تنفيذ مشاريع تهمه .. والاستقالات التي تتبع هذه الصراعات والنزاعات كثيرة لدرجة لايمكن حصرها ، فنلاحظ أن بعض أعضاء المجلس البلدى يستقيلون أو يهددون بالاستقالة لمجرد تولية رئيس بلدية لايرغبون فيه .. وانهيار الاسلوب

---

* (1) عبدالحميد بوقصاص :ـ " بحث في دور البلدية في التخطيط والتنمية الاجتماعية أطروحة جامعية ، معهد العلوم الاجتماعية 1983/1982 ص 125.

الديمقراطي ينجم عن تصادم المصالح ، والخرق في "السفاسف" القرويةالصغيرة * (1) ، وهذه "السفاسف" في المنطقة المبحوثة كثيرة .. عن :— لماذا يولي ذاك ؟ ولم يسترك هذا لذاك ؟ ولماذا يعمل هذا ولا يعمل ذاك ؟ .. الخ ، مما هو معهود في بلديتنا .. وقد ذكرنا في موضع سابق أن النكتة حاضرة لدى البدو ، أو التهكم على حد سواء ، فيعلق على شخص معين بأنه لا يصلح للادارة ، ولا يفهم في شؤون البلدية ، أو أنه جاهل متجرف.. فمثلا لاحظنا أن مكتب الانتخاب لسنة 1980 ، يتكون أعضاؤه من مربي الماشية والتجار ، وامرأة لاستقبال النساء المنتخبات.. وهذا كان مصدر نكت لاذعة ، وأخبار تتداولها الألسنة .

لكن رغم هذا ، فإن البلدية أصبحت اطارا للديمقراطية ، والاهتمام بالشؤون العامة للقرية ، رغم الحزازات السابقة .. فهي تقوم بالتوعية الديمقراطية أو هي في حد ذاتها نواة الديمقراطية المحلية : فهذه الانتخابات البلدية تعلم المواطن ، حقوق المواطنة ، وتقوم بصقل وعيه السياسي الذى يتأثر بالحرية والقيم السياسية .. وعملية الاستشارة لا تخلو من فائدة ، وهي مقتبسة من الفكر الاسلامي ، نجد في القرآن الكريم قوله تعالى :— " وأمرهم شورى بينهم "..

أما الدخول الى عالم هذه القرية ، من الناحية المعرفية يتم من باب التغالب بين الشرائح ، ويستمر الصراع لفترة طويلة قبل الانتخابات وبعدها .. وهذا الصراع يأخذ طابعا علنيا في أحيان قليلة ، ومستترا في أغلب الأحيان .

---

* (1) أنظر علي زيعور:— "الدراسة النفسية .." مرجع مذكور ص 81 .

ولكي يظهر على السطح لابد من باعث يثير الحساسيات ، ويوثر الاعصاب ، ومن ثم يبدأ الصراع الكلامي الذى يصبح دعامة أكيدة للنجاح السياسي ، تجند الحملات الانتخابية أيضا ، الوقت ، و"المال" ، و"الهدايا" ، وشراء الاصوات ، وكثيرا مانعتقد أننا أمام أنتخابات نيابية في احدى الدول المتقدمة ، أو أمام أنتخابات رئاسية بمعنى الكلمة ، فتجنيد الوقت للمنتخب يأخذ صورا متعددة ، فتعقد الاجتماعات ، والندوات ، والمشاورات لتغليب "فلان" و"آل فلان" ، والقضاء المبرم على "الاعداء" ودس الجواسيس في وسط المنافسين لالتقاط الاخبار ، وحبك المؤامرات. الخ ، مما يصبح "شرعيا" في الانتخاب ، وتكثر المساعي والوسطات لدى الشرائح من طرف الاحلاف ، والأطراف المتنافسة .

اذن ، حين تقترب الانتخابات أو الاحداث السياسية الهامة تقوم كل شريحة على لسان أحد أصفيائها بذكر مآثرها ، وتاريخها ، وأبطالها ، وزعمائها السياسيين وشيوخها الذين يمتازون بسداد الرأى ، وفصل الخطاب ، وتتفاخر الشريحة بهم في كل مناسبة بينما تذم الشريحة المنافسة وتسفه آراءها ، وتحط من شجرتها (نسبها) ، اذا أشيع عن أجدادها شيئا ما ، وتلصق بها بعض الصفات المذمومة قصد اهانتها أو جرح كرامتها .. والزعيم السياسي يستغل كل هذه الوقائع ، ويتبنى موقف شريحته ، ويدافع عن آله في كل مشاحنة مع الآل المنافس وهو بمثابة "المثال" الذى يحتذى به ، ويرفع الى مستوى معين من الاعتبار الاجتماعي يجعله نافذا داخل نفسية أنصاره .

.../...

2) الخدمات البلديـة :ـ

لامجال هنا لذكر بعض الخدمات التي تقوم بها البلديـة ، أو تلك التي توجد في المخطط البلدى :ـ خدمات البناء ، تعبيد الطرقات ، الديوان الوطني للتجارة ، التعاونيات المتعددة الخدمات ، المدرسة الداخلية ، المراكز الصحية ، أستصلاح الحمام المعدني (عين ورقلة) وبعض المشاريع الأخرى التي خططتها البلدية ، لكنها لم تنفذ لغاية الآن لأسباب معقدة ، مالية ، ادارية ، تشريعية ... الخ .

اذن ، فالبلدية ، مكان أستشارة محلية عند تنفيذ المشاريع فرئيس البلدية يقوم بجمع الأعضاء و ويعرض عليهم المشاريع للموافقة عليها ، ويقوم بأستشارة المجلس البلدى ، ولا يهم أن تكون هذه المشورة في بناية البلدية أو في مكان آخر .. أثناء مأدبة غذاء أو عشاء أو غير ذلك .. فلا بد من فصل المشاكل مع مواطني القرية ، ولكن يشترط تمتعهم ببعض الخصائص التي تجعل مشورتهم ذات فائدة ، وبذلك فأن تنمية وتطوير البلدية يبدأ من القاعدة ، وهنا أصبحت السلطة البلدية مختلفة عن تلك التي كانت قائمة في عهد الاحتلال الفرنسي . كذلك أخرجت البلدية من العزلة ، فأصبح البدوى وساكن القصر يهتم بالقوانين ومقررات وزارة الداخلية ، وهذا ماكسر الانعزال والفردية التي كانت سمة من سماتها .

وأصبحت البلدية هي الوسيلة المباشرة لطرح القضايا الحيوية والمشاكل التي تهم القرية ، وكذا الشكاوى التي يقدمها المواطنون ، بعد أن كان هذا المواطن يتملق للنائب العام ، أو "للقايمقد" الذى يشرف على تسيير أمور القبيلة أو العرش — وأصبحت بعض السلطات التي كانت تخيف البدوى ضعيفة التأثير مثل "الشفير" — Garde Champêtre — ، والدرك الذى لا يتدخل الا في حالات استثنائية مثل حدوث جريمة خطيرة ، أو تناحر قبلي سافر — وأصبحت المشاريع تخضع للتداول ، أى لتصويت الأعضاء ، وهذا أدى الى الغاء الانتظار الدائم للدولة أو للنواب لتحقيق اصلاحات بسيطة في مقدور القرية القيام بها ، وتخصيص جزء من الميزانية لها .. وخفت تلك التبعية التي تصل الى مرحلة التقديس لذوى النفوذ والسطوة من خارج البلدية عند تنفيذ أى مشروع مهما كان صغيرا داخل القرية .

كان أعضاء المجلس البلدى في أغلب الأحيان من مربي الماشية أو التجار أو غير ذلك .. وهذا جعلهم يتجهون الى مشاريع ذات صبغة محدودة ، أو ملحقاتها ، ولم يؤهلهم مستواهم الثقافي لتحمل الأعباء الادارية والقانونية للمشاريع المبرمجة ، عوضوا ذلك بتجربتهم الخاصة ، ومعرفتهم بشؤون القرية وحاجاتها الأولية .. لكن تولي بعض الشباب المتعلمين الذين تجاوزوا مرحلة التعليم المتوسط (شهادة الأهلية) شؤون البلدية أخيرا طبقا للسياسة الحكومية الأخيرة ، جعل مشاكل البلدية تتجه نحو الحل ، لكنهم لم يخرجوا عن الاطار "التقليدى" للعلاقات القبلية ، وللتحالفات الصريحة ، وغير الصريحة ، واستشارة رجال القرية وشيوخها التقليديين ، بل توليتهم لمناصب حساسة في المجلس البلدى وغير ذلك ... ومشاكل قريتنا مثل القرية "اللبنانية" ، حيث أصبحت كثير

.../...

من السجلات متوفرة في البلدية ، سجلات المحاضر ، وسجل مقررات أعضاء المجلس البلدى ، وسجل للصادرات وسجل للواردات .. الخ ، وهي كثيرة لدرجة لايمكن حصرها لكنها "أسماء كثيرة ، وسجلات عديدة "زرعت في أرض غير مهيأة الى حد كاف *(1).. ومازالت البلدية في وضع مجتمع مبتدئ يسعى لخدمة نفسه عن وعي .

أما شيوخ القرية ، فمازالوا يضطلعون بمسائل الخير العام ، وأنذروا أنفسهم للاهتمام بالمشاكل المتعلقة بالمجموع ، أو بالقرية ككل ازاء القرى الاخرى .. فهم الذين يجمعون المال لانشاء مشروع ما قد يكون "للزاوية" (زاوية "سيدى أحمد المجدوب") ، وكذلك فهم الذين يحسنون الفصل في قضاياها الشائكة ، أو يجمع هذا المال لدفع "دية" (حادث سيارة أو غيره ..) ، أو أى مشروع خيرى آخر ، وحتى هذا النشاط التطوعي يمكن أن يندرج ضمن اطار البلدية ، وذلك لتعود سكان القرية على "الجماعية" لكنه يتحول من نشاط عرفي الى نشاط رسمي وقانوني .. اذن ، فهو خدمة للجماعة القروية وللبدو الرحل على العموم وأخذت السلطة المحلية تأخذ زمام المبادرة في توسيع صلاحياتها ، وتضييق صلاحيات السلطة المركزية ، بناء على المراسيم الواردة من هاته السلطة نفسها .. وهذا ماحدى بالباحث "بوقصاص" أن يقول :ـ

"ـ واذا نظرنا الى البلديات الجنوبية نجدها لاتعاني من الفقر والمشاكل الاقتصادية ، والاجتماعية فحسب ، بل أكثر من ذلك تعاني من عدم وجود الاطار الملائم العارف لطبيعة الرحل (..) ولهذا فان معاملة البلديات (..) بمستوى واحد يؤدى اذا لم يتدارك

---

* (1) انظر علي زيعور:ـ "الدراسة النفسية.." مرجع مذكور ص 83.

الى انعكاسات خطيرة (..) (فنجد) في البلدية الرعوية أو الريفية أن تدخل الهيئات صاحبة الوصاية لايمثل الا 20.40 % في حين يصل في (البلديات) الحضرية الى 39.74% * (1) .

عندما أنشئت البلديات بعد الاستقلال ، سيطر على تسييرها الحماس ، والعمل الارتجالي ، لكن بعد مدة خبا هذا الحماس ليترك المكان لتلك الحساسيات والعصبيات التي تحركها المصالح الحيوية للشرائح ، مع نوع من التنظيم .. وهذا ماترك الفرصة للمتسلطين داخل القرية أن ينفذوا مخططاتهم ، وللفئة المحظوظة من الخارج لكي تشمل بعض المشاريع .

واذا كانت المصالح القبلية وذهنية "الصف" تعارض أى اجراء ديمقراطي ، فلابد من التنبيه أنه لايمكن القيام بأى تنمية مادامت الديمقراطية غائبة والحس الوطني ضعيف ، والسلطة تحت تأثير فئة لاتراعي الا مصالحها . الانانية ، وتعادى تحرر الجماعة في القرية * (2) .

اذن ، فالبلدية ترتبط وتتفاعل مع الظواهر الاجتماعية ، فقد أثر انشاؤها على التطور والتنمية المزمعة في المنطقة ، وبرزت الى جانب العلاقات التقليدية علاقات جديدة تيسر شؤون المواطن وتخدمه ، وأخذت تجتث جذور العزلة والفردية ، لذلك لابد من صقلها ، وتخليصها من الجرح الحضارى ، واحيائها في اطار صحة حضارية .. "وتعتبر قراءة النسيج البلدى ، ذلك "المستحضر" للتعرف على المجتمع ، قراءة لانسان ذى درجة ما من الوعي ، وفي مجتمع نام ذى طموحات وانجراحات * (3) .

---

* (2) أنظر علي زيعور — الدراسة النفسية — مرجع سابق ص.87 .
* (3) نفس المرجع ص.88 .
* (1) عبدالحميد بوقصاص :— "بحث في دور البلدية ..." أطروحة مذكورة ص.80 .

.../...

البلديـة انعكـاس للمجتمـع العام ، بايجابياتـه وسلبياتـه ، مـن حـيث عـقده ، ودور فئاتـه ، فالايجابياتـه تتمـثل فـي روح التضامـن والتعـاون ، والفضائـل الأخلاقيـة .. وفـي جانبـه السلـبي الفتور، والكسل، والتواكـل ، والبـطء فـي انجـاز المشاريـع ، والقصـور فـي الأداء ، ومتابعـة المصالـح النفعيـة للفئـة الطفيليـة ، والتباهـي والتظاهـر بالألقـاب البلديـة مثلا ، والتغـني بما سيجـرى وسينفـذ ، وهـذا مايلاحـظ فـي كـثير من المـآدب أو الحفـلات حـيث يقـوم شيـخ البلديـة مثـلا أو كاتبـه العام بالتغـني بالانجـازات ، والتفاخـر بهـا ، وكأن من سبقـه لم يقـدم شيئـا ، أو كأنـه لن يترك لمن سيتبعـه أي عـمل يقوم به .. وكأن الانجـازات هـبة قدمـت للمواطـن ، أو كأن ذلك من قبيـل المبادرات الشخصيـة مـع أننـا نعـرف بأن المبـادرة تخـرج عـن اطار الواجـب علـيه وتنفيـذه .

السلطة المحلية بين الموروث والجديد :ـ

ـ هذا بالفعـل ، مايمـيز السلطـة المحليـة ، وهـو الصـراع المستمـر بـين الموروث والجديـد ، الموروث هـو التناحـر بين الشرائح ، هـو التغالـب بـين الفئـات المكونـة للسكـان ، هـو جملـة القيـم والمعتقـدات السائـدة ، وهـو أيضـا سلطـة الشيـوخ (شيـوخ القريـة) ، وهـو الـتراث البـدوى والقـروى وكل مايحملـه من ايجابيـات ومعيقـات .. "فالتعامـل القبلـي يعتمـد أساسـا عـلى النظـام القبلـي ، وممارسـة الرئيـس أو القائـد لسلطـة المجتمـع القبلـي أو العشائـرى تتبـع نفـس نموذج رب العشـيرة " * (1) والجديـد هـو السلطـة البلديـة بكـل ماتحملـه من قيـم جديـدة ترتبـط بنصـوص تشريعيـة ومراسيـم

* (1) د /خليل أحمد خليل :ـ "الحرب والقيادة" دار الحداثة بيروت1981/ ص 131.

وقرارات تنظيمية ، وتفكك الترابط والتحالف العشائرى ، وترك المجال للمصالح الحيوية للفئات المتنافسة (خاصة المصالح الاقتصادية) وتفشى الروح الأنانية ، والتصدع العائلي ... الخ .

ويلاحظ "مور" MOORE فيما يخص المجتمعات العربية على العموم ، أن المصالح الاجتماعية ليست منظمة بصفة مستقلة ، ولكن المصالح الحيوية ذات التأثير المهم هي مصالح الجماعات "العرقية" ، و"الدينية" * (1).

اذن ، فقريتنا مثل القرى الجزائرية تتميز بالصراع بين الشرائح القبلية ، بأعتبار النزاع بين القبائل وارد أصلا . لكن مصالح الجماعة العرقية المتميزة (شريحة "أولاد سيدى محمد" مثلا) ... والجماعة الدينية التي بيدها مفاتيح الزاوية .

فكل الثقافة السياسية تتغذى من الموروث من قيم وأعرافه وعادات ، مثل الولاء للقبيلة ، أو الشريحة ، أو "الآل" . وهذا مايسميه "زيعور" بالعصبية الآلية * (2) ، هناك قيم أخرى ترتبط "بالموروث" ، لكنها في نفس الوقت تحقق مصلحة السلطة ، والولاء لها ، وتمكن "القائد" ، من التحكم في الآخرين ، والسيطرة عليهم وهي الفضائل الأخلاقية من مروءة وشهامة ، ونجدة ، وكرم ، وحسن الضيافة .. لكن ينبغي أن نوضح بأن السلطة أو الشخصية السلطوية تفترض أجتماع هاته المتناقضات ، وهذه القيم التي تنسجم كلها مع "الموروث" ..

هذه القبيلة كبعض الشعوب السامية تعطي أهمية معتبرة للجانب "السياسي" الذى مازال تأثيره حاسما على صعيد الحياة اليومية . فالبدوى مازال شديد الالتصاق بالسلطة ، ومازال يفكر

---

* أنظر (1) M.CAMAU :- "Pouvoirs et Institutions au Maghreb" Coll/ HORIZON Maghreb - TUNIS- 1976. P 186.

(2) أنظر علي زيعور :- " الدراسة النفسية ...." ص93 .

ويخطط ويتصرف تبعا للمتغيرات التي تطرأ على السلطة المحلية.. فهذه السلطة ليست حيادية وانما تستمد قوتها من "النحن" ، فكثير من المشاريع ، والوظائف ، والمشكلات العامة التي تولتها الدولة تتحول الى يد العصبيات والشرائح ، وهذا مايغفله المخطط.. فالشخص يذوب في آله ، وشريحته ، وقبيلته ، ولا يستطيع أن يتصور حريته خارج هذا الاطار ، فهو يستعين بآله أو شريحته حتى يصير في مأزق ، وهي التي تقوم بحمايته فعلا ، وهنا يستبعد القانون وتدخل الدولة ، ويتكلم بما تمليه عليه شريحته أو آله ، "فيتحدث بصيغة "النحن" ، وهذه "النحن" هي التي تهيمن على الشخص ، وتوجه تفكيره ، وتقوم باطعامه وكسائه * (1).

ومازالت ذهنية "أبناء العم" متأصلة لدى القروي ، أو البدوي ، فعن طريق هذا الولاء تتم المناصرة سواء كانوا على حق ، أم على خطأ.. أجاب أحد المخبرين عن سؤال :ـ "هل تطمح في تولي رئاسة البلدية ؟ بمايلي :ـ

"انني غير مكترث برئاسة البلدية لعدة عوامل منها أن هذه المهمة ترتبط بفكرة معينة ، "الاغتناء ، وجمع أكبر قدر من المال وراء الحصول على هذا المنصب" وحتى طريقة اختيار رئيس البلدية معروفة ، فترتبط بعلاقته القرابية وبنسبه في القبيلة.. وبالنسبة لي ، فالأحسن أن أنتخب على قريبي أولا ، ثم أنتخب أحدا من شريحتي ثانيا ،.. لانني أعرف أن قضاء مصالحي الحيوية ترتبط به أساسا * (2).

---

* (1) أنظر علي زيعور :ـ "الدراسة النفسية" مرجع سابق ص. 93.
* (2) حديث المخبر "ر. سليمان" مربي ماشية بالقرية الرعوية.

.../...

هذا التراتب الذى وضعه هذا "المخبر" من حيث الولاء، يتطابق مع المثل العربي القائل :ـ "أنا ضد أخي ، أنا وأخي ضد أبناء عمي ، أبناء عمي واخوتي وأنا ضد بقية الناس * (1).

لكن ، كل مجموعة مهيأة لاقامة علاقات تقليدية ، تناحرية لالغاء شريحة تريد أن تصبح قوة مهيمنة ، وذلك بواسطة اللعبة السياسية فتنسحب بسرعة من نظام التحالف ، لكي تعرضها للهزيمة حين تريد الاحلاف أن تضاعف في الاستفادة من النتائج المكتسبة التي يوفرها النظام (المحلي) * (2) .

السلطة الحزبية :ـ تطورت أشكال الصراع بين "الآل" و"الشرائح وأضيف اليها بعد آخر ، هو الصراع "الحزبي" .. فمع أن الحزب الواحد هو المنفذ والمشرع ، الى أن التوجهات السياسية مختلفة .. فقد يبرز التحالف بين شريحة وأخرى ضد أخرى ، أو قد تنسحب شريحة لتضعف الاخرى. أو قد تنقسم "الشريحة الاكبر" الى مجموعات ، لكل منها "انصار" من الشرائح الاخرى طبقا لبرامجها المطروحة ولمفتوحاتها ، ولقدرة تأثيرها على الرأى العام.. وهنا يؤدى الدهاء السياسي ، وحكمة الرئيس ("الامير" عند مكيافيلي") الى صعود فئة الى السلطة أو الهبوط آخرى ـ والامثلة كثيرة في هذا القصر فقد ذكرنا أن بعض البدو ، وانصاف ـ البدو يقيمون تحالفا مع سكان القصر ، "الشلح" ، ويصبح سكان القصر حصان طراودة الذى يلجأ اليه رجل السياسة البدوى حين يريد تحقيق مصلحة سياسية في انتخابات حزبية (القسمة مثلا..) ، ولكن دبلوماسية "القصورى" تتمثل في انه يدفع بالبدوى الى مكانة سياسية مرموقة ويبقى هو في الظل ، لكي يحركه على هواه ، ووفقا للمصلحة الحيوية للطرفين .

---

(1) E.,HARMASSI:- "Etat et société au Magreb Ed/anthrepos FRANCE 1975 P19 .

(2) M..CAMAU:_ Pouvoirs et Institutions - op;citée P183 .

ينقسم الناس تبعا لصراع الأهواء السياسية ، وحسب مصالحهم الحيوية ، يقول تعالى :ـ "وكل حزب بما لديهم فرحون" .. كل فئة تدعي بأنها سوف تنقذ القرية من مشاكلها ، وتوفر الشغل للجميع ، وتدعي بأن مذهبها مقدس ، ويرتفع عن النقائص والخساسة .. لهذا فمشروعها نهائي ، ومكتفي ذاتيا ولا يقبل النقد والتحوير والتغيير وماعداه باطل ، وناقص .. وغير مكتمل .. هكذا ، تحاول السلطة الحزبية فرض نفسها على الآخرين ومنطقها لا يتغير ، وانما هو جامد وجاهز ، ولا يقبل النقاش .

2) ـ السلطة الدينية :ـ

نجد في قريتنا ، وقرى أخرى مشابهة ، أن مكانة شيخ القرية (الذى يدعى : "العالم" ، أو "الطالب") ـ معتبرة ؛ وله المام بعلوم الشريعة والفقهيات والأصول ... الخ ، فمنزلته محترمة يقدره عامة الناس ، وخواصهم ، واذا كان شيخ البلدية ملما ببعض الجوانب الدينية فمعنى ذلك أنه يحوز السلطتين الدينية والسياسية معا .

ان "الطالب" أو "العالم" يتمتع بمكانة أستشارية في الأمور المدنية ، وهنا يؤدى دور المشرع المدني ، ويؤخذ برأيه بناء على فتوى يفتيها وهكذا ، الدور الايجابي الذى يقوم به يعفي السلطات المدنية من اشكالات كثيرة ، لأن أغلب هذه القضايا تكون معقدة بما أن العرف هو الذى أنتجها ، وليس التشريع المدني ؛ لذلك فالقاضي ، أو المشرع لا يجد نصوصا تتفق مع الأعراف القبلية المتواترة من جيل لآخر .

.../...

ان مكانة "الشريف" (المنحدر من الرسول عن طريق "فاطمة") الدينية والاجتماعية لاتضاهيها الا شخصية "العالم" أو "رئيس البلدية".. فحين يمر بجماعة ما ، تقم له محيية تعبيرا عن حسن آدبها ؛ بل ان طريقة السلام تتبع نفس الطريقة التي يحيي بها الشاب الشخص الطاعن في السن دليلا على الاكبار والاحترام ؛ ـ فالشريف يقوم له الشاب ، والشخص المسن عند كل الجماعة .

كذلك يخشى الاشخاص من سخطه ودعائه ، فلا ترتكب أمامه بعض الحماقات ، ولا تساء معاملته ، ولا يكلم بلهجة الند للند ، لأن ذلك سوف يؤدي الى غضبه ودعائه بقطع الارزاق والاولاد ، وبافساد الحرث ... الخ ، من المعتقدات المترسبة في هاته المجتمعات المحلية

3)ـ السلطة التراثية :ـ

يتنازع السلطة الموروث والجديد ، وهو صلب "الازمة" التي تواجهها المجتمعات المحلية ، فهناك قيم حضارية وثقافية عريقة وتقليدية يتناقلها الاحفاد عن الاجداد (منها الاخلاص، والتحقق ، والإمكان وتمثل الكمال) * (1).. وقيم "الحداثة" ليست كلها ايجابية كما يتصورالبعض ؛ فقد أدت الى اختفاء التراحم والتكافل الاجتماعي ، وأصبح كل شخص منغلق على ذاته .. فالموروث يدعو الى الافضل والى التفتح ؛ فالسمة التي كانت تميز "الحربي" ولا أعتقد أنها تميزه حديثا ـ وهو سرعة تكيفه مع الجديد ، الذي يتسجم مع الحضارة التي بناها ؛ فكان يأخذ الاشياء ،

---

* (1) أنظر علي زيعور ـ "الدراسة النفسية .." مرجع سابق ص 101.

.../...

من منظور القوة ، أو من منظور "الصحة" الحضارية".. ينظر تقديما الى ماهو موروث ، ويتبصر الى ماهو "حديث" برؤية الغالب ،لا برؤية المغلوب — وهذا مامكنه من النظر الى الأمام لا الى الوراء ، وحدد دوره في الحضارة ، وشحذ لديه طاقات الاستيعاب *، ومن ثم قدرات الابداع والعطاء .. اذا كانت العلاقات الاجتماعية على بساطتها (صلة الأرحام مثلا ، المحافظة على الجار..) لها دور هام على الصعيد الروحي *، فانها كانت من أواليات السلطة التراثية بل تدعمها ،أما الآن ، فقد أصبحت تتجه نحو التفتت لأن هذه السلطة أصبحت منقسمة على ذاتها بفعل التحديث والتكنولوجيا .. وسوق الفلاح ، والأزوقة ، والديوان الوطني للتجارة .. وهذا ما أدى الى فقدان التوازن المطلوب .." فأغصان كثيرة قد انقطعت ، ولم تستطع التغذى بالنسغ الجديد ، ويبست أخرى لم يغذها النسغ الحضارى الراهن ، وذوت أخرى *، وأخرى همدت وخمدت أو تنتظر مر الأيام القليلة قبل أن تتساقط مستسلمة للتاريخ " * (1) .

4) — الزعامة المحلية :—

تحولت العلاقات التي تربط بين الزعيم المحلي ، من جهة ، وبين البدوى المربي و "القصورى" من جهة أخرى بفعل "البلدية" الى علاقات من شكل آخر ... كان "البدوى" الفقير ، والمربي الصغير ينظر الى "الزعيم المحلي" نظرة المغالب (المغلوب للغالب) ، والاستكانة ، وعدم المعرفة .. يذكر لنا بعض المخبرين ،الطغيان والجور الذى كان يمارسه الزعيم المحلي أو "الجهوى" على البدو الفقراء ..

* (1) أنظر علي زيعور :— "الدراسة النفسية ..." ص . 102 .

.../...

والمآثم والمظالم التي كان يرتكبها بعض "القياد" باسم "الدين" ، و"شرف النسب" ، وغير ذلك وهذا أدى الى ظهور فتور في العلاقات وقبول الأمر الواقع ، لهاته السلطة التي لاتقهر ، والتي تقضي على كل جذوة للشهامة والكرامة والأنفة التي تميز البدوي ـ حتى ولو كان فقيرا .. منذ القديم .. فالمقاومة السلبية أدت الى تبخيس "الذات" ، وفقد الاعتبار ، والاعتماد على السلطة ، وعلى الزعيم المحلي ، وهما وجهان لعملة واحدة .

مع الاستقلال ، وظهور الادارة البلدية ، خف هذا الضغط ، وأصبح الزعيم السياسي (رئيس البلدية) لايتولى كل السلطات التي كانت تخولها له الزعامة التقليدية ، وصاحب ذلك تغير في النظرة الى "القيادة" أو "الزعامة" من طرف العامة ، فالمعلم يعين من طرف الأكاديمية وأصبح تدخل رئيس البلدية محصورا جدا ، والطبيب تعينه وزارة الصحة .. وأصبح رئيس البلدية ملتزم بتنفيذ المشاريع العامة ، تعبيد الطرق ، الاشراف على بناء المدرسة .. كذلك تقلص دوره في الاعلام والمواصلات وذلك لاستخدام الأشخاص "للراديو" (المذياع) ، والهاتف ، والتلفزيون ، كوسائل أتصال أساسية فالبدوي أصبح يتبنع الأخبار بمنتهى الدقة وخاصة الأخبار العالمية ، وتلك التي تمس العالم الاسلامي (المغرب ، ايران ، الشرق الأوسط ... الخ) ، بل تجرى مناقشات على أهم القضايا السياسية ، ويتفوقون في ذلك على من يتتبع الأخبار السياسية في التلفزة * (1)... بل ان الاعلام ساهم من جهة أخرى في الرفع

* (1) حديث ط. بالأخضر: رئيس تعاونية رعوية .

.../...

من التربية التثقيفية لدى البدو الرحل ، ومربي الماشية ذكر أحد المخبرين * (1) ؛ أن المناقشات التي كانت تدور بينه وبين الطلبة المتطوعين ، الذين أتوا الى المنطقة حول أصل تكون الانسان قد أفضت الى مناقشة النظرية الداروينية للتطور ، وساجلوهم بآيات من القرآن الكريم لدحض آرائهم وتسفيههما .

توزعت السلطات الدينية والاقتصادية ، والتربوية ... الخ ، بفعل العوامل السابقة ولم تصبح من اختصاص رئيس البلدية ؛ وغيرت الانتخابات من العلاقات العشائرية والعائلية لدرجة ما ، وأخذت مكانها النصوص القانونية ، والمراسيم ، والمؤسسات الاجتماعية المستحدثة .

وفي اطار السلطات النيابية الجديدة على مستوى الدائرة أو الولاية أخذ الزعيم المحلي في حبك سلسلة من التحالفات ، وتعزيز الروابط مع السلطات النيابية في الدائرة أو الولاية ، وأخذ في انشاء علاقات جديدة بعد أندثار العلاقات القبلية والعشائرية مع السلطة القضائية ، والسلطة التنفيذية ، والسلطة الأمنية ، وهذه العلاقات قوية في البلديات المشابهة أو غير المشابهة .. بواسطة الضيافة ، وتقديم الهدايا ، والوساطة .. الخ .

وبدخول الحزب حلبة الصراع ، فقد تغيرت الأدوار ، ولم تتغير البنية ، " فأصبح الزعيم أو المنفذ السياسي يتمتع بنفس الامتيازات السابقة ، مع انتقال في الكلام ، وليس تغييرا في النسق " * (2) .

---

* (1) المخبر ل. الميلود :- مربي ماشية ، وعضو في المجلس البلدي .
* (2) أنظر علي زيعور - "الدراسة النفسية .." ص 103 .

.../...

السلطة المحلية بين النخبة والائتلاف :ـ

ـ يعرف "ميلز" النخبة بقوله :ـ "تسمى بالنخبة تلك التي تتحكم في القوة التي تسير السلطة والنفوذ في المجتمع* (1) .

في التراث العربي القديم ؛ نجد أن الادارة (السياسية) عند العرب تعتمد على صفتي القوة والشجاعة عند اختيار الرؤساء، وهذا مانجده في المجتمع "المحلي" من خلال المواصفات السابقة .. أختيار الرؤساء يتم من "علية" القوم ؛ والذين يتحلون بأخلاق السادة أو (أبناء الخيام الكبيرة) ، دلالة على شرف ونقاوة الأصل .. والتقسيم السياسي الذى كان يخضع له المجتمع هو:ـ العلية ـ العامة ـ السفلة * (2) .

1) ـ العلية :ـ تمتاز بشرف النسب ؛ لاتهتم بالثروة لانها ليست مقياسا للشرف والسيادة ، كفأى ، لاتستغل النفوذ لمصالحها الانانية ، لها القدرة على الابداع ، لاتخضع للارث الاجتماعي ؛ لاتحمل "الحلم" فقط وانما تستعمله ، تمتاز بصواب الرأى ؛ وخلوص النية ؛ وكتمان السر ، الرئيس أو "القائد" يتصرف تجاه العلية ، بالمحبة ، وتجاه العامة بين الشدة والمرونة ، وتجاه السفلة بالقهر .

2) ـ العامة :ـ أى الاغلبية المتوسطة ؛ متذبذبة في مواقفها ـ كالبرجوازية الصغيرة في المجتمع الرأسمالي ـ بين النجاح ، واكتساب الثقافة اذا حكمتها "العلية" ؛ والانتهازية والجرى وراء الكسب المالي اذا حكمها "السفلة" .

(1) C.W. Mills:- L'Elite du Pouvoir Maspero 1969.

* (2) باللغة الفرنسية :ـ "Elite- Masse -Racaille" لانها اسقاطات اخذها الفكر الغربي عن الفكر السياسي العربي ..

3) — السفلـي :— فئـة طفيليـة ؛ شديدة الاهتمـام بالحوافز الماديـة ؛ — حديثـة النعمـة ، لاتقدم مقابـل مـادى أو معنـوى ، ولاتعطي قيمـة "للعمل" ، تجـارى "القائـد" ، متابعـة للهوى ، وتخالفـه عـن عناد وحماقـة * (1) .

فأختيار رئيـس التعاونية في القريـة الرعوية مثلا .. وهـو أبسط مركز "للقيـادة" يتم طبقـا لمكانتـه ، ولتسامحـه مع أصدقائـه المتعاونين ، وله القدرة على الاقناع ، أى يستطيع طلب بعض الامـور من السلطـات المحليـة ، دون أن يواجـه الرفض أو عدم الاكـتراث ، مكتمل الرجولـة ، ويفرض احترامـه على الآخريـن ، و (صاحب ميعـاد) ، يعرف متى يتحدث ، ولمن يتحدث ؛ وله قيمـة مرموقـة مـع مسؤولـي البلديـة . * (2) .

هـذه هي الشـروط ؛ أما الواقـع فهو غير ذلك حسبمـا يدلـي لنـا به مخـبر آخـر * (3) :— " لاأرغب في رئاسـة التعاونيـة ، وذلك لانني أرى أن المكانـة الاجتماعيـة تسقـط ؛ وتهـان كرامـة الشخص وتداس ، وذلك لتشعب المشاكل التي يواجهها ، والـتي لايكـون سببـا مباشـرا فيهـا ، وانمـا يتحمـل وزرهـا " .

وقـد لاحظنـا سابقـا أن تجـارب التعاونيـات الرعوية قد أصيبـت بنوع مـن الشلل ، وفشل مهامهـا محتمـل جـدا ، ومن بين الاسبـاب كمـا لاحظنـا أن هـذه التعاونيـات تعتبر بمثابـة زرع لم تعد الارض لـه — وهـذا ما أدى الى أن السلطـة المحليـة في البلديـة خشيت مـن وجـود نخبـة منافسـة ، وهـذا ماتحقـق لها فعـلا .. فجندت كـل الوسائـل للقضـاء عليهـا وارغامهـا على التبعيـة .

---

* (1) انظر بحث "حافظ أحمد أمين" : "الادارة عند العرب" مجلة شؤون عربية العدد 22 — صفر 1403 ؛ ديسمبر 1982 — جامعة الدول العربية — تونس .
* (2) المخبر ط. عبدالكريم :— مستفيد في القرية الرعوية "الحاسي الابيض" .
* (3) المخبر :— ر. سليمان :— مستفيـد في التعاونية الرعويـة .

النخبة في القرية المبحوثة لاتكون ذات قواعد ثابتة الا اذا كانت منسجمة ومندمجة ، وهذه هي حال الارستقراطية القبلية ، مثلها مثل "الارستقراطيات الاوروبية سابقا التي كانت تمتاز بصفات أساسية (النبالة ، والشجاعة .. الخ * (1) .

والنخبة قد تكون مفتوحة أو مغلقة . فاذا كانت مفتوحة فان هذا يؤدى الى حراك مرن ، أما اذا كانت مغلقة فانها تتقوقع على نفسها ، ونلاحظ أن النخبة المحلية تتجه نحو الانفتاح بعدما كانت مغلقة ، وهذا نتيجة لوضوح النصوص القانونية ، وتطبيق بعض المبادئ الديمقراطية لكنها مازالت تحتفظ بذوى الرأى السديد والكلمة النافذة .. لكن مازالت تحتفظ بالثروة ، وبالجاه بالمال ووراثة الشهرة .. أما نخبة المصالح فتنتقى بواسطة الوراثة ، يؤكد على ذلك بعض علماء الاجتماع .. وفي القرية المبحوثة نجد أن نخبة المصالح ، حديثة الظهور نتيجة للتطور الاقتصادى ، وللتنمية الاجتماعية التي شهدتها القرية ، فالمصالح لا تظهر في مجتمعات بطيئة النمو ، أو تلك التي تحكمها علاقات تقليدية ، وانما تبرز مع "التحديث" والتنمية المتسارعة ، وضمور بعض القيم الاصيلة (اذ تصبح "الاخلاق" مجرد كلمة فارغة المحتوى).. وبعض الاشخاص الذين يحتلون مراكز في البلدية قد أصبحوا ضمن هذه الفئة ، وعائلات نخبة المصالح تضطر الى الحفاظ على أبنائها لنقل الامتيازات الاقتصادية ، والمكانات الاجتماعية .. لكن ذلك لن يدوم .

اذا كانت كل نخبة تتمتع بامتيازات تحاول الانغلاق على نفسها ، الا أن هذا يسرع بها نحو حتفها ، وهذا حال أى نخبة توالت

---

(1) L. REISSMAN:-Les classes sociales aux Etat Unis . traduit par :- H.etM. LESAGE - P.U.F - PARIS - FRANCE -1963 .PP335-354.

على "القريــة" فبعــد أن تتدعــم مكانتهـا بالامتيازات الــتي حصلت عليهـا ، تحـاول ابعـاد النخبـة الصاعـدة والانكفـاء على نفسهـا ، لكـن رغـم مضي وقـت علـى تحكمهـا ، في دواليب الحكـم سرعــان ماتسقـط ، وتتـرك المكـان مرغمـة للنخبـة الجديـدة ، واذا تتبعنـا تاريخ الائتـلاف السياسـي بين الفئـات النخبويـة فـي "عسلـة" ، نلاحـظ أن النخبـة حين تـرى السقوط وشيكـا ، سرعـان ما تأتلـف بنخبـة أخـرى صاعـدة للمحافظـة عـلى مكانـة رئيـس البلديـة مـثلا .. فيبقـى بنـاء على اتفاق بين الشرائـح .

لكـن المجلـس البلـدى ، والقسمة يتغـير أعضاؤهمـا بأستمـرار ، رغـم أننـا نلاحـظ أن الحركـة بطيئـة . ولا نلاحـظ أنتقـال النخبـة الا بعـد وقوعهـا ، ويلاحـظ "باريتـو" " ان نفـس المثل التي تشكـل قـوة النخبـة الصاعـدة تتحـول الـى ضعـف بالنسبـة للنخبة القائمـة حين تقبـل بها من الناحـية العاطفيـة ، انه لامر واقـع قبـول النخبـة الحاكمـة تسرب الافكـار الجديـدة اليهـا ، ولكـن هـذه الافكار لاتملك بالنسبـة لها قـوة الاسطـورة القـادرة علـى تعبئـة الطاقـات فهـي تحولهـا الـى نزعـة انسانيـة تشل نشاطها * (1).

تحتفـظ النخبـة المحليـة بصفـات الشـرف والنزاهـة ظاهريـا ، لكـن لاتنسـى "صلـة الرحـم" ، و"الاقـارب" ، و "الاتبـاع" النافعـين الذيـن يبقـون فـي الظـل ويحققـون مصالحهـم بأسهـل الطرق نظـير قيامهـم ببعـض المهـام التي تقلدهـم اياهـا النخبـة الحاكمـة .. فالنخبـة لاتريـد توريـط نفسهـا فـي المسائـل التافهـة ، أو التي تمس كرامتهـا وأخلاقياتهـا ، لذلك تسنـد هـذه المهـام الـى الاتبـاع ـ فالشخص

---

* (1) جوليان فروند :ــ "باريتـو" ترجمـة ، منى النجـار ــ سلسلة أعلام الفكر العالمي ــ م.ع. د.ن. ــ بيروت 1980 ص. 189 ــ 190 .

الذى يريـد أمتهـان الخـير في كل الظـروف، سيحطـم من طـرف الاشـرار ـ ويضيـف "ميكيافيلي" لكـي يحافـظ "الامـير" عـلى حكمـه فهـل مـن الضـرورى أن يتحلـم الشـر ، ويستعملـه ، أولا يستعمله ؟ يجيـب بمـا أن الطبائـع التي يتسـم بهـا ، فيهـا ماهـو ايجابـي ، وفيهـا ماهـو سلـبي ، فحكمـة "الامـير" تتمثـل فـي اخفـاء سيئاتـه بصـورة تحفـظ له دولتـه ..* (1) .

فالنخبة السياسية تتراجـع طهـارة المبدأ ، أمـام ضرورات الواقـع ، حسب تعـبير "باريتـو" ـ وهـذا صحيـح اذا حللنـا مـن وجهـة علـم السياسـة الائتـلاف بـين النخبة السياسيـة والفئات الاخـرى ، وهـي تقـدم برنامجهـا أثنـاء انتخابهـا ، وبعـد فـترة انتخابهـا عـلى انـه يحقـق مصلحـة الجماعـة ، ولم الحـرش ، والتصدى لكـل من يمـس حرمتـه الترابيـة * (2) . ولكـن أمـام ضغـط الواقـع وضروراتـه فان رئيـس البلديـة مثلا وأتباعـه يعالجـون مشاكـل القريـة برويـة واقعيـة بعيـدة عـن الدعايـة ، وحـب الظهـور .. القيـادة اذن ، تتطلـب وعـي القـادة بمشاكـل المواطنـين ، وحثهـم عـلى العمل ودفعهم الى التغـيير فـي كل المجـالات ، واحـترام وجهـة نظرهـم ، وصقـل الروح العشائريـة ، والعروشيـة من مترسباتهـا الضارة والحفـاظ على مـيزة التضامـن والتكافـل الاجتماعـي .. حسـب "ميكيافلـي" فالنصائـح الجيـدة تأتـي مـن حكمـة "الامـير" ، أى أن حكمـة "القائـد" (شيخ البلدية فـي قريتنـا) هـي الـتي تنمـو بذرتهـا فـي أرض القريـة ، وتأتـي ثمارهـا وهـي النصائـح الجيـدة ، وليسـت النصائـح الجيدة هـي التي تصنـع حكمـة "الامـير" * (3) .

---

(1) MACHIAVEL:- "Le Prince" Traduit par IVES LEVY- ED/Flammarion, FRANCE1980.

* (2) نزاع حول الحدود الجنوبية للبدية مع عين الصفراء يخص الصراع بـين "المجادبة" و "العمـور" .

(3) MACHIAVEL:- "Le Prince" op.citée P192.

فالذكاء يصبح "حيلة" ، ويتجاوز "الشجاعة" في مقدار تأثيره في تسيير السلطة والمحافظة عليها ، في حين أن الاستيلا عليها يتطلب القوة .

فالسلطة الحاكمة في القرية تتألف من اجتماع النخب السياسية الفردية ، حيث ان طاقتها تعتمد على انواع من التحالف والتجمع ، وهي تتألف بفضل الذكاء والحيلة ، والطموح الى السيادة بعد تذوقها ..

اذن ، تؤدى المنافسة السياسية الى نوع من الركود وتتسم بمناخ حار يفصح عن انسجام داخلي بين الجماعات المتناحرة التي تأسست على علاقات الزبائن ، ولكن تستثني كل مجابهة مصيرية بواسطة التخلخل الذى يحدث في التحالفات والتألفات ؛ وكل مجموعة تريد المحافظة على هويتها ومصالحها ، وتهدف الى الوصول الى وضعية من التوازن ، وتتخلص عن طريق السير في طريق القوة الذى يمكن أن يحطمها . * (1) .

تحتاج السياسة الى التمويه والاختفاء لتعمل بفعالية ، والنخبة المحلية تلجأ الى التمويه ، لكي تستطيع أن تهيمن على القرية مدة أطول ؛ ولكي تستطيع العمل بفعالية أكثر ؛ فبمجرد التصريح ببعض الحقائق أو القرارات قد يجعلها في مأزق يؤدى الى القضاء عليها ، بل الى خسارتها في الانتخابات المقبلة التي ترغب في خوضها ولا مجال للاخلاق في السياسة كما يوضح " ك ميكيافلي " ، و"باريتو" معا :ـ"حين أثور كعالم فإنني أخطئ" * (2).. وفي قريتي فانني أقع في الخطأ اذا أعتبرت الاساليب التي تلجأ اليها النخبة "الاأخلاقية" بل هي طبيعية وحتمية ، انها جزء من جوهر السياسة .

---

(1) M.CAMAU: - "Pouvoirs et Institutions" ..op.citée P181.

* (2) جوليان فروند : "باريتو" مرجع مذكور.. ص : 223.

ومن بين هذه الأساليب هو أن النخبة الصاعدة تندد بعنف يتجاوز النخبة الحاكمة ـ وهذا مالاحظناه في تتبعنا لحركة العمليات الانتخابية منذ الاستقلال في هذه البلدية النائية ، سواء تم ذلك في السر أو في العلن ؛ ولكن بمجرد أن تستأثر النخبة الصاعدة سرعان ماترتكب بدورها تجاوزات أخرى تقتضيها طبيعة السلطة والضرورة الدبلوماسية أما العامة فانها تجابه مشكلتين ؛ الأولى تتمثل في أنها تقبل "الهيمنة" ، كمصير محتوم بمواجهة النخبة "السياسية" التقليدية التي تتأسس سلطتها على الامكانات النفسية للحكم ؛ والثانية رغبتها في الانفصال عن اطارتها "التقليدية" دون أن يمنحها القطاع الحديث امكانيات التحكم في هاته الوضعية الجديدة * (1).. وهنا نشعر كأن حراكها الاجتماعي محدود جدا ...

1) ـ الحراك نحو النخبة :ـ

الحراك نحو النخبة كما عرفنا يتم بوسائل معينة منها المال، والمهام السياسية الموكلة للشخص ، ووراثة الشهرة والجاه ، وهذا بالفعل مالاحظناه في قريتنا ، بالاضافة الى استخدام شرف النسب أيضا ، كلها وسائل مشروعة للوصول الى النخبة ـ لكنها تحتاج لدعم الشريحة أو الآل أو الطائفة .

يتبنى بعض علماء الاجتماع ، أيضا ، حراك الدور لدى النخبة ؛ فالشخص يتنقل من دور لآخر حتى يصل للدور السياسي ـ وهذا الدور يعتبر خاتمة الأدوار التي مر عليها الشخص، لكن هذا الدور الجديد تبقى فيه رواسب من الأدوار القديمة

.../...

---

(1)voir G.PERRIN:- " Sociologie de PARETO" P.U.F - FRANCE 1966. et, A.ZGHAL In:- M.CAMAU:- "Pouvoirs et Institutions ..." op.citée P186.

(العائليـة ،والدينيـة ...) .. وهـذه هـي حالـة "شيـوخ السياسـة" فـي القريـة ، فالتنشئـة العائليـة وأعتقاداتهـم الدينيـة مازالـت تسـم تصرفاتهـم ، وخاصـة أثنـاء الأزمـات التي تشهدهـا القريـة أو الخلافـات بـين أعضائهـا .. والايديولوجيـة "الاستحقاقيـة" الـتي تنتشـر فـي القريـة ،هـي الـتي تضـع هـؤلاء فـي أعلى السلـم الاجتماعـي ـ أو هـي التي تـقوم بأنـتزاع الأشخـاص مـن وضعيتهـم السابقـة ، وادماجهـم فـي وضعيـات جديـدة بتوفـر مميزات شخصية .. وهذا مايجعلهـم يحتلـون فـي بعـض الأحيـان مكانـات ذات بعـد جهـوى (الدائـرة أو الولايـة..) أو وطـني (المجلـس الوطـني الشعبي) ،والـتي لا يستثنـى فيهـا أى مجتمـع من المجتمعـات المغربيـة * (1).. كانـت مهمـة "الشيـخ" فـي القديـم هـو جمـع الأشخـاص "للغـزو" ، وكـان كـثير التدخـل فـي شـؤون السياسيـة ، أما الآن فقـد تكفلـت الدولـة بالمهمـة الحربيـة ، وضيقـت مـن نطـاق التدخـل السياسي بإنشـاء البلديـات ،وكل وضعيـة يحتلها الأشخـاص كنبـلاء أو مستشارين للسلطـة العليـا ، ليسـت مهام قـارة وتعكـس اللعبـة السياسيـة * (2) .

حـين يذكـر "أنجلـز" أن الزواج عـقد سياسـي ،فإنـه يحـدد هـذا الزواج فـي اقامـة التحالـف السياسـي عـلى المسـتوى القبلـي أو العشائـرى أو بـين الشرائـح ، لذلك يلاحـظ فـي "القريـة"، وفـي المجتمعـات المغربيـة عـلى العمـوم .. أن تـ الفئـات المغلوبـة تتـزوج من نسـاء الشريحـة المسيطـرة ،والمجموعـة المنحـدرة من هـذا الـتزاوج تتحالـف مـع الشريحـة المهيمنـة * (3) .

---

(1) voir: P.BONTE:- "ségmentarité et pouvoir chez les Eleveurs Nomades Sahariens - In:- "Production pastorale et Société " Actes du Colloque International sur le Pastoralisme Nomade" PARIS 1/3 Décembre 1976.
(2) Ibid P 189.
(3) F.ENGELS:- "L'Origine de la famille, de la propriété privée , et de l'ETAT" PARIS1971, P 86 et; P.BONTE:-"Ségmentarité et Pouvoir "op.citée p191.

ان الصراع من أجل السلطة لتغيير الصف الذى تحتله كل شريحة لا يوءدى الى حراك تصاعدى أو اعادة توزيع للوضعيات السياسية ، بل يوءدى الى ضياع لمكانة عدد معتبر من الشرائح التي تتبنى عددا من الانماط الثقافية ، وتتخلى عن المنافسة السياسية" * (1) .

وهذا ينطبق على السلطة في القرية ، فالاشخاص الذين يتبنون أنماطا ثقافية حضرية أو شبه حضرية سرعان مايتخلون عن المناصب السياسية ، واحتكارها بل انهم ينسحبون من الحياة السياسية ومن محتركها .. لكن الشرط لايتمثل فقط في تبني الانماط الثقافية كما حدده "بونتى" ، وانما يكون نتيجة لتغيير في المهنة ، أو نجاحه المادى ، فقد يفتح الشخص دكانا للتجارة ، أو قد يحقق بعض الاهداف من وراء توليه لمنصب بلدى أو حزبي ، وبذلك يتجه الى نشاطه الاصلي الذي بدأ منه ، أو الى نشاط أكثر ربحا .. وهذا يجعلنا نعتبر أن الحراك دورى في المجتمعات المحلية ، رغم توفير المجتمعات المستحدثة لفرص حراك جديدة لم تكن معروفة من قبل : وقد تحدثنا في مجال سابق عن دور البلديات والقرى الرعوية ، والوظائف المفتوحة أمام الشباب في اضفاء طابع جديد على حراك السكان .

.../...

(1) P.BONTE:- "Ségmentarité....." op. citée P194.

في هذه الخاتمة ، لن نقدم حلولا جاهزة لأن هذا ليس من أختصاص الباحث في رأيي ، وانما نقدم نتائج البحث ليستغلها المهتمون ، كل حسب تخصصه وكل حسب قطاعه ، وهي كمايلي :-

أدى تفكك القبيلة بفعل الاحتلال الى ضياع عدد معتبر من الماشية والى قطع علاقاتهم بالتل والصحراء على حد سواء، وبالتالي فصل السهوب عن السهول (أي الرعي عن الزراعة) ، لذلك لابد من اعادة هذا الانسجام المفقود .

- تبدو الاصلاحات التقنية منذ خمسين سنة حلت ، متشابهة ، ومتماثلة وتحاد بدقة روتينية في تقارير الهيئات الادارية والتقنية المختصة . والملاحظة الأساسية هو اهتمامها بالنتائج أكثر من بحثها عن الأسباب .

من خلال الملاحظة الميدانية ، يتضح أن البدوى ، ومربي الماشية يتضايق من تلقينه لمعارف أكتسبها أبا عن جد ، أو نتهمه بأستعمال التقنيات التقليدية التي يعتبرها أساس وجوده .. ومن بين الأمثلة التي توضح ذلك ابعاد النوع المسن في الماشية " (الشارف) " من القطيع ، لأنه يعطيها قيمة رمزية ويعتبر أن الخير يأتي من ورائها (الخير يحيي من جبرتها) * (1).

---

(1) M.Boukhobza:-"L'Agropastoralisme"op.citée P364.
(2) Ibid. P.372 .

— عدم الاهتمام بالرعي ، وماتبع ذلك من فشل في الاجراءات التقنية المصاحبة لعملية التوطين ، جعل البدو يدينون "البداوة"، فلا ينبغي طرح مشاكلها طبقا للتوطين ، وانما على أساس طرائق تحقيق هذا التوطين ودلالته بالنسبة للرعي * (1).

— حين تنطلق الاصلاحات التقنية من اهتمامات المربين ، فانها تحررهم من كل أنواع الاغتراب . فالتدخلات التقنية والصحية ضرورية للمحافظة على القطيع والمرعى ، لكن الادعاء بحيادتها في محيط اجتماعي يعاني من تناقضات ذاتية ، وموضوعية هو مايرفضه المنطق .

أ — التخطيط والواقع المحلي :—

أغفل المخطط عددا من المعطيات الاساسية التي تحيط بمشكلة "البداوة" والرعي" ، ومن بينها :—

— الاخطاء التي تتعلق بالتصور حول الفقر والفقراء ، ويعتقد أنه يعالج بؤس البدوى في الخيمة بنفس الطريقة التي يعالج بها بؤس القروى أو شبه الحضرى في الكوخ . بينما المجتمعين مختلفين وعنصرين لثقافتين مختلفتين ...

فالبدوى راض عن حاله ، ويقاوم كل تغيير ، والخيمة جزء من ثقافته وسلوكه ينشأ في اطار أصيل ومنسجم من القيم قادر على المقاومة .. بينما الكوخ مثلا ، ليس الا تكيفا أضطراريا مع الوسائل الحديثة التي يمتلكها القروى ، واذا تغيرت وضعية الفقير فانه يتخلى عن كوخه ، ويقبل بالسكن الافضل * (2).

---

(1) M'BOUKHOBZA:- "L'Agropastoralisme .." op.citée P372.

(2) J.LABBENS:-"Sociologie de la Pauvreté" Le tiers- Monde , et le quart -Monde ED/gallimard - FRANCE 1978. PP163-164.

لذلك فوسائل التدخل والاصلاح تختلف بين هذين النمطين ، وهذا مايفسر فشل مهام القرى الرعوية ، ووظائفها الاجتماعية والاقتصادية لأنها خضعت تقريبا للمقاييس التي قامت عليها القرى الفلاحية المستحدثة .

لكن هذا لاينفي التنسيق بين هاته القرى الرعوية والفلاحية خاصة اذا أعدنا تنظيم وتنسيق وتشجيع "المشابة" واقامة خطوط السكك الحديدية من الغرب الى الشرق لنقل القطيع ، فبقايا الحصاد والأعشاب الجافة (يسميها البدو "الهيشر") تفيد الماشية والقطيع في أشهر جويلية ، وأوت ، وسبتمبر .

* ـ مقاومة مربي الماشية للامتلاك الجماعي ، وتحبيذ الامتلاك الشخصي ولو عن طريق "التسليف" من خلال "القرض الفلاحي" . لذلك لابد من تشجيع هذا الاتجاه بما يتلاءم مع مصلحة كل الأطراف .

* ـ السكن "المستقر" ليس دعما لنشاط المربي بقدر ماهو عائق يعطل عملية التنمية . . لذلك يتمثل الاتجاه الصحيح في دعم المربي بالمخيم الذي يصاحبه أينما حل في البحث عن مناطق الكلأ ، وخزان الماء ، والجرار والعربة التجارية من نوع "مازدا" "MAZDA" التي تمكنه من حل بعض مشاكل التموين والتسويق . . وهذا يؤدي الى نجاح تام .

.../...

* استخدام أراضي الحرش القديمة كمناطق للمرعى ترتادها الماشية ، وهذا يلغى السلبيات التي قامت على أنقاض التقسيم الاداري — القبلي ، والا تأني الذي كان عبارة عن تسوية مرحلية بين القبائل ، وليس نظاما مجاليا يخضع لتنمية متزنة * (1).

ب — نحو تنمية رعوية متزنة :—

هناك بعض الشروط التي ينبغي توافرها للقيام بتنمية متزنة في المنطقة المبحوثة ، وفي المناطق الرعوية المشابهة منها :—

تطوير الأساليب الخاصة بحراثة الأراضي ، وهذا ماشرع فيه البدو مؤخرا بصفة مكثفة (خريف 1985) ، ولكن ينبغي أن تنسجم مع أهداف الزراعة — الرعوية .

وفي اطار الانتاج العلفي المستهلك من طرف الماشية مباشرة ، ولا بأس أن تتجه للاستهلاك الذاتي أيضا ، وتحقق مصلحة صغار المربين والمربين المتوسطين على حد سواء .

من ذلك ، أيضا تحديد قطيع الماشية ، أي الغاء الملكية الكبيرة، والصغيرة في آن واحد ، أي ابقاء الملكية المتوسطة : وهذا يتم بدفع الملاك الكبار على بيع القطيع غير المفيد اقتصاديا — أكثر من 250 رأس — ، واضافة عدد من القطيع لصغار المربين ليصل بين " 130 — 140" رأس * (2) .

لاتحل القرية لوحدها مشكلة "الرعي والبداوة" ، وانما ينبغي تحضير البنيات خارج القرية المستحدثة ، بل حتى "القديمة" ، أي تطوير الرعي طبقا لمعارف ، وقدرات سكان المنطقة ، الذين يعتبرونه

(1) M'BOUKHOBZA:- "L'Agropastoralisme ...." op.citée P395.(Marge N°27)

(2) Ibid P 414.

نشاط أساسي يحسنون معرفته وممارسته ؛ وطبقا للظروف البيئية الخارجية — .

يلاحظ ضياع لاعقلاني لليد العاملة في الوسط السهبي، فيمكن استغلالها في الأيام الخاصة بإقامة السياج ، وإنشاء المراعي الهوائية ، وفي صيانة الأشجار الصغيرة ، وتوقيف المجاري وإنشاء الجب .. ورص الحجارة ، وفي جمع الحبوب — التي هي ممارسة تقليدية — ، أو أشغال البذر والبستنة ، وإنشاء الزرائب وحفر الآبار ... الخ ، وكل هذه النشاطات مهمة في هذا المجال الجغرافي * (1) .

* تنويع مصادر "المياه" من آبار وسدود صغيرة ، والتي تعتبر العائق رقم "واحد" ، المواجهة لعملية التنمية ، خاصة في سنوات الجفاف .

* الاهتمام بالنشاط الفلاحي ، والحرفي المكمل للرعي ؛ فالنشاط النسوي له أهميته أيضا — فمن عمل الصوف ونسيجه الى تحويل الحليب في الوحدات الصغيرة ، وصناعة الجلود والزرابي ، الى استغلال لانتاج البساتين وتنظيم عملية التسويق. وهذا يتأتى بإخراج هذه النشاطات من دائرة الاكتفاء "الذاتي المحلي" الى الاكتفاء الذاتي "الوطني" عن طريق تشجيع الفلاحين والحرفيين من خلال المساعدة التقنية ، والمؤسسات المختصة .

جـ — تنمية قطاع الحلفاء :—

* أما بخصوص أراضي الحلفاء الواسعة الانتشار ، فينبغي احصاء مجموعات الحلفاء المهمة بواسطة صيانة وتنظيم نزع الحلفاء ، واعادة تقييم حرفة نزع الحلفاء .. هذه الحرفة تتجه الى الزوال

(1) M'BOUKHOBZA:- " L'Agropastoralisme " ...op.citée P407-408.

وذلك للجفاف ولنقص اليد العاملة ، وتستمر هذه الحرفة لغاية 180 يوما (من "أكتوبر" الى "مارس") .

— الرفع من الاعتبار في نشاط "نزع الحلفاء" — لا تتعدى أهميته النصيب المخصص لميزانيته * (1) ، والمؤسسات المتخصصة لم تستطع الواحدة تلو الاخرى أن توفر للبدوى ، أى تغيير في نمط حياته القاسي .

ضاعف من ذلك ، عدم وجود أى قانون يحدد تشريع العمل ، أو الضمان الاجتماعي ، أو المراكز الصيدلية المتنقلة (درجة الحرارة "تحت الصفر" — الرياح — العواصف الرملية — ، والنزع البدوى — جروح اليد والاصابع) — .

* — الرفع من الاجر : الذى يفسر الوضعية المعيشية لهاته الفئة التي تعاني من "الصخرة" بمعنى الكلمة (نزع قنطار الى 2/قنطاربن يؤخذ عنه 42 دج/يوميا) .

* — عدم تسوية وضعية اليد العاملة الاخرى مثل رئيس الورشة ، والرابط ، والحمال ، والمقرب ، والضاغط ... الخ * (2) .

د — تنمية القطاعات الاخرى :—

— في "عسلة" توجد كمية كبيرة من الملح في مناطقة حمام "ورقة" ، فانشاء مصنع للملح سوف يوفر فرص عمل لليد العاملة العاطلة التي تتسكع في القرية ، وتختزل الزمن تحت جدرانها .

---

* (1) مع أن الجزائر تحتل المرتبة "الاولى" في انتاج هذا النبات "السهبي" .

(2) أنظر اقتراحات مماثلة :— ALGERIE-ACTUALITE , N°955 -2/8 Février1984.

حمام "ورقة" أيضا ، حمام معدني ، برزت فائدته الطبية من خلال بعض التجارب ، لكن لحد الآن مازالت تعتمد على امكانيات ووسائل تقليدية ، لذلك فتحديثه ، واستغلال طاقته المعدنية ، وتوفير الخدمات به ، سوف يكون احدى دعائم التنمية لهذا المجتمع "المحلي" .

هناك طاقة واسعة من المادة الأولية من للاسمنت ، الذى سينشط حركة التصنيع في هذه الجهة النائية التي على امتدادها - الذى حبير الاحتلال الاجنبي - لانجد أى مصنع .

عاين بعض الخبراء "الاجانب" المعادن المختزنة في جبال "القصور" ذاته ، وظهرت امكانية لانشاء شبكة من المصانع للملح والاسمنت ، وكذلك للقرميد والحديد . لكن حينما تعلق الامر بالانجاز يبدو أن الشروط لم تتوفر ، ومكتب الدراسات صرف اهتمامه عنها .. والاسباب غير معروفة .

* اختيار نصف - التوطين "رجل هنا" و"رجل هناك" يقلل من المصاعب التي أحدثها التوطين الفجائي للبدو - الرحل ، وهو الذى يمكنهم من ملائمة بعض القيم الايجابية مع الظروف الجديدة ، (التماسك العائلي روح التضامن ، وغيرها ..) .

* ربط التعليم الرسمي ، بتكوين يخصص للمجال الرعوى والبدوى ، وهذا لكي لايصبح أحدهما عائقا في مواجهة تطور الآخر (المعارف المكتسبة تصبح ضرورة لدعم نشاط المربي ، لا هروبا لابنه منه) .

.../...

* تسيير النشاط السياسي "المحلي" ، حسب المصالح الحيوية للسكان ، لاحسب مصالح الشرائح المتنافسة . وهذا يتطلب عدم تورط الهيئة المنتخبة والتي تقوم بعملية الانتقاء ، في لعبة الحكم ، أو تحتسب نفسها بمثابة الحكم بين الشرائح المتناحرة، ولكن ينبغي أن تمتاز بالمرونة في مواقفها أيضا ، وعدم التسلط أو القهر ..

* وفي المجال الايكولوجي ، لابد من التحكم في اتجاه الرياح ، ليس بواسطة الدراسات العلمية ، وانما بواسطة الدراسات الميدانية - الطوبوغرافية - ، لتحديد اتجاه الرياح ، وخطورتها في مجال التصحر ، وتكوين الكثبان الرملية ، ويلاحظ "معروف" أن الصحراء تأخذ "10 آلاف هكتار" سنويا من السهب . وفي مدة ثلاثة آلاف سنة ، ستصبح الجزائر كلها مناطق صحراوية * (1).

* اذا كان المجال الصحراوى يشكل 4/5 مساحة الجزائر ، فلابد من انشاء الجامعة الصحراوية (مركز الأبحاث الصحراوية)، وذلك بمشروع يجمع كل المعارف الخاصة بالوسط "السهبي" والصحراوى، لدى المختصين بهذا القطاع من الاختصاصيين في "علم الري"، وعلم النبات ، وعلم البيئة ، والمهندسين الرعويين ، والمختصين بالعلوم الاجتماعية ...

* ينبغي أن تبذل الجزائر "الشمالية" في سبيل اعادة توزيع الدخل الوطني بالنسبة للمناطق النائية بالسهب والصحراء * (2) .

---

(1) N.MAAROUF:- "Lécture de l'Espace OASIEN" op.citée P 248.

* (2) يذكر "معروف" في "المجال الواحي" بالأرباح (1 مليار ونصف مليار سنتيم (1972)) التي اثمرها انتاج الطماطم بأدرار ، فحولت الى مآرب للعتاد ومساكن لموظفي "الشمال" على حساب المنتجين .

هـ ـ نحو تنمية حضارية شمالية :ـ

هل تحمل "البداوة" بعض السمات الحضارية ؟

يقول أحد الباحثين : ".. البداوة حالة عيش سمتها الأولى التغيير ، والتغيير يستدعي حركية دائمة ، ويتطلب نشاطا مستمرا ، فكأن البداوة تجربة انسانية لها دورة ابداعية تصنع الحياة ، فهي تصور نظرى في المرحلة الأولى (..) أما في المرحلة التجريبية فتخضع تصور (البدوى) في الممارسة ، فتكشف له (جوانب) جديدة ، فيعدل تصوراته ويغير آراءه تغييرا تمليه الممارسة ، وبذلك يكون تصورا جديدا .." * (1) .

على المستوى الأنثربولوجي ، فان البداوة تحث على التغيير ، وهذه السمة مازالت غائبة في المحيط الاجتماعي ، وفي خطط "التنمية" ، فهي لاتتجدد حتى يخترقها الفشل ، وهنا يتوقف الابداع الانساني نتيجة لغياب الحركية التي تعتمد على الممارسة الحقيقية ، لاعلى ماتمليه ممارسات الغير في مجال النشاط الانساني على العموم .. والبداوة أيضا ، تعني "التحرر" من التبعية للتغير ، وهذه "الاستقلالية" التي يلح عليها البدوى نابعة من معرفة مخاطر التبعية ـ على الأقل فطريا ـ على صعيد القيم الاجتماعية والحضارية .

هذه السمة الثانية تجعلنا نفكر في بعض مخاطر التبعية التكنولوجية والحضارية "للغرب المتحضر" لأن التصور الذى يطغى على العقول هو :ـ "امكانية تحديد وجهة أستقلالية في اطار التبعية" وهذا من باب الاستحالة أو المخادعة الذاتية ، فتاريخ الحضارات يبين

---

* (1) أسعد علي :ـ "البداوة المنقذة" ـ دار الرائد العربي ـ بيروت 1981 ص: 90.

لنا بأن كل حضارة قائمة الا وتبدع وسائلها الخاصة المستقلة بفضل الأسس التي تقوم عليها أولا ، والاحتكاك الايجابي الثاني وهذا مالا نلاحظه اليوم اذ أن التبعية هي احتكاك سلبي بالغير وتخضع للمقولة الخلدونية :ـ "المغلوب مولع بالاقتداء بالغالب." مسألة التنمية هنا ، هي مسألة اتساق مجتمعي واتزان حضاري وليست قضية تخطيط اقتصادي * (1) .

ان الفوضى التي توقف حركة المجتمع ، بل تعمق الفارق بينه وبين المجتمع الاخر "المتحضر" هي انعكاس لتلك الرؤيا المظلمة والمرضية للغرب ، فاختيار المشاريع التنموية ، ومنها السهوب كثيرا ماتفرض فرضا ، من "فوق" انطلاقا من أكبر المشاريع واوسعها الى أصغر تعاونية في قرية رعوية مثلا ، وهذا الجهد المبذول يصبح"عقيما" رغم الرغبة الاكيدة للسلطة في التحكم التام بالسكان من اجل "تنميتهم" ، و"تحضيرهم" .. لانه لم يوفر لهولاء البشر الذين تهمهم التنمية بالدرجة الاولى ، والشروط الاولية للمبادرة الذاتية ، وانتزاع روح الاتكالية في تفضيل "الحق" على "الواجب" .

كما ترتكب السلطة المعنية أخطاء حينما تفضل منطقة على منطقة ، او جهة على جهة ... وهذا يثير النعرات القبلية والعشائرية والطائفية ، والجهوية .. الخ ، بل ينبغي الرفع من الوعي الحضاري للسكان ، حتى يمكن تجاوز هذه الاوجه السلبية بتوجيه هذه التعددية نحو التوحيد بأى وسيلة من الوسائل ، وابراز الخصائص الايجابية للتضامن والتآلف ، ولو كلف ذلك الابقاء ، على بعض الانساق البدوية والقيم الاصيلة مادام الهدف نبيلا .

---

* (1) أنظر جورج قرم :ـ "التنمية المفقودة" ـ داراسات في الازمة الحضارية ، والتنموية العربية " دار الطليعة ـ بيروت 1981 ـ صفحة "6" من التوطئة .

المهم أن يترك للمجتمع حرية الحركة في اطار حضاري يشجع على الابداع والانتاج في هذا الميدان بالذات ، وأن يترك حل الامور الشكلية للتصرف العفوي للمجتمع البدوي ، أو نصف البدوي ، وأن يركز ه على حل المصاعب الجوهرية من طرف من يعرف أسرار التخلف والتقدم ، والابتعاد عن لعبة الحكم والسلطة .. وتمكين المختصين من تنفيذ هاته المشاريع بمبادراتهم وحركيتهم ، حتى تأتي بالفائدة ، وتظهر آثارها الايجابية واضحة في تغيير نمط حياتهم ..

لقد أوضحنا فيما سبق أن توسيع الملكية المتوسطة للماشية هام ، وهذا بالفعل ماينسجم مع الاستقرار الاجتماعي ، حيث أن وجود الفئات المتوسطة ، ـ ان لم نقل الطبقات ـ يسمح بوضع استراتيجية حضارية على المستوى البعيد تقضي على الفوارق الطبقية والاختلال الاجتماعي .

يحتاج المجتمع البدوي الى حرية التكيف مع محيطه ، والتغيرات التي تحدث له من خلال مناقشه الذاتي ، وتوفير جو من التفاعل الحضاري بينه وبين غيره من المجتمعات ، لا يؤدي الى اختلال شخصيته ، وأنماط قيمه ، بل بالعكس يزيده الثقة بنفسه . فيكشف لوحده من خلال هذه الثقة عدم كمال الذات ، وضرورة اثرائه خارج حدوده الفكرية والحضارية ، فيكون التأثر معبرا عن الصحة الحضارية ، لا عن الغلبة والهيمنة والتواكل واذا كان المجتمع "البدوي" مثلا ، مختلفا عن المجتمعات الأخرى ، فلا ينبغي أن يتماثل معها ليصبح ذي كيان حضاري ، وانما هو مختلف عنها ، وسيبقى مختلفا طالما بقيت الحياة الانسانية ، وهذه التعددية ، والاختلاف هي ثروة الحضارات ، والاعلان الرافض لكل اغتراب .

.../...

تغيير بناء المجتمع يتم من خلال الطاقات البشرية الداخلية ، الروحية والمادية ، العلمية والتنظيمية ، وكذلك من خلال تضحيات كبيرة وعمل شاق من الدولة والجماهير على حد سواء :ـ فالابداع أو البناء الذاتي ، لايتم من خلال أكوام الأوراق ، والقرارات التمويية العليا ، وانما من خلال قيادة تنير الطريق ، ويقتدى بها .

ينعدم التفاعل الذى يدفع بالمجتمع للأمام ، اذ قمنا بتحديث "الفقر" أو "تخطيطه" بلغة علم الاجتماع المعاصر، لأن التفاعل يعني تخليص المجتمع من حالة الركود ، والتبعية ، والنكوص التاريخي "الارتداد" .

لا ينبغي فصل مشكلات "البدوى" أو "المربي" عن مشكلة "الفلاح" اليومية ، ولامشكلة هذا الأخير عن "الحرفي" ، ولا هؤلاء عن "العامل" في المؤسسة الصناعية ، أو المهندس، أو غيرهم ... كلها حلقات متصلة ومترابطة في سلسلة العلاقات الاجتماعية ، وقد استطاع الاحتلال و"الغرب" أن يقطع الحلقات الأضعف في السلسلة في الفصل بين التل والسهب ، وبين مناطق الزراعة والصناعة ، وبين الريف والمدينة ، وبين النخبة والقاعدة .

لايستقر البدوى مالم يربط مصيره "بالتراب" ، وسوف يضاعف من مقدار الطاقة الانسانية للدولة بأندماجه في الحياة الاجتماعية ، ويغير شروط الحياة النفسية بما يضيف لها من خمائر بدوية ، بل يؤدى الى اخصاب فطرة الطبقة البرجوازية ـ وهي قطرة واهنةـ

.../...

بما تحمله البداوة من فطرة عذراء ، ونتيجة لأهمية العنصر البدوي المرتحل الحديدية ، فإن تعليم في المجتمع لن يتم بمجرد اندماجه في البيئة الجديدة اندماجا يؤدي الى تبدده وفنائه ، بل عن طريق انتشاره في الكيان الاجتماعي .. وهذه نتائج "التجربة السورية"، حيث وزعت الملكيات الكبيرة ، وملكيات الدولة على الاسر البدوية بمعدل 5 هكتار لكل أسرة * (1) .

وهي جديرة بتعميمها على "القطاع البدوي" في الجزائر

* (1) مالك بن نبي :- "وجهة العالم الاسلامي" ترجمة :- عبدالصبور شاهين دار الفكر - دمشق - 1981 . ص141 .142.

الملاحــــــــــــــــق

* ــ ملحــق خــاص بسلالــة أولاد سيــدى الشيــخ
منــذ الخليفــة "أبــي بكــر الصديــق"

* ــ ملحــق خــاص " بأولاد سيــدى محمــد " اقسوى
شريحــة فــي أولاد سيــدى أحمــد المجــدوب.

* ــ ملحــق خــاص بتوزيــع عــدد العائــلات بــين
شرائــح قبيلــة أولاد سيــدى أحمــد المجــدوب.

* ــ ملحــق خــاص ببعــض الجــداول الاحصائيــة.

ملحق رقم (1) خاص بسلالة أولاد سيدى الشيخ

الخليفة أبو بكر الصديق

عبد الرحمن

محمد

آزرق

ماضي

طفيل

يزيد

زيدان

عيسى

محمد الشيخ

سيدى

عيسى

أحمد

زيدان

عسكر

الحفيظ بن حرمة الله

عقيل

محمد

سليمان

معمر (بالحالية)

عيسى بوليلى

بلحيا

بوسماحة

سليمان

محمد — أحمد المجدوب — لالا صفية

عبد القادر (سيدى الشيخ)

ملحق خاص بالشجرة السلالية لأولاد سيدى محمد (رقم: 2)

أحمــد المجــــــــدوب

|

التومــــــي

|

بو الانـــوار

|

أحمـــــــد

|

محمـــــــد

|

الحريـــــمي

جـــوص | محمـــــد (المدعـو سيـدى محمـد) | المنـــور

ملحق رقم: (3) خاص بتوزيع عدد العائلات بين شرائح قبيلة أولاد سيدى أحمد المجــــدوب (1968)

الشرائـــــــح :ـــ	عـدد العائـــــلات
* أولاد سيـــدى محمـــــد	70
* أولاد الحســـــــــين	66
* أولاد الحســــــــن	51
* أولاد الماحـــــــي	58
* أولاد سيـدى بوبكـــر	40
* العبـادلـــــة	30
* أولاد سيـــدى مقــران	50
* القـرارشـــــــة	08
المجمـــــــــــوع:	374 "عائلة".

.../...

ملحق رقم (4) خاص ببعض الجداول الاحصائية

1) الجداول الخاصة بالدوائر "السهبية" لولاية سعيدة :ـ

الشكل رقم (1)

المقارنة بين طبقة المربين ، والنسبة% للعائلات ذات النمط التقليدي* (1).

طبقات المربين / % العائلة ذات النمط التقليدي	مربـون % مزارعـون	مزارعـون % دون أرض
الرعــاة	30	22.2
العــزالــة	47	33.3
المربـون الصغار	64.7	26.3

الشكل رقم (2)

نسبة المربين الذين يرتاد قطيعهم الكلأ خارج
بلدية اقامة المستغل (المربي) * (2)

اذا كانت السنة جيـدة:

طبقـات المربـين	المربون دون أرض %	المربـون المزارعون %
رعــاة	11.1	10
عـزالــة	—	3.8
مربـون ـ صغار	15.3	2.9
طبقـات متوسطة	40	11.5
	57.2	4.8
مـوال	—	9.1
المجمـوع	% 22.9	% 5.5

.../...

ذا كانت السنـــة سيئـــة:

الشكـــل رقم (3)

طبقـــات المربـــين	المربـــون دون أرض %	المربـــون ـ المزارعون %
رعـــــاة	22.2	ـ
عـــزالـــــة	ـ	3.8
مربـــون ـ صغـــار	15.8	5.9
طبقـــات متوسطـــة	46.7	15.4
	57.1	5.
مـــــــــوال	40	9.1
المجمـــــــوع	%26.2	%8

الشكـــل رقم (4)

نسبة التوطين طبقا للفئات المهنية ـ الاجتماعية لأرباب العائلات * (1)

الفئـــة المهنيـــة ـ الاجتماعيـــة	نسبة التوطين	ملاحظـــــــات
موظفـــون ـــ اداريون ـ نشاطات حـــرة	%100	اطارات متوسطة ـ موظفي مكاتب ـ أمن عمومي ـ اطارات ـ عليـــا .
غيـــر نشطـــــين	%93.7	بطالون ـ ممنوحـــون ـ متقاعـــدون
تجـــــار ـ حرفيـــــــون	%85	تجـــار تاطنـــون ـ متجولـــون
اجـــــراء	%77.2	عمال زراعيين أو غير زراعيين ، مؤهلـــين أو غير مؤهلـــين
مـزارعـــــون	%75.8	أحرار ومشتغلون (الاغلبية أقل من 10هـ)
مـربـــــون مـع /أو دون أرض	%10.6	أحـــرار ومشتغلـــــون
المجمـــــــوع	%53.6	ـ

.../...

الشكــــل رقـــم (5)

النسبة المئوية من البدو الموطنــين طبقــا لاماكــن الاقامـــة والفئـــة المهنيـة ـــ الاجتماعــيـة لأربــاب الاســـر

الفئـــات المهنيـــة الاجتماعــــيـة	الاماكن الرئيسية للبلديات		تجمعـــات ثانويــــة		مناطــــق مكتفــــة	
* مــزارعــــــون	12.8	57.1	19.1	14.3	68.1	28.6
* مــربـــــــون	30.8	83.4	26.9	8.3	42.3	2. 3
* تجــار ـــ حرفيون	73.4	96.8	11.8	3.2	14.8	—
* موظفون احرار نشاطات حــرة	83.3	96.8	5.6	3.2	11.1	—
* أجــــــراء	65.1	85.7	14.8	9.5	20.1	4.8
* غــير نشطين	69.5	86.4	20.3	9.5	10.2	4.5
المجمــــــوع	%57.7	%87.3	%16.5	%7.5	%25.8	%3.2

الشكــــل رقم (6)

النسبة المئوية مـــن العائــــلات النوويـــة (1970) (5)

المجموعــات الاجتماعـــية	البــدو الموطنـــــون %	القاطنــــــــون %
* المزارعــــــون	51.1	57.1
* المربـــــــون	38.5	41.7
* التجار الحرفيـــون	52.9	54.8
أجراء * موظفون واطـــارات وسطـــــــى	27.8	61.3
* عمـــال موءهلـــــــون	56.5	64
* عمـــال يدويـــون غير مزارعين	70.6	71
* عمـــال يدويـــون ـــ مزارعون	61	71.4
* غـــير منشطـــــين	78	68.2
المجمــــــوع	60.4	61.8

.../...

الشكـــل رقم (7)

نسبـــة الأطفـــال الذيـــن يزاولـــون التعليـــم الابتدائـــي
بين 6 ـ 15 سنة طبقا للفئات المهنية ـ الاجتماعية للأولياء * (6)

الكلـــي	التعليـــم	تعليـــــم الفتيـــــــات		
القاطنـــون %	البدو الموطنون %	القاطنـــون %	البدو الموطنـــون %	الفئـات المهنية ـ الاجتماعـــية
73	38	67	19	ـ مزارعـــــون
100	52	100	31	مربون اكثر (100) رأس
83	46	50	38	* مجموع المربيــين
93	79	85	65	ـ تجار/حرفـــيين
94	66	85	67	ـ موظفون أحـــرار نشاطات حـــرة
97	86	97	82	ـ عمال مؤهلـون
85	76	73	71	ـ عمال يدويـــون غـــير زراعـــيين
71	48	37	36	ـ عمال زراعـــيون
82	75	55	63	ـ غـير نشطـــين
89	64	73	54	المجمـــــــوع

ملاحظـــة عامـة:ـ الملاحق السابقة مأخوذة من موءلف "بوخـــبزة"

M'BOUKHOBZA:- "L'Agropastoralisme traditionnel en ALGERIE"

* (1) ص 268
* (2) ص 286
* (3) ص 287
* (4) ص 311
* (5)"ص ص" 326 ؛ 327
* (6) ص 340.

.../...

2) الجـداول الخاصـة ببلديـة "عسلـة" :ــ (1968)

الشكــل رقـم (1)

توزيـع القطيـع بـين البـدو والقاطنـين * (1) .

المـلاك			الماشـيـلات			القطيـع		% من قطيع البدو على المجموع
البـدو	الحضـر	المجموع	البـدو	الحضـر	المجموع			/
210	290	500	168.00	77.50	245.50			%68.4

الشكـل رقـم (2)

توزيـع القطيـع حسب الفئـات الثـلاث * (2)

الفئة / العدد	10 ـ 100		100 ـ 300		300 فأكثر		المجمـوع	
%	مـلاك	قطايـع	مـلاك	قطايـع	مـلاك	قطايـع	مـلاك	قطايـع
العدد	450	165.50	50	80.00	/	/	500	245.50
%	90	67	10	33	/	/	%100	%100

* ملاحظـة :ــ ان الملحقـين السابقـين مأخوذيـن مـن :ــ

(*) M.A.R.A:- " Enquête sur le Nomadisme " 1968.

.../...

المـراجـــــــــع

1) ـ المراجع المنهجيـة :ـ

1) ـ حامـد عمـار :ـ "المنهج العلمي في دراسة المجتمـع" دار المعرفـة ـ مصـر 1964.

2) ـ عاطـف وصفـي :ـ "الانثربولوجيـا الثقافية" دار النهضة العربية بـيروت 1971.

3) ـ عبدالحميـد لطفي :ـ "الانثربولوجيا الاجتماعية" دار المعـارف مـصر 1971.

4) ـ قبـارى اسماعيـل :ـ "الانثربولوجيا العامة " دار المعـارف مـصر 1971.

5) ـ محمد عاطف غيث :ـ "دراسات في علم الاجتماع القـروى" دار المعـارف مـصر 1967.

$$$$$$$$$$$$$

(6) C.W.MILLS:-"L'Imagination sociologique "- traduit par :- CLINQUART ED/ Maspero - PARIS - FRANCE 1977.

(7) M.GRAWITZ:- " Les Méthodes des Sciences Sociales " ED/ DALLOZ - PARIS 1972.

(8) M.GODELIER, CRESSWELL:-" Outils d'enquête et d'Analyse Anthropologique" ED/F.Maspéro -PARIS- FRANCE 1976.

(9) A.BRIMO:- "Les Méthodes des Sciences Sociales " ED/ Montchréstien PARIS- FRANCE- 1972.

****

2) ـ المراجـع العامـة :ـ

10 ـ آرنولد توينبي :ـ "تاريخ البشرية" الجزء:ـ 1 ترجمـة د /نقولا زيادة ـ الدار الاهلية للنشر والتوزيع ـ بـيروت 1981.

.../...

11 ـ أنجلز:ـ "أصل العائلة والملكية الخاصة ، والدولة" ترجمة:ـ الياس شاهين دار التقدم ـ موسكو ـ دون تاريخ .

12 ـ "خليل "أحمد خليل :ـ "العرب والقيادة" دار الحداثة بيروت 1981.

13 ـ جوليان فروند :ـ "باريتو" ترجمة:ـ منى النجار ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت 1980.

14 ـ جورج قرم: ـ "التنمية المفقودة" دراسة في الأزمة الحضارية والتنموية العربية ـ دار الطليعة ـ بيروت 1981.

15 ـ عبد الكبير الخطيبي :ـ "الاسم العربي الجريح" دار العودة ـ بيروت 1980.

16 ـ عبدالمجيد مزيان :ـ "النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون"واسسها من الفكر الاسلامي والواقع المجتمعي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1981.

17 ـ غي دى بوشير:ـ "مفاتيح لأجل العالم الثالث"، ترجمة: فؤاد راجي المراد ـ دار الحقيقة ـ بيروت 1982.

18 ـ غوردن ايست:ـ "الجغرافيا توجه التاريخ" ترجمة: جمال الدين ديناصورى دار الحداثة ـ بيروت 1982.

19 ـ شوقي عبدالحكيم:ـ علمنة الدولة وعقلنة التراث العربي" دار العودة ـ بيروت 1979.

20 ـ كاتشافنسكي :ـ عبودية ، اقطاعية أم نمط انتاج آسيوى ترجمة: عارف دليلة ـ دار الطليعة ـ بيروت 1980.

21 ـ لويس يونغ:ـ "العرب وأوروبا" ترجمة: ميشيل إزرق دار الطليعة ـ بيروت 1979.

.../...

22 ـ مالك بن نبي :ـ "وجهة العالم الاسلامي" ـ ترجمة: عبدالصابور شاهين دار الفكر ـ دمشق ـ سوريا ـ 1981.

23 ـ مالك بن نبي :ـ "تأملات" ترجمة: ع/شاهين ـ دار الفكر ـ دمشق سوريا 1981.

24 ـ مالك بن نبي :ـ "ميلاد مجتمع أو شبكة العلاقات الاجتماعية" ترجمة: ع/شاهين ـ دار الفكر ـ دمشق ـ سوريا 1981.

25 ـ مالك بن نبي :ـ "في مهب المعركة" ـ دار الفكر ـ دمشق ـ سوريا 1981.

26 ـ مالك بن نبي :ـ "المسلم في عالم الاقتصاد" دار الفكر ـ دمشق سوريا 1981.

****

(27) BENNABI(M):- "Les Conditions de la renaissance " Probléme d'une Civilisation - ALGER 1948.

(28) BOUDON(R):- " Crise de la Sociologie" ED/DROZ . GENEVE - 1971.

(29) CARTIER(J.P) :- " Explorateurs et Explorations " Coll/U - Maîtrise du Monde - PARIS - FRANCE - 1974.

(30) DAHMANI(M):- " L'Occidentalisation du tiers-Monde "Mythes et Réalités ED/ECONOMICA - O.P.U, ALGER - 1984 .

(31) LABBENS (J):- " Sociologie de la pauvreté" Le tiers- Monde , et le Quart-Monde ..ED/ GALLIMARD - FRANCE 1978.

(32) MACHIAVEL :- "Le Prince " traduction :-IVES.LEVY ED/ FLAMMARION FRANCE 1980.

(33) MEGHERBI(A):- "La Pensée Sociologique d'Ibn Khaldoun " S.N.E.D - ALGER 1977.

(34) MIQUEL(A):- " L'Islam et sa civilisation " (7°- 10° Siecle) ED/ A.Colin FRANCE 1977.

(35) PERRIN(G):- "Sociologie de PARETO" P.U.F PARIS - FRANCE- 1966.

(36) REISSMAN(L) :- " Les Classes Sociales aux ETATS UNIS" traduit par :H , et M, LESAGE- P.U.F. PARIS - FRANCE- 1963.

(37) DEPLANHOL(X):-" Les Fondements géographiques de l'Islam" ED/ FLAMMARION - FRANCE 1968.

.../...

3) ـ مراجع خاصة بالبداوة والقرى:ـ

"مصدر" 38 ـ ابن خلدون (ع):ـ "المقدمة" مطبعة محمد عاطف بمصر ـ دون تاريخ .

"مصدر" 39 ـ ابن خلدون (ع):ـ "كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ..." بيروت 1979.

40 ـ أسعد علي :ـ "البداوة المنقذة" دار الرائد العربي بيروت 1981.

41 ـ جغلول (ع) :ـ "الاشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون " ترجمة:ـ فيصل عباس ـ دار الحداثة ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1981.

42 ـ فرج الله صالح ديب:ـ "القرية وسوسيولوجيا الانتقال الى السوق" دار الحداثة بيروت 1981.

43 ـ علي زيعور:ـ "الدراسة النفسية ـ الاجتماعية بالعينة للذات العربية" من مونوغرافيا قرية الى التنمية الوطنية ـ دار الطليعة بيروت 1978.

44 ـ محي الدين صابر ، ولويس كامل ملكية: "البدو ، والبداوة ، مفاهيم ومناهج " سرس الليان ـ القاهرة ـ مصر 1966.

§§§§§§§§§§§§

(45) MAAROUF(N):- " La relation Ville-Compagne "ED/O.P.U ALGER - 1981.

(46) U.N.E.S.C.O:- " Nomades et Nomadisme au SAHARA" Imp/R.OLDENBOURG MUNICH- R.F.A - 1963.

(47) BOUZAR(W) :- " La Mouvance et la Pause" T:-1 ED/S.N.E.D - ALGER1983

****

.../...

4) ـ مراجع خاصة بالمغرب العربي :ـ

"مصدر" 48 ـ الادريسي :ـ نزهة المشتاق في إختراق الآفاق (المغرب العربي من كتاب "نزهة المشتاق.." حققه ونقله الى الفرنسية أيضا محمد حاج صادق، ديوان المطبوعات الجامعية وبلجيكا 1983) .

****

(49) BERQUE(J) : - " Maghreb ; Histoire et Sociétés " ED/S.N.E.D, et DUCULOT BELGIQUE 1974.

(50) CAMAU(C) :- " Pouvoirs et Institutions au Maghréb"coll/Horizon-Maghréb TUNIS1976.

(51) HARMASSI(E) :- "Etat et Société au Maghréb" ED/Anthropos - FRANCE1975.

(52) LAROUI(A):- "Histoire du MAGHREB" -T:1- Maspéro - FRANCE 1976.

(53) LEON,l'Africain:- "Déscription de l'Afrique" traduit de l'Italien par:- Epaulard .Maison N.PARIS1956.

5) ـ مراجع خاصة "بالجزائر" :ـ

54 ـ بوقصـــاص (ع):ـ "بحث حول دور البلدية في التخطيط والتنمية الاجتماعية" أطروحة ـ معهد العلوم الاجتماعية ـ 1982/1983.

55 ـ رأس مال (ع):ـ "الهجرة الداخلية ونظرية الحراك الاجتماعـــي" أطروحة ـ معهد العلوم الاجتماعية 1980/1981.

56 ـ عدى الهوارى:ـ "الاستعمار الفرنسي في الجزائر"ترجمة: جوزيف عبدالله ـ دار الحداثة ـ بيروت 1983.

57 ـ كارل ماركس:ـ "حول الهند والجزائر" تعريب: ش . دشونـــي ـ دار ابن خلدون بيروت 1980.

****

(58) BOURDIEU(P):- "Sociologie de l'Algérie" ED/ P.U.F - PARIS 1980.

(59) BOURDIEU(P) et SAYAD(A) :- " Le Déracinement" - la crise de l'Agriculture traditionnelle en Algerie - ED/ Minuit - FRANCE 1977.

(60) FANON(F): " Sociologie d'une révolution " ED/ Maspero -FRANCE 1978.

(61) Fanon/(F) :- " les Damnés de la terre " ED/ Maspero - FRANCE 1979.

../..

(62) GALLISSOT(R), BADIA(G):-"Marxisme et ALGERIE" ED/10-18 - PARIS1976.

(63) GOURGEOT(F):- "Situation politique de l'ALGERIE" Challamel Ainé -PARIS 1881.

(64) GOLDZEIGUER(A.R) :- "Le Royaume Arabe " S.N.E.D - ALGER1977.

(65) MAAROUF(N):- " Lécture de l'Espace OASIEN" Bib.ARABE ED/SINDBAD- PARIS 1980.

(66) MAAROUF(N) :- "Térroirs et Villages Algériens " ED/ O.P.U- ALGER1981.

(67) LUCAS , VATIN:- "L'ALGERIE des Anthropologues" ED/ Maspéro -FRANCE 1978.

(68) SARI (D) :- " L'Insurréction de 188I- 1882" ED/S.N.E.D - ALGER 1981.

****

6) ـ مراجع خاصة بالمنطقة المبحوثة :ـ

69 ـ عبدالحميد زوزو :ـ "ثورة بوعمامة" 1881 ـ 1908 الجـــزء الاول المركز الوطني للدراسات التاريخية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر 1981.

(70) M'BOUKHOBZA:- " L'Agropastoralisme traditionnel en Algerie"ED/O.P.U, ALGER 1982.

(71) CORNATON(M):- "Les regroupements de la décolonisation"ED/ouvriéres -PARIS FRANCE 1967.

(72) LAMARTINIERE; LACROIX:- " Documents pour Sérvir à l'Etude sur le Nord - Ouest Africain " T:-2 - Maison L.Danel .de LILLE - FRANCE 1896.

(73) GAUDRY (M):- " Société Féminine au Djébél AMOUR et au KSEL" S.A.I.D-ALGER- 1961.

7) ـ ملتقيات دولية ووطنيـــة :ـ

1) ـ ملتقى حول "النتائج الاجتماعية للتصنيع والتغير التكنولوجي" نوفمــبر "1959" ، القاهـــرة (مـــصر) .

74 ـ دراسة "احمد أبوزيد" :ـ الانثربولوجيا ومشكلات التحضـــر" .

75 ـ دراسة ابراهيم زرقانة :ـ "أسباب ظاهرة البداوة وحجمها"

.../...

76 ـ دراسة محي الدين صابر:ـ "عوامل التغير الحضارى في نمط الحيـاة البدويـة" .

77 ـ دولت أحمد صادق: الاقتصاد البدوى التقليدى كعامل من عوامل البـداوة.

78 ـ محمد الناصرى: مشكلات البداوة ومشروعات التوطين في المملكة المغربيـة .

79 ـ مكي الجميل :ـ "التوطين والوحدة القوميـة" .

حـ) ـ ملتقى حول "وضعية العلوم الاجتماعية" :ـ "ماى 1984" وهـران ـ الجزائـر .

80 ـ رأس مال (ع): "حول منهجية البحث لتحليل الواقع السهبي في الجزائـر" .

د) ـ ملتقى حول "بنيـة المجتمع الجزائـرى منذ 1962" .

81 ـ رأس مال (ع): "بنيـة المجتمع البدوى منذ الاستقلال" .

5) § Colloque Intérnational sur le Pastoralisme Nomade - PARIS 1976 -

"Production Pastorale et Société " Décembre 1976 -

(82) BONTE (P) :- " Ségmentarité et pouvoir chez les Eleveurs Nomades SAHARIENS "

6) § Seminaire Intérnational sur le Pastoralisme - Avril 1974 - ALGER.

(83) BENAOUM(A) :- " Les obstacles du developpement de l'Elevage Pastoral"

(84) BOUATTOURA (N):- " Les Cultures Fourragéres en Culture Séche"

(85) CHELLIG(R) :- " Les Pâturages Stéppiques" .

(86) COUDERC (R) :- "De la tribu à la Coopérative" .

(87) DOGNIN(M.R.) :- " Sociologie de la Stéppe " .

(88) KOUIDER(M) :- " Possibilité de l'Abroculture" .

(89) M.A.R.A:- "Le reboissement, et le brise- vent Stéppique" .

(90) MAURY(P) :- " Le Programme du developpement du Pastoralisme "ALGERIE 16.

(91) Rapport de la WILAYA des OASIS .

.../...

7)§"Colloque des chércheurs Maghrébins" PARIS– FRANCE – 1976.

"– Méthodes d'Approche du Monde rural – "

92) HADDAB(M) :– " Elément de problématique pour une approche des structures de la Péroéption dominante dans l'univers stéppique" .

93) BOUKHOBZA(M') :– " Quelques problémes méthodologiques que pose la coll-écte de l'Information en vue d'Une rechérche, socio-économique"

* * * * *

8) "SEMINAIRE NATIONAL SUR LE DEVELOPPEMENT DE LA STEPPE " – SAIDA, ALGERIE, Séptembre 1983.

(94) ABBACI(M) :– "Représentation du projet Agro-Pastoral"

(95) BADRANI(S):– " La Stéppe Algérienne "

(96) BENAOUM (A) :– " Remarques sur le développement de l'Elevage ovin dans la WILAYA de SAIDA .

(97) BENSAAD(H):– " L'Enérgie Eolienne " Pérspéctives d'Utilisation "

(98) KAOUAH (A) :– " Rapport sur la stéppe" H.C.D.S – ALGERIE –

(99) SAHLI(Z) :– "L'Elevage Pastoral " Téchnologie d'Avenir ?

100) راس مال (ع) : ـ "رؤى حول الحراك الاجتماعي في المنطقة السهبية" ـ قرية عسلة نموذجا .

§§

• ١١٥٢

.../...

8) — مجلات ، وثائق ، تقارير ، دراسات:—

الانسان :— مجلة يصدرها مركز البحوث للانثربولوجيا وماقبل التاريخ والاثنوغرافيا الجزائر 1983/1.

101 — محمد السويدى:— "البداوة بين الانثربولوجيا الاجتماعية ، وعلم الاجتماع البدوى".

الانسان 1983/2:

(102) N. CHELLIG : – "Réfléxions sur les transformations Socio- Economique dans dans la Stéppe "
(103) SMATI (M) :– " Ouled sidi Cheikh " un Maraboutisme Armé .

المستقبل العربي : 1985/9 — بيروت — لبنان.

(104) دراسة "خلدون حسن النقيب" بناء المجتمع العربي" بعض الفروض البحثية — مركز دراسات الوحدة العربية .

شؤون عربية: 1982/12 "تونس" —

(105) دراسة حافظ أمين :— الادارة عند العرب.

(106) وزارة الاعلام والثقافة:— ميثاق الثورة الزراعية" الملحق المتعلق بالسهوب".

(107) التقرير البلدي: بلدية "عسلة" 1970 ، 1972 ، 1982

* * * * * * *§* * * * *

(108) A.A. R.D.E.S:– " Etude Pastoralisme" EL– BAYADH , – MECHERIA – MAI 1978.. et H.ELKENZ:– " Elevage et Agriculture" et "Agriculture Stéppique" .

(109) A.A.R.D.E.S:– "Etude Nátionale sur les MIGRATIONS " ALGER 1979.

(110) ALGERIE– ACTUALITE:– N°955 – 2/ 8 Février 1984.
– N° 998– 29 Nov/5 Dec 1984.

* Africa – Bulletin " WARZAWA" POLAND – N° 29 (sans Date) .

(111) RIBINSKY(A) :– "La Scolarisation des Pasteurs Nomades en ALGERIE Indépendante " Réalisations et Insuffisances "–

**** Bulletin de la Société de Géograhie et d'Archéologie de la Province d' ORAN.

(112) GUENARD (E): " les Ouled sidi Cheikh "– Résumé de leur Histoire _ 1882 .

.../...

(113) "Bulletin de la Société d'éxpansion Coloniale" - 1° Année N°1 -Juin JUILLET 1901. BORDEAUX - FRANCE .

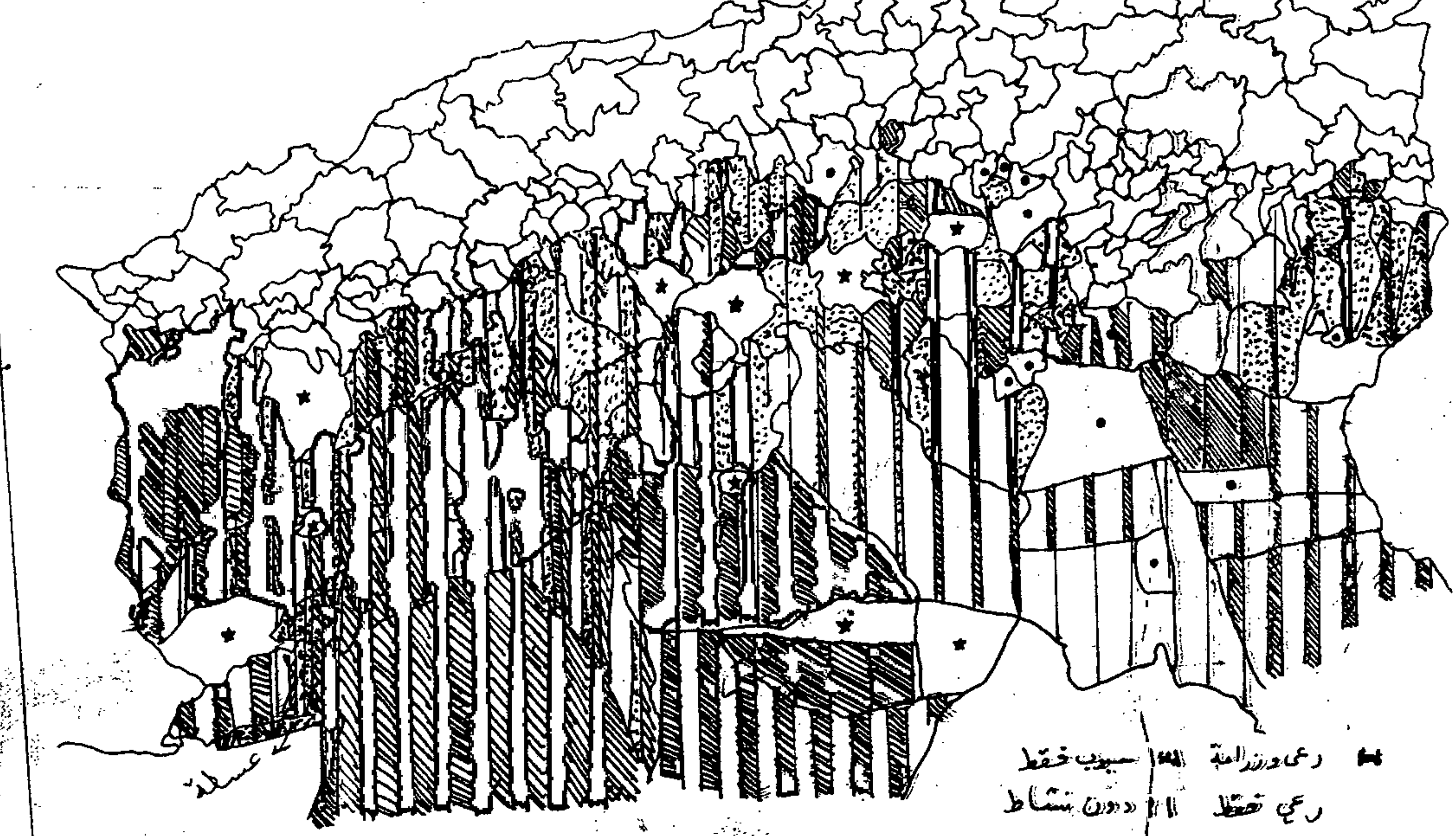
(114) BUNIOSELLY:- " Rapport sur la Tribu des Ouled Sidi Ahmed EL-MEDJDOUB" - Manuscrit - Ain - séfra . ALGERIE, séptembre 1917.

(115) M.A.R.A:- "Enquête sur le Nomadisme " 1968.

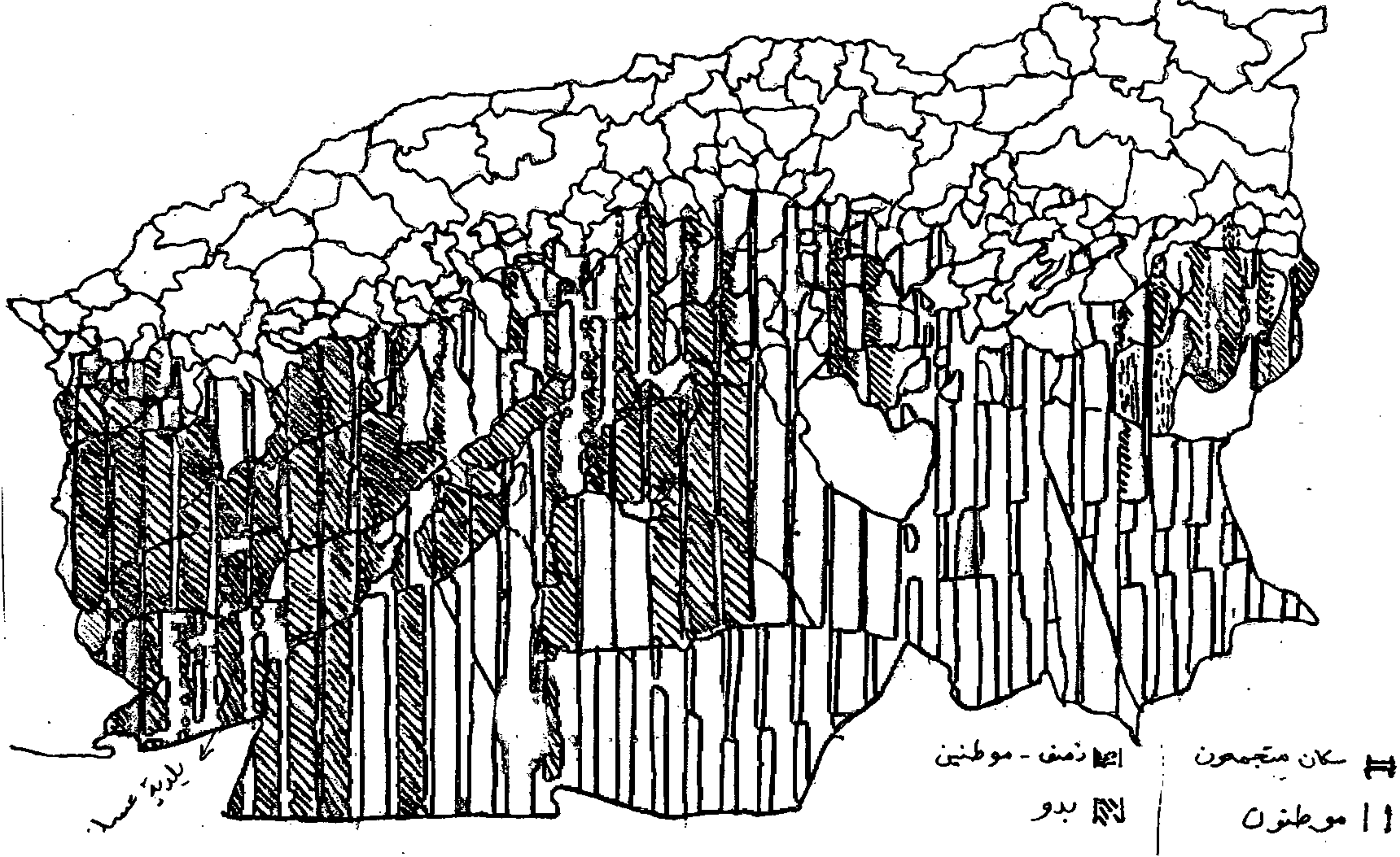
§§§§§*****§§§§§§§§******§§§§§§§§§

توزيع الزراعة والرعي لدى البدو

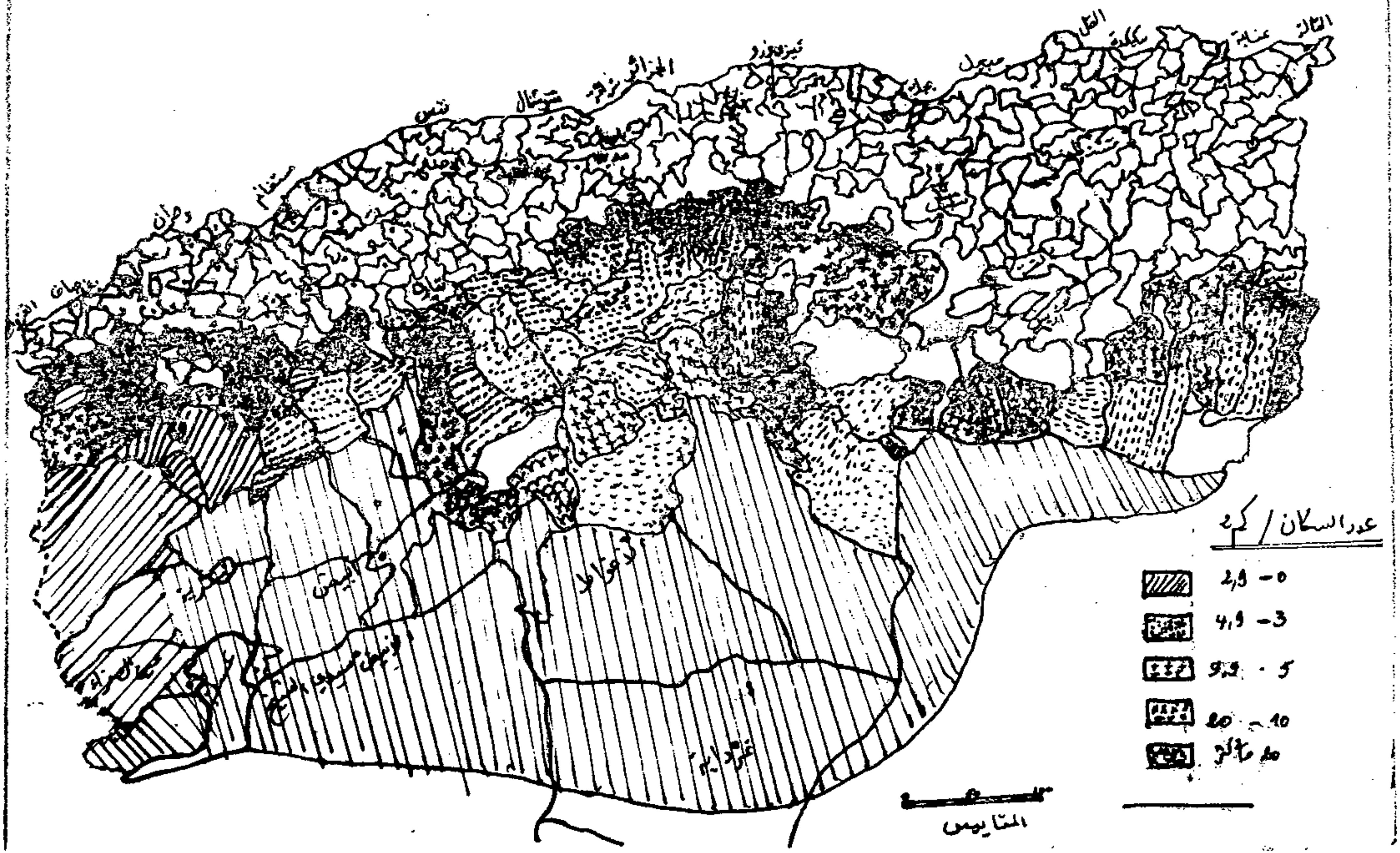
* مناطق غير مبحوثة



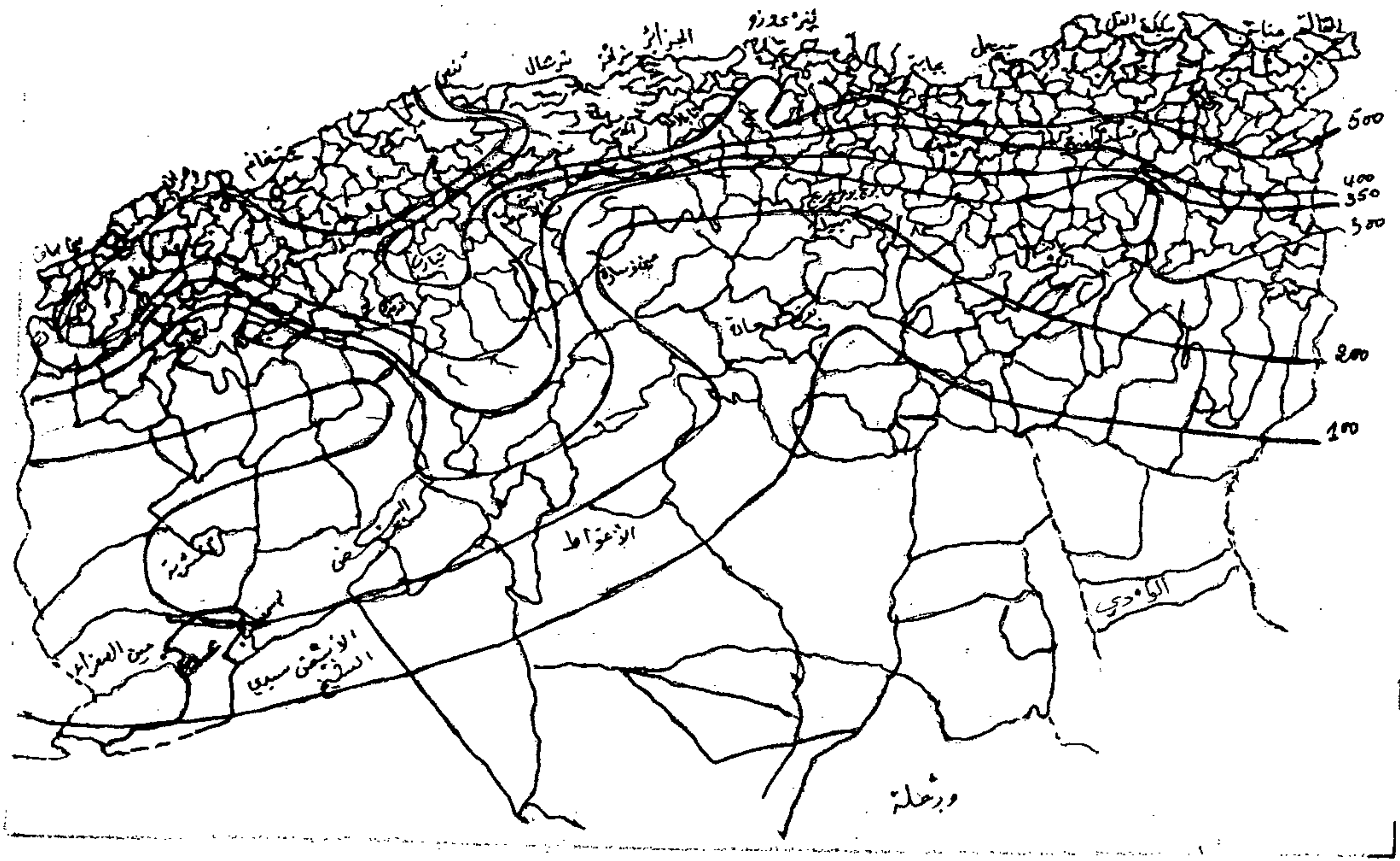
التوزيع العام لفئات السكان



كثافة السكان (1968)



1 سبتمبر إلى 30 أفريل (المتوسط بين 1931 - 1960).



رحلة الشتاء لسكان السهوب في سنة عادية

المرحلة بين 1962 - 1968



